



كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر



بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٢٣

٢

وَمَا كُنَّا مِنَ الَّذِينَ فَنَّاكَرُوا



عَاقِبَةُ الْمُسْلِمِينَ

مِنَ السَّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ التَّطَبُّقِيَّةِ تِلْكَ الْأَوَّلُ الْإِلَهِيَّةِ



الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ

عَبْدُ اللَّهِ مُقْبِلُ الْحَجْدِي

كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة



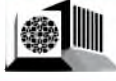
عَاقِبَةُ الْمُحْسِنِينَ
عَنِ السَّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ التَّطْيِيقِيَّةِ فِي تَدْوِيلِ الْأَيْدِي



AKİBETU- L'MUNZERÎN

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul
2024 - 1446



كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

بِصَالَةِ الْعُرْفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٢٣



٢

وَهَذَا كَرَمَ اللَّهِ مَقِيلَكُمْ

عَاقِبَةُ الْمُسْتَدِيرِ

مِنْ السَّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ تَدَاوُلِ الْأَعْمَالِ

الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ

مُحَمَّدُ السَّالِمُ مُقْبِلُ الْمُجِيدِي

كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
— خبارك الأفضل للمعرفة الآمنة —

عَاقِبَةُ الْبُزْدَرِيْن

مِنَ السَّنَنِ الْإِهْمِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَوَّلِ الْإِطْلَاقِ

تَجَنُّدُ الْمَسْلُوكِ مُقْبِلُ الْمَجْتَرِي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات: 344 ص

ISBN: 978-625-8063-73-8

الطبعة الأولى ١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ.د/ رمضان خميس

كلية الشريعة/ جامعة قطر

د.عمر بن بوذينة

كلية الشريعة- جامعة قطر

المراجعون

الشيخ / العزي سليمان

أ.د/ سعيد بن دحاج د / حمود ردمان

د / عامر الخميسي أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basım maltepe Mh. Litros Yolu 2. M. albaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ رمضان خميس

حمداً لله ربّ العالمين، وصلاة وسلاماً على سيّد الخلق وخاتم المرسلين سيّدنا محمد، وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

اللَّهُمَّ إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقوّاتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوّتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها، يا أرحم الراحمين.

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن تجعل أقوالنا وأعمالنا وحركاتنا وسكناتنا فيك لك خالصة، إنك على كل شيء قدير.

اللَّهُمَّ إنا نسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، ونسألك مرافقة نبيك ﷺ في الجنة. أما بعد:

فكتاب: (عاقبة المنذرين: من السُّنَنِ الإلهيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ في تداول الأيام)، لأخي الحبيب العالم الأجلّ لأهبِ الحسّ، سابقِ الحدس، زكيّ النفس فضيلة الأستاذ الدكتور عبد السلام المجيدي -حفظه الله- وكتب له القبول والستر، هو من الكتب التي جمعت فأوعت، وضمت فاستوعبت، استوعبت مضامين عميقة تتوزع بين الفكرة اللاهبة، والتطبيق المناسب، والطموح الآمل، والحرص على أمة طال نومها وغياها، حتى يصرخ فيها هذا العالم الداعية من أعماق صوته، ويبثّ فيها من داخل نفسه في كلّ عبارة أو إشارة في الكتاب الذي يكتبه، أو الحديث الذي يتحدثه، أو المطارحات التي يطوف بها من المشرق إلى المغرب، وكأنه -ولا أزكيه على الله- رجل أتى من عصر آخر، فدهش لحال الأمة وما هي عليه، فلم يذبه واقعها في متاهات الجزئيات، ولم يصرفه كثرة ترديها عن الكبريات الملمّات،

فكانت عناوينه إذا كتب وأحاديثه إذا تحدّث حديث أمة، وخطاباته إذا خطب خطابات أمة، الرسالية في منهجه واضحة، واللهب بل الاحتراق من داخله على أمته لا يتوقّف. تنوعت الثغور التي رابط عليها فتراه يلقي في كلّ غنيمة بسهم، وفي كلّ ميدان رمية، فهو يعيش شعار (لعلها المنجية).

فتراه في حقل من الحقول يتوقّف على الإقراء والتوريث العلمي، ولها جيل من الطلاب يرتحلون ويحلون، ولم يغفل الجانب التأصيلي لهذا الحقل الخطير منذ شرح شبابه وهو الشاب المكتهل، فتراه يختار في رسالتيه العلميّتين ما ينبئك بوضوح الرؤية لديه فيختار في أطروحته الأولى: وهي شهادة التخصص (الماجستير) عنوان: (تلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألفاظ القرآن الكريم)، وقد حازها من جامعة القرآن الكريم في مجال التفسير وعلوم القرآن الكريم بتقدير (ممتاز) مع التوصية بطباعة الرسالة في عام ١٩٩٩م.

وتراه في رسالته الثانية شهادة العالمية العليا (الدكتوراه) يختار عنوانها: (تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه ألفاظ القرآن الكريم)، وقد حازها من جامعة القرآن الكريم في مجال التفسير وعلوم القرآن الكريم بتقدير (ممتاز) مع التوصية بطباعة الرسالة في ٥ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ الموافق ٢٥ / ٧ / ٢٠٠١م.

وفي بحوثه وكتاباته تراه يكتب: (تلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألفاظ القرآن الكريم)، و (الجامعة القرآنية في العهد النبوي)، (أبرز ظواهر الخلل في دقائق الأداء القرآني: دراسة تطبيقية ترصد أبرز أخطاء المتسابقين في المسابقات القرآنية الدولية) وهكذا....

وتراه في الموسوعية متنوع المشارب، متعدّد المواهب، يتتبع الفكرة إلى جذورها ويتابع مراحلها وتطورها، وهو المعنيّ بموسوعة: (التسوير المعنوي لسور القرآن الكريم) فيكتب

فيه من التأصيل إلى التنزيل بصورة عجيبة لا تملك حيالها إلا أن تدعوه بالبركة في الوقت، وقوة الظهر، وقبول الأثر، وبقاء النفع، فهو كالغيث أينما وقع نفع، ولا أزكيه على الله. أما إذا أتينا إلى ميدان السُّننِ الرَّبَّانِيَّةِ فهو فارس ميدان، ورائد فرسان، وحادي ركبان، فتراه يكتب:

- "المدخل إلى عِلْمِ السُّننِ الرَّبَّانِيَّةِ".
- "اقتحام العقبة": من سنن تداول الأيام (سنة التدافع والخروج من الاستضعاف، رؤية قرآنية لصناعة التوازن والسلام العالميين).
- "سُنَّةُ التَّربُّص: معالمها القرآنية، وأثرها في تحقيق التمكين".
- "سُنَّةُ نقص الأرض من أطرافها وأثرها في ازدهار الدول وانهارها".
- "عاقبة المنذرین" (من السُّننِ الإلهيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ في تداول الأيام).

وهذا المولود الأخير هو الذي نتمتع بالنظر إليه، والتقديم بين يديه، وقد حوى من المزايا الكثير والكثير، ومن أبرزها تلك النقاط اللامعة، ومن أهمها:

(١) **البيان المشرق**، وهذا نضح القرآن الكريم على الشيخ منذ صباه، وهو صحبته التي لا تنقطع، وسميره الذي لا يمل.

(٢) **الروح اللاهبة**، وهذه طبيعة شخصية تجمع بين حرارة الحس، وصدق الحدس، وقد قيل لشيخنا العلامة شياخي وأستاذي العلامة الشيخ محمد الغزالي رحمته الله: أنت متهم بأنك حاد العاطفة، فقال لا، بل أنا حائرُ العاطفة؛ لأنني أكره النفس الباردة في معالجة الأمور، وقد صدق، وهذا الوصف من حرارة العاطفة ورثه أخي الأحبُّ فضيلة الأستاذ الدكتور عبد السلام، وله منه نصيب معلّى.

٣) التدفق السلس الذي يتدفق كأنه قطرة تسيل من فم السقاء، فلا اعتساف، ولا تكلف، بل سلسل من سلسل، ورواء من رواء.

٤) تنويع المشرب من مشرقى إلى مغربي، وهذا أثر انفتاح الشيخ على ثقافات متعددة، ووقوفه على تاريخ القوم، وهذا من لوازم التميز علمًا ودعوة.

٥) استحضار الأدب العربي قديمه وحديثه بصورة رشيقة أنيقة، ولم لا! وهو وريث جامعة الإيمان، والعربي القحُّ عروبة صافية، لها من جذرها اللغوي الصفاء والنقاء والوضوح والرواء.

٦) التنزيل على الواقع بمهارة تؤكد الوعي بالميدان، وعدم الاعتزال في كهف العلم المجرد، فيسعى الشيخ دومًا في هذا الكتاب، وفي كثير مما يكتب إلى الجمع بين الوعي والسعي، والتأصيل والتنزيل، والفهم والتسخير، والعلم والعمل، والإدراك والحراك.

٧) مزية الربط عبر السؤال مما يثير النفس ويحفزها على توقع الإجابة، وسيرى القارئ الكريم في الكتاب الماتع كثيرًا من هذا.

٨) بثُّ اللمسات البليغة بصورة طبيعية، وتلك مزية راقية.

٩) كلُّ اللافتات تقريبًا التي حوّاها الكتاب الكريم تلغرافات مهمة جدًا صياغة ومضمونًا، وأقترح توسيع نشرها مع تصميمات مناسبة، تكون خلاصات لمقروء لهذا الكتاب المبارك.

١٠) التواضع العلمي اللافت الذي يتشني عليه الكتاب والكاتب، وهذا سر القبول والنفع. وتلك عشرة كاملة.



أسأل الله تعالى لأخي الأحب فضيلة الأستاذ الدكتور عبد السلام أن يقوِّي ظهره، وأن يبارك عمله، وأن يبلغ عنه، وأن يعينه على إتمام رسالته، وإكمال مهمته التي حملها على كاهله، رغم ثقل العبء، وقلة الظهير، وضعف النصير، ومشغلة الأقران، وتشعب الوديان.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه

رمضان خميس

كلية الشريعة - جامعة قطر

الخميس ٢٢ من ذي القعدة ١٤٤٥ هـ

٣٠ من مايو ٢٠٢٤ م

تقديم فضيلة الدكتور/ عمر بن بوذينة

لم تزل المعركة بين الحقِّ والباطل مادامت السماوات والأرض، لن تنطفئ نارها ولن يخبو أوارها، وتلك سنة الله في العالمين.

وما زالت النكبات والأزمات تترى في الأمة الإسلامية؛ تذكيتها قوى السوء في هذا العالم شريقها وغريبها، تمعن في الاستلاب، وتوغل بحقدتها التاريخي في أعماق المجتمع الإسلامي، بتزييف تاريخه، وتشويه واقعه، وخنق مستقبله، وردم كلِّ صوت منذرٍ إلى الله ﷻ، فهامي تَعملُ خناجرها في حناجر المنذرين الذين (لا يُريدونَ علوًّا في الأرضِ ولا فسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

و(عاقبة المنذرين) قَبَسٌ من عباد الله المخلصين، ونداء قرآني صادق بصير، احتمل أمانته مؤلِّفه، مستوعبًا في كتابه السنن الإلهية الاجتماعية والتاريخية، وعينه على واقعه المكلموم، الذي ما فتى يشير إلى تفاصيله في صفحات الكتاب بهمَّه الرسالي، واستبصاره بهدي التنزيل الحكيم، ورؤيته إلى المستقبل بعين التاريخ، فوقائع التاريخ ليست أحداثًا تروى لتطوى، بل هي بصائر وعبر تملئها الضرورة الدينية والمطالب الحضارية.

الكتاب يفتح بعضًا من مغاليق الفهم، خصوصًا بما يتعلق بسُنَّة التداولية، فهو يتجه إلى دراسة هذا المفهوم بما أسماه مؤلِّفه "مطارق السنن الكونية"، ولا يقتصر في تحليل أبعادها على المجال الجغرافي الإسلامي، بل إنه يوسع دائرة "التنذير" إلى فضاءات الإنسانية التي تتهددها اليوم أشكال جديدة من الاجتثاث الحضاري، ويصور الكتاب مآلات المجتمعات البشريَّة في ظلِّ سطوة الاستكبار العالميِّ وقوى الشر المطلق، التي تتخذ من إنسان الفطرة اليوم مشروعًا "لإعادة التشكيل" بعد اكتمال حلقات الاستضعاف وسلب الهويات. فيعالج



بين يدي الكتاب

الحمد لله.. الذي جعل القرآن العظيم تجارةً لن تبور، واستثماراً لا تضيع أرباحه، وضياءً لا يُطفأ مصباحه، وسراجاً لا يخبو توقُّده، ومنهجاً لا يضلُّ سالكه، ومعيناً لا يبلى تجلُّده، وفرقاً لا يحمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاء لا تغشاه الأسقام، ونوراً يهدي البشرية سبل السلام، وعِزّاً لا تهزمه تجمعات الأحزاب، وحقاً لا يطرأ على حُجَجِه عند ذوي العقل أدنى شكٍّ أو ارتياب.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى، وَالْخَلِيلِ الْمُجْتَبَى، وَالشَّفِيعِ الْمُرْتَجَى، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ اهْتَدَى.

اللَّهُمَّ رَبِّ.. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ: هَبْ لَنَا حَكْماً، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، واجعل لنا لسان صدقٍ في الآخرين، واجعلنا من ورثة جنة النعيم، ولا تخزننا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.. كن بنا حفيظاً، وارفعنا مكاناً علياً... اللَّهُمَّ آمِينَ.

بين نهاية التاريخ وتداول الأيام:

في سنة ستٍّ وخمسين وأربعمائة للهجرة حدث زلزالٌ نفسيٌّ ضخْمٌ لأهل قرطبة.. أمَّا سبب الزلزال فكان تنافس ولدي أبي الوليد بن جَهْوَر في حيازة إمارة قرطبة، وتنازع الشَّقِيقَيْنِ!!:
عبد الرَّحْمَنِ وعبد الملك.. كان ذلك بعد خروج إمارة قرطبة من مرارة الصِّراع بين عبد الملك (الذي يعدُّ وزير الدِّفاع، وقائد القَوَّاتِ المسلَّحة، فهو القائم بأمر الجُنْد) وبين ابن السَّقاء مدبر الدَّولة (الذي يُعدُّ رئيس الوزراء)، ثم نكب عبد الملك أخاه الكبير عبد الرَّحْمَنِ،

وقرب لنفسه مستشاري سوء، فساموا أهل قرطبة المظالم المالية والنفسية المعتادة من الطغاة، وفي هذا الجو السياسي التأمري الأسن اشتهدت نفس يحيى بن ذي النون ملك طليطلة الاستيلاء على قرطبة، ولقد كان يُيَّتُ المكر الكبار لذلك قديماً، فاستمد ابن جهور من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية أن يعينه ضد خصمه، فأرسل إليه قوات من جيشه لتشكّل حلفاً ضدّ عدوّه!، ولكن المعتمد أضمر الغدر بمن استعان به.. تصوّر أنّك في ذلك الوقت، وتصور أنّنا نتكلّم عن مسلمين يؤمنون بالقرآن المبين!!

وافت القوات المسلحة الإشبيلية قرطبة، ونزلوا شريقها، «أقاموا بها أياماً يحمون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويدبّون عن جناها، وأفواههم تتحلّب إليه»^(١)، وملّ ابنُ ذي النون من حصاره لإخوانه، فنادى على قواته الغازية لديار أشقائه المسلمين بالرّحيل.. مهلاً! هل تعلم أن جميع الثلاثة كانوا يدفعون الجزية السنوية لملوك قشتالة الفرنجة؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ ما إن ظهر لملك قرطبة ابن جهور أن الخطر الطليطلي انتهى، حتى هجمت عليه قوات التحالف الإشبيلي من جنود ابن عباد غدرًا وبغيًا، فأحدقوا بقصر الإمارة، فقبضت مليشيات القوات العبادية على أبي الوليد بن جهور وعلى إخوته، وسائر أهل بيته وأسرتهم، فأخرجوا من ديارهم وأمورهم على أسوأ حالات الدّلة والإهانة، ولما وصل قنطرة قرطبة خارجاً منها رفع يديه إلى السّماء، وأخذ يبتهل في الدّعاء، وكان ممّا حفظ عنه قوله: «اللّهمّ كما أجبتم الدّعاء علينا، فأجبه لنا».

فتأمّل غدر المسلم بالمسلم، كأن لم يقرؤوا من كتاب الله ﷻ وسُنّة نبيّه ﷺ حرفاً، ولم يقفوا على شيء من عواقب الغدر والجور وصدفًا، ولم يبرح الثلاثة: ابن جهور ملك قرطبة،

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ٦١٠).

وابن ذي النون ملك طليطلة، والمُعتمد بن عَبَّاد ملك إشبيلية حتى أخذتهم سيوف السُّنن الإلهية التي لا تخلف، وأضحى ملك الجميع في يد ملوك قشتالة في زمنٍ يسير..

إنها مطارق السُّنن الكونية، والأيام حبلَى، والتاريخ له ألف عودة، فلا نهاية لتداول الأيام حتى ينفخ في الصور، ويأتي اليوم الحق.
إنها مطارق السُّنن التي لا تتخلف، فأعملَ نَظَرَ العين في فقه دروس التاريخ، وقلِّبَ الفؤاد والبصر في تغيُّر الحضارات، ووراثه الأرض من بعد أهلها.

هناك ربَّما وجدت نفسك تتساءل عن أهمِّ السُّنن الكلية التي تحكم العالم الدنيوي، ويجيئك الجواب أنَّ أهمَّها بإطلاق: سنة (تداول الأيام)، بل إنَّ التداولية الدهرية تصبغ حياة الناس، وتسير بهم في إطارٍ من التدوير الذي يحكم تحرُّكات الزَّمان، وينقلهم من حالٍ إلى حال، ويجعل أحداثهم مليئة بالتغيُّر والتَّغيير، ووفقَ هذا القانون الكليّ (تداول الأيام) ترى الأيام قُلُوبًا؛ إذ تعصف بالأمم رياح التَّغيير، فتقذف بهم من خضرة التَّمكين إلى حمأة الاستضعاف، وتبادل المواقع بين الدُّول والشُّعوب من الأودية السَّحيقة التي يتخطفها فيها الأقوياء إلى زهرة المَبوَأ العمرانيِّ الصَّادق؛ لتستقلَّ بأمرها وتسعى لإعلاء شأنها وإنهاض رُقيِّها.. لا تظننَّ سُنَّة التَّداول قائمةً على العبث وادِّعاءات الدَّاروينية الاجتماعية الغيبة القاسية..

يلخص الله جلَّ ذكره السُّنَّة وأبرز سببٍ لها فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

وقد أقام الله ﷻ الحجّة على عباده فأسعفهم برسله، وأبان لهم المحجّة بكتبه، وجاءتهم النذارة، ولكن كثيرًا منهم أعرض ونأى، وجاء أمرًا إذاً فحلّت العقوبة بساحته ولم يسطع لها ردًا، فيا لله من نُذِرٍ تتوالى، وأصواتٍ تتعالى! ثم لا تجد من أكثرهم من يلقي للصّريخ بالآ، فيؤول مصيرهم وبالآ فوبالآ.

"عاقبة المنذرین" إيقاظٌ للأمم من دركات الرّق المقنّع المعاصر:

ورد هذا المركب الإضافي "عاقبة المنذرین" في موضعين من القرآن المجيد يحملان معهما رسائل من بداية التّاريخ البشريّ إلى الخلائف الإنسانية لينظروا في وسائل حمايتهم، وسبل إنقاذهم من زلازل تغيّرات التّاريخ وتقلّبات الأيام، وعواصف دول الدّهر. يطرق سمعك، ويلفت نظرك نجمٌ ثاقبٌ مشتركٌ بين الموضوعين.. إنه الارتباط بالتّاريخ البشريّ لأوّل رسالةٍ من رسل أولي العزم، حيث بعث الله ﷻ نوحًا -عليه الصّلاة والسّلام- إلى قومه ﴿فَلَيْكَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وهنا جاءت العظيمة؛ إذ يصف الله ﷻ هذه الألفيّة المليئة بدعوة البشريّة إلى الخير، والمُشخنة بجراح الصّد عن سبيل الله، ويلخص الله ﷻ لك نتائج التّفاعّل الإنسانيّ فيها، فيقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ثم يأمرك أيها القارئ ألا يغفل بصرك، وألا يسكر عقلك، فيقول لك: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، لكأنّ هذه الكلمات تخفي المعاني المنيرة التي تقول لك: انظر بعين البصر والبصيرة كيف أنجينا المؤمنين الذين عملوا بسُنن النّجاة، واتّبعوا أسباب الفلاح وإقامة الحياة؟ وانظر سبيل من هلك من المعرضين عن إنذار النّبيّين كيف أركسوا في أيام نحسات من عذاب الدّهر وآلامه؟

غير أن قومًا يسمعون مثل هذا فيحسبون أن المخاطب غيرهم.. لماذا هذا الشعور؟ لأنهم يظنون أن مجرد قراءتهم للقرآن تعفيهم من مسؤولية الشعور بأنه يخاطبهم كما يخاطب غيرهم.. أتعلم ما أعظم الرزايا التي يلعب بها الشيطان في الخفايا؟

أن يظن قارئ القرآن من العلماء والوعاظ والمثقفين والحكام وسائر المسلمين أن هذين الموضوعين إنما يختص بالنظر فيهما غيرهم، وأن المسلم بمجرد قراءته لهذين الموضوعين ينبغي أن يمر عليهما مرور الكرام، كأن المعنيّ بالإنذار الشديد فيهما غيره!!

الغفلة الكثيفة تحجب أنوار البصائر القرآنية:

تلك حجب الغفلة الكثيفة عن البصائر القرآنية العظيمة، وما زلت ترى المسلمين تأكلهم الأمم من أطرافهم وفي وسطهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٤]، ولقد يظن القارئ أن المنذرين هنا ليسوا إلا الأنبياء ﷺ، أما وقد مضوا، فإن القارئ العابر يقع أسيرًا لوهم شعوري لا إرادي بسبب الغفلة المطبقة، فيحسب أن تلك سير الأولين.. ألا فإن إنذار الأنبياء ﷺ باقي يخاطب به المسلم كما يخاطب به غيره، وكذلك فإن عاقبة المنذرين الأئمة لم تستثن إلا عباد الله المخلصين الذين عرفوها حق المعرفة، وعملوا بمقتضياتها.. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

فمن ينجو من "عاقبة المنذرين"؟ إنهم الذين نالوا شرف الاستثناء، واستحقوا وسام الرعاية والحماية والاعتناء فقال الله - جلّ مجده - عنهم: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات: ٧٤]. ويمكنك أن تجعل هؤلاء الوعاة المخلصين المخلصين استثناء من قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١] فالمخلصون المخلصون لم يصلوا، وبناء على عدم ضلالهم فقد استثناهم الله ﷻ من العاقبة المؤلمة المزلزلة، التي أشار إلى هولها في قوله: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الصافات: ٧٣].



أنوار السَّلام في أزمنة الحرب، وهتافات "عاقبة المنذرين" تُبَصِّرُ بمقومات الأمن في أزمنة التَّمكين والاستضعاف:

"عاقبة المنذرين" صريخ النَّبِيِّينَ الطَّاهِرِينَ في الأرض الواسعة ينادي الذين يدعون إلى الخير: احذروا مصارع الأمم الخالية، فما هي إلا لمحاتٌ من عمر الدَّهر تسيرون فيها على خطاهم، فكأنَّكم ترون مشهداً مشابهاً لما حدث لهم، فيومئذٍ وقعت الواقعة.

"عاقبة المنذرين" يُذَكِّرُ بالهتاف الذي بعثه المرسلون (عليه السلام) في العالم مبشرين ومنذرين، وقد بلغت المحبَّة والإشفاق بخاتمهم (عليه السلام) أن وصف نفسه وصفاً جلياً ظاهراً، يحذِّرُ العالم أن يقعوا صرعى لسنن الدَّمار، فقال (عليه السلام): «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْماً فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْجَاءَ النَّجَاءُ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَذْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاَحَهُمْ»^(١).

"عاقبة المنذرين" صوتٌ يحاول تقديم الحماية للإنسانية من الهلاك المدوِّي، الذي يهدِّد الأفراد والحركات والأمم والجماعات والدُّول والأنظمة المختبئة خلف القصور المزخرفات المزيَّفات.. صوتٌ يحذِّرُ الغافلين من الأمن الكاذب والسَّلامة المغرورة، تزحف إلى أصحابها أسباب الهلاك وهم يلعبون، لاهية قلوبهم، كلِّما حذَّروهم النَّذير استناموا إلى صوت الرَّاحة المفتراة التي يصحبها التَّخدير، وفي نوايغ الحكمة: «عليك بمن ينذر الإبسال والإبلاس،

وإياك ومن يقول: لا بَأْسَ وَلَا تَأْسَ». العواصم والقواصم (١/ ٢٤)

(١) البخاري (٦٤٨٢)، مسلم (٢٢٨٣).

"عاقبة المنذرين" ينادي بحرقه القيادات التائهة، والشعوب الحائرة الضائعة: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ ۝٤٧﴾ [الشورى: ٤٧] استجيبوا واسمعوا للمنذرين، فإن لم تستجيبوا لهم فسيكون الهلاك المبين ولو بعد حين، ومنادي العاقبة ينادي: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٦ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٧ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝٢٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء: ٢٥٥ - ٢٠٩].

ولا تعجب من بقاء المارد الأمريكي في صدارة الأمم، فهم يحاولون البحث الدائم عن عوامل الانهيار، ويشكلون لجائاً لدراستها، ويعترفون بها، ويحاولون استدراك ما يمكنهم استداركه، فقد شكّل الرئيس الأمريكي ريجان لجنة لدراسة الوضع التعليمي في البلد، فأعدت اللجنة تقريراً واقعياً أعلنت فيه: «أمتنا في خطر»، وجاء التقرير في (٣٦) صفحة بعد دراسة استمرت ثمانية عشر شهراً، ومن أكثر ما ورد فيه لفتاً للنظر قولهم: «إذا كان هناك قوة أجنبية معادية حاولت أن تفرض على أمريكا الأداء التعليمي المتوسط كما هو موجود اليوم؛ فإنه يجب أن ينظر إلى ذلك على أنه عملٌ من أعمال الحرب».

والقوم يرصدون بدقة حركات التحوّل الحضاريّ نهوضاً وسقوطاً، ويضعون لذلك الدراسات الاستشرافية الجادة، وليس ببعيد عنا ما طرحه (جوزيف ناي)^(١) من سؤال ملحّ بدأ يشغل العديد من المحلّلين في بداية الألفية الثالثة: هل انتهى عصر التفوّق الأمريكي والقيادة الأحادية للعالم؟^(٢).

الشعور بالاطمئنان بالواقع يعني عدم الحذر، ويؤدي إلى خطر الأمن من مكر الله:

(١) مفكر وسياسي أمريكي، وأحد الأسماء البارزة في الأكاديمية الأمريكية، وصناع الرأي العام الأمريكي.

(٢) هل انتهى القرن الأمريكي؟ جوزيف ناي، ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، (ص: ٢١).

من أخطر ما يصيب الأمة في مسيرتها الشعور بالرضا بالوضع المعيشي، والشعور بالاطمئنان بالوضع الدنيوي الراهن، وعدم الإشفاق من التقلبات الحيوية، والتغيرات التي تأتي بها دول الأيام، ويذكر الله ﷻ هذه الحالة المخيفة لتذكرها القلوب اليقظة، فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعَنَّ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، لا تحسبن الآية تكلمك عن غير المسلمين، فالسُنن الكونية لا تحابي أحداً، وليعلم المسلمون أنهم أول من يدخل في الآية، وقد كتب الطرطوشي رحمه الله في كتابه السياسي "سراج الملوك" (١) يذكر النائمين بتقلبات الأيام، وينقل قول القائل:

أَحْسَنْتَ ظَنَّنَكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنْتَ وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمْتَكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ (٢)

يتوهم الأفراد والنظم والجماعات والدول والزعامات أنهم يمكن أن يخرجوا عن مطارق السنن، ربما رأيتهم يتسمون ابتسامة القادر المفكر كأنك بأحدهم يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، لكأنك ترى العصبية منهم يتفاخرون، فيقولون بلسان تقديرهم وتديبرهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟! وترى حال الأمم شتى: يفرح بعضهم بجهودهم، وبعضهم بثرواتهم، وبعضهم بقواتهم، وبعضهم بمخبراتهم، فعموا وصموا عن مصارع الأمم

(١) سراج الملوك (ص: ٧).

(٢) البيتان ينسبهما البعض للشافعي، والبعض ينسبهما لغيره يقال له: سعيد بن حميد، أو سعيد بن وهب، وربما نسبهما البعض لعبد الملك بن مروان. ينظر: الزهرة، لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني (٢/ ٨٠٦)، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (٢/ ٣٩٩).



المتلاحقة التي يقول الله ﷻ عن واحدٍ من أعظم ملوكها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

ألا أخبرني: كيف يمكن أن توجد العبرة لمن يخشى عندما يجعل المرء كل من حوله فقط يردّدون ما يريده؟! تصوّر عندما يسخر إنسان مراكز البحوث والمؤسّسات الاستشاريّة والمُنَادِمين وخبراء الرّأي والأصدقاء يمجّدون تصوّراته وتفكيره، وقد زعمت رواية الحِكم في معنى هذا المسلك أن الأسد والثعلب والذئب خرجوا يتصيدون، فاصطادوا حمار وحش وضبّا وغزالاً، ثم جلسوا يقتسمون، فقال الأسد للذئب: هات قسمتك لهذا الصّيد. فقال: تلك قسمة قدريّة عادلة، فأما حمار الوحش فلي، وأما الغزال فلأبي الحارث -يعني الأسد- وأما الضّب فللثعلب، فضربه الأسد ضربة أسالت الدّم فوق رأسه وجسده، فقَدّم الثعلب مبادرته، فقال: أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحارث يتغدّى به، والغزال لأبي الحارث يتعشّى به، والضّب لأبي الحارث يتنفل به فيما بين ذلك. فقال له الأسد: لله درك من عالم بالقسمة العادلة، والتّدير المُحكّم. من أين تعلمت ذلك؟ فقال: من التّاج الأحمر الذي ألبسته الذئب، فقد خَطّت سطره فوق جسده حكمة العالم.

قارن هذا بما صنّعه الولايات المتّحدة الأمريكيّة عام ١٩٤١م بعد عامين من اندلاع الحرب العالميّة الثّانية، حينما شعرت بالخطر الذي يحرق بمصالحها الأساسيّة، فبادرت بإنشاء (مكتب الخدمات الاستراتيجيّة) الذي يضمّ عناصر ذات مهارات تدريبيّة عالية.. ومهمّتها اكتشاف الخطر قبل وقوعه، والتّخلّص من مصدره بوسيلة أو أخرى^(١).

(١) من الذي دفع للزّمار؟ ف. س. سوندرز، ترجمة: طلعت الشّايب، مراجعة: عاصم الدسوقي، ط ٤ ٢٠٠٩م (ص: ١١).



"عاقبة المنذرين" صيحة تجذب أنظارك لتمرّ على القرى التي أمطرت مطر السوء، فتحدرك الهلاك عندما يكون القوم غافلين، وتخبرك خبر نوح عليه السلام والأمم من بعده.. كيف نابذه قوم أَلْفًا من السنين مستهزئين.. ساخرين.. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْفِكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣].

"عاقبة المنذرين" ليس تحذيرًا للعصاة المجاهرين فحسب، ولا هو -فقط- إخبار عن مصارع المستكبرين.. بل هو -قبل ذلك- إيقاظٌ لي ولك ممن يزعم الصّلاح، وعوامل الخسارة تنهش حياتهم الفردية، وتأكل حركاتهم الجماعية وهم ﴿أَمُوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١].

"عاقبة المنذرين" صرخةٌ تحاول أن تقدّم بعض الحلول للمخاوف الإنسانية التي تتخلّلها الآمال المبعثرة.. المخاوف التي تسكن عالمًا ينهشه الجور، وتتحكّم فيه وحوش الرأسمالية المتحالفة مع أفضع الشركات الاقتصادية شراة، وأقبح النظم الاستبدادية التي تعيش في التاريخ، وتكوّن حلفًا غير مقدّس مع القيادات الدينية الذين غرّهم في دينهم ما كانوا يفترون، ممّن ينتمي اسمًا للكتب الإلهية الثلاثة المشهورة.

"عاقبة المنذرين" يذكّر الصّالحين قبل المعرضين.. ويذكّر المسلمين، ويُنبه أهل الكتابين والعالمين بقول أشعيا النبي: «صوتٌ صارخٌ في البرية: أعدّوا طريق الربّ، قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا، كلّ وطاء يرتفع، وكلّ جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوجّ مستقيماً والعراقيب سهلاً»^(١).

(١) سفر إشعيا (٤٠: ٣، ٤). القس أنطونيوس فكري (ص: ٢٠٨).



"عاقبة المنذرین" كأنه قول يحيى عليه السلام كما في إنجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا (١):

«صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة».

ويحاول كتابنا أن يجيب عن سؤال مؤرق: المعهود أن الظلم يؤدي إلى عدم التمتع بالذات على المدى البعيد، ويؤدي إلى خراب الأمم وفساد حياتها، فلماذا تطاول أمد حيازة بني إسرائيل في واقعهم المعاصر هذه الهيئة الدولية المدهشة مع دخول المحور المتطرف منهم في التخطيط أو التواطؤ مع أبشع ممارسات الظلم المعاصرة؟

ويأتي الجواب عن التساؤل آنفاً ببيان من لدن الله العليم الخبير المقدر لأحوال الأمم والشعوب وتقلباتها، وذلك في قول الله جلّ ذكره: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُوَلُّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ٣ ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا محجل من الله وحجل من الناس وبأعو بعضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴿[آل عمران: ١١١، ١١٢]؛ فإن الله عز وجل استثنى من حالة الذلة المضروبة على المعتدين من أهل الكتاب وجود حبال ممدودة منه بالأمر القدري الذي يقتضي تداول الأيام بين الناس، وكذلك وجود حبال ممدودة من الناس مسلمهم وكافرهم، فهناك ترتفع عنهم الذلة المتعلقة بالسُّلوك الظاهريّ.

أما المسكنة المتعلقة بالشعور الباطنيّ فإنها لا تبرح، فإن وصلوا ذاك المقام لا بد أن تقلّب الطّرف في الجهة المقابلة لهم، أي: في جهة الأمة الخاتمة لتجدها قد غيرت منار دينها، وشاع التّظالم في ساحاتها، فاستحقّت أن يعلو عليها من سواها، وإذا نظرت إلى المنتسبين إلى بني إسرائيل في مثل هذه الأيام تجدهم من أكثر الأمم ادعاء لإشاعة العدل البينيّ فيما بينهم، وقد ينازع أحدهم ويقول: إنّ العنصرية فاشيةٌ عندهم، وهذا صحيح، لكنك مهما وجدت من

(١) إنجيل متى (٣: ٣)، ومرقص (١: ٣)، ولوقا (٣: ٤)، ويوحنا (١: ٢٣).

مظاهر هذا الظلم البيني لا تجده يساوي شيئاً أمام مصانع إهانة الكرامة الإنسانية، والعنصرية

المستشرية في بلاد المسلمين، حتى ليصدق فيهم قول الدكتور/ سعيد بن دحاج:

وَكَرَامَةُ الْإِنْسَانِ لَغَوْرٌ عِنْدَهُمْ فَالشَّعْبُ عَبْدٌ وَالْأَمِيرُ أَمِيرُ
قِيمُ الْحَيَاةِ تُدَاسُّ تَحْتَ نَعَالِهِمْ وَالْعَدْلُ وَهُمْ وَالتَّحَرُّرُ زُورٌ^(١)

والقرآن يخبرنا، وشاهد التاريخ والواقع يؤكد أن العقوبة لا مرية حالة بكل أمة يفشو فيها

الظلم وهنا يكون الجواب على سؤال يتكرر: لماذا لبني إسرائيل الكلمة العليا الآن؟

والظلم سبب لضعف الأمم، واستيلاء أمة على الأمة الظالمة كما هو مشاهد الآن، وسنن

الله ﷻ لا تبدل، فإذا اشترك عدد من الأمم في الظلم فإن الله تعالى يذل أسوأها ظلمًا، ويجعلها

نهبًا لأقلها ظلمًا، والكلام هنا عن الظلم المتعدي، وليس عن ظلم الشرك، لأن الله ﷻ جعل

عقوبة الكفر الذي ليس فيه اعتداء مباشر على الإسلام أو على الناس أخروية غالبًا، كما قال

تعالى جده: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ

نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وما ورد من آيات يتوعد فيها بالعقوبة الدنيوية على

الكفر فإمّا أن يكون كفر النعمة، وإمّا أن يكون الكفر الذي جمع إلى ظلم النفس ظلم

الآخرين، والاعتداء على انتشار الحق المبين، وهنا لفتة قرآنية عظيمة؛ فإن الله ﷻ إذا ذكر

عقاب الكفار الدنيوي تجد أنه يقترن بذكرهم غالبًا اعتداؤهم على المسلمين أو المستضعفين

أو الحق المبين، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ

يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) ينظر: عتب القوافي (ص: ١٩).

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ [الروم: ٤١-٤٢] يدل على وقوع العقوبة بممارسة الأمة للشرك بمظاهره ودوامهم عليه، لكن بملازمة وجود من يدعونهم إلى توحيد الله تعالى ويجاهدونهم على ذلك.. إضافة إلى ما يسوق إليه الشرك من الظلم على الصعيد الفردي والجماعي.

وذلك لأن من أعظم أساسيات القرآن التي يقررها على المسلمين أن المعتدي لا يُصَوَّر فيه أن يكون مسلماً، بل الأصل في المعتدي أن يكون كافراً في الأصل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢].

للأسف ذهب هذا المعنى العظيم فصار أكثر اعتداء على المسلمين يقوم به من يزعمون أنهم مسلمون، والله المستعان، فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَزْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

فلنعد إلى ما تدارسنا حوله؛ فإنك عندما تتأمل في الظلم الدنيوي تجد أن الله -تعالى ذكره- يخبر عن عقوبة ماحقة قريبة، فيقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

والكتاب يحاول تقديم أجوبة تفصيلية عن جملة القضايا المتعلقة بذلك.

وبعد:

فإني لأرجو أن تجد في هذا الكتاب الأنوار المثبتة، والبصائر التي تنير القلوب المخبئة، وتبني الوعي المدرك لحركة الحياة، وقوانين الكون؛ إذ تمثل هذه الأسطر سبيلاً لفهم أقوم للسُنن التي تدير نظام (الزَمكان) يسير وفقها نظام الكون، ويتم بها التداول بين الأمم، كما

(١) البخاري (١٢١).

تُقدِّم لك بحثًا لِكَيْفِيَّةِ الاستثمار التَّطْبِيقِيِّ لهذا الفهم، من خلال تاريخ الأمم، والنَّظَر في المَثَلات وَفَقَّ التَّنَاول القرآنيَّ لها.

وهذا الكتاب تذكيرٌ بالسُّنن الحَقِيقِيَّة في بناء المجتمعات، والنُّهوض من حالات الاستضعاف واليأس الحضاريِّ.

وليُحَقِّق هذا الكتاب غايته فقد تَكَوَّنَ من مقدمةٍ سَطَّرت بين يدي الكتاب لتنبئ عن كون القرآن المجيد مصدر فهم السنن والنظم التي يقوم عليها الكون، وتتحكم بالحياة، ولتحدِّر من الوعي الزائف بالسُّنن فهو سبب الانحطاط في حقب الانكسار المظلمة السَّحِيقَة، ثم تلاها فصلان يشكِّلان دراسة تطبيقية لنماذج من السُّنن الإلهية في ضوء بصائر المعرفة القرآنية: **الفصل الأول:** نماذج من السُّنن الإلهية الشرعية والاجتماعية في تداول الأيام في ضوء المعرفة القرآنية.

الفصل الثاني: تقنينٌ إجماليٌّ لسُنن النَّصْر في سورة الأنفال (قصة بدر).

ومذوعيتُ حقيقة (الإسلام)، وتملَّكتُ فؤادي قضية (الهمَّ لنصرته)، علمت أنَّ من أهمِّ آثار هذا النظام الإلهي الذي ارتضاه للبشرية، أن تشرق الأرض بنور ربِّها، وأن يتحقَّق العدل في الحياة الإنسانية، وما برحتُ مذ كان ذلكم أدعوا ربِّي - جَلَّ ذِكْرُه - دعاء معناه: اللَّهُمَّ اجعل (نورك الذي به يشرق العدل على البشرية) شعورًا فيأضًا يملأ عليَّ كلَّ جوانحي وعواطفِي ومشاعري وأحاسيسي.

وحداني ذلك إلى أن أنظر في سُنن الخروج من حالة الاستضعاف في الأمم لتكون جزءًا من هذا الكتاب، ولمَّا ظهر لي أن سُنَّة التَّدافع بين الأمم وفِقْهها من أهمِّ السُّنن الحياتية أثرت أن أفرد كتابًا أجعله موازيًا لهذا الكتاب، واخترت له عنوان: "اقتحام العقبة: سنة التَّدافع

والخروج من عقبة الاستضعاف، رؤية قرآنية لصناعة التوازن والسَّلام العالميين"، فهو تكملة لهذا الكتاب.

رَبَّنَا اجْعَلْنَا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لَكَ، اجْعَلْنَا -رَبَّنَا- مِمَّنْ يَغْرُسُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ فَسَائِلَ النُّورِ الْأَزْهَرِ، وَيُجَاهِدُونَ الذِّكْرَى لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ، وَيُجَاهِدُونَ الْحَيَارَى إِلَى تِجَارَةِ لَنْ تَبُورَ، مِنْهُمْ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَيَرْتَفَعُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَتَبْكِيهِمُ الْجِبَالُ وَالسُّهُولُ وَالدُّوَرُ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَشْرِقْ بِنُورِكَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ الْحَائِثَةِ.. وَفَرِّجْ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ خَلْفَ الْقَضْبَانِ الْجَائِرَةِ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَا تَرُدَّ الْأَيْدِي الْمَرْتَفِعَةَ خَائِبَةً، رَبَّنَا أَغْثِ الْعَيُونَ الدَّامِعَةَ، وَاشْفِ الصُّدُورَ الْمَلْتَهَبَةَ، وَلَا تَرُدَّ الْقُلُوبَ الْمَمْتَلِئَةَ بِرَجَائِكَ مَفْلِسَةً خَاسِرَةً مَجْدُبَةً.. ﴿رَبَّنَا وَعَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ رَبَّنَا تَوَكَّلْنَا.

مَجْلَدُ الدِّينِ الْمَقْبُولِ الْمَجِيدِ

s1435y@gmail.com

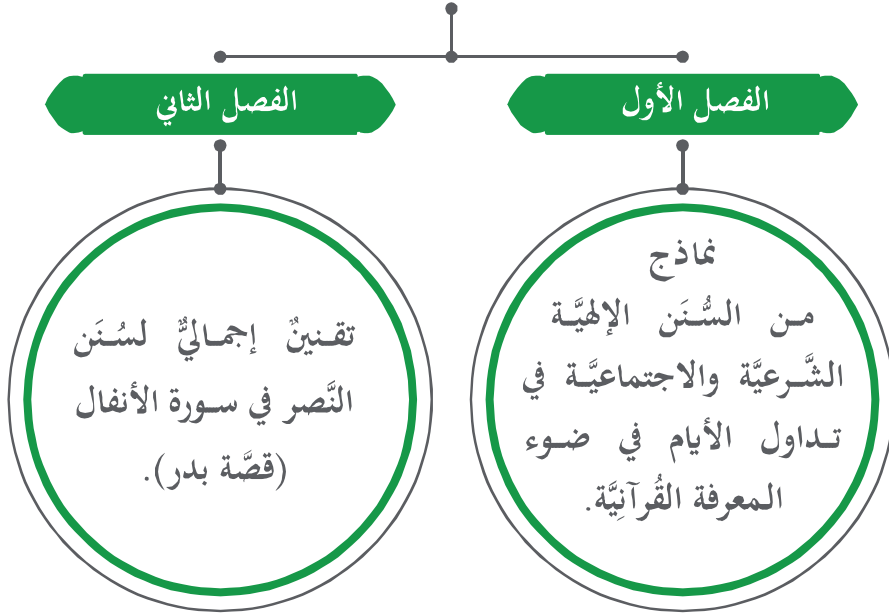
٨ ربيع الآخر ١٤٤٥ هـ

٢٣ أكتوبر ٢٠٢٣ م

دراسة تطبيقية

لنماذج من السُّنَنِ الإلهيَّة في ضوء بصائر المعرفة القرآنيَّة

دراسة تطبيقية لنماذج من السُّنَنِ الإلهيَّة في ضوء بصائر المعرفة القرآنيَّة



يُحِبُّوا النَّسَاءَ وَمُقَبِّلَاتِ الْحِجَابِ

ويتضمَّن فصلين:

الفصل الأول: نماذج من السُّنَنِ الإلهيَّة الشرعيَّة والاجتماعيَّة في تداول الأيام في ضوء المعرفة القرآنيَّة.

الفصل الثاني: تقنين إجماليّ لسُنَنِ النَّصْرِ في سورة الأنفال (قصة بدر).

الفصل الأول

نماذج من السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ والاجتماعيَّةِ في تداول الأيام في ضوء المعرفة القرآنيَّة

نماذج من السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ والاجتماعيَّةِ في تداول الأيام



سُبْحَانَكَ يَا مَوْجِدُ الْحَقِّ

سنتطرق في هذا الفصل إلى نماذج ذات أهميّة خاصّة لثلاث عشرة من السُّنَنِ الشَّرْعِيَّةِ والاجتماعيّة التي بنتها المعرفة القرآنيّة، ممّا تمس الحاجة إلى معرفته؛ لإدراك آلية البناء الحضاريّ والإعمار المدنيّ والتّغيير الواقعيّ، ويظهر فيها تداول الأيام وتقلُّب الدَّهر، بناءً على سُنَنِ منتظمة، وليس قياماً على تغيُّر عشوائيّ.

الأنموذج الأول

سُنَّة (رفض الحقائق)

عدم اعتناق الحقائق يُساوي الإنسان بحالة الأنعام

موانع قبول الحقائق



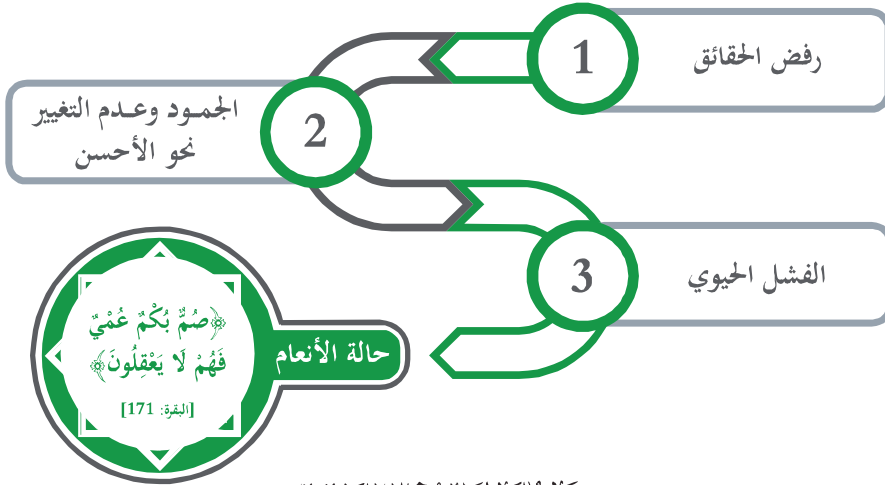
يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي الْبُحْتِ

هذه سُنَّة اجتماعيَّة لا بدَّ من إدراكها لثلا نعيش في الأوهام المُتخيَّلة، والأفهام الزَّائفة؛ فلا تظنَّ أن وجود الحقيقة يكفي ليعتقها الآخرون، فإذا رأيت بعض البشريَّة يرفض أوضح الحقائق الكونيَّة سهل عليك أن تستوعب إصرار هذه الطَّوائف على رفض ما دونها، وسُنَّة (رفض الحقائق) تنتج الجمود ثم الفشل الحيوي، وَفَقَّ المعادلة الآتية:

رفض الحقائق ← الجمود وعدم التَّغيير نحو الأحسن ← الفشل الحيوي = حالة الأنعام

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَّىٰ فَهُم لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

سنة {رفض الحقائق} تنتج الجمود ثم الفشل الحيوي وفق المعادلة الآتية:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يبين الله ﷻ هذه السُّنَّة الاجتماعيَّة في النَّفس الإنسانيَّة، ويبين النَّاتج الكارثيَّة عندما يلتزمها الإنسان في عنقه، ولكنه قبل ذلك يبيِّن أسبابها الخطيرة؛ عسى أن نعمل على معالجتها، وقد فصَّل الله -جلَّ مجده- هذه السُّنَّة في مواضع متعدِّدة من القرآن المجيد، أبرزها في سورة البقرة، إذ أظهر لنا كيف يمكن رفض أعظم الحقائق الكونيَّة وضوحًا لأسبابٍ متعدِّدة بعيدة

عن مقتضيات العقل الإنساني، فذكر أعظم الحقائق الكونية والأسباب المانعة من اعتناقها في سورة البقرة، واستغرق ذلك بين الآية ١٥٩ والآية ١٧١.

فأول ما يبيني الوعي الإنساني حول هذه السُّنة المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها:

إذ ترى أن ربك -جل ذكره- فصل البيان في إظهار الحقائق التاريخية والواقعية التي تبرهن على صدق النبي ﷺ في الدعوة إلى الدين.. الدين الذي أمر الله ﷻ به سائر الأنبياء والمرسلين ﷺ.. لقد جلى الله ﷻ في هذا البيان أن كبار أساطين أهل الكتاب يعرفون ذلك حق المعرفة، فقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأظهر لنا في هذا البيان أن فريقاً منهم يكتمون الحق الذين يعرفونه ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

والسؤال الذي نطرحه: كيف يعرفون أعظم الحقائق، ثم يأبون اتباعها؟ لماذا لم يتبعوا النبي ﷺ وهم يعلمون أنه الحق الواضح؟ ولماذا لم يؤيدوه في إظهار أعظم الحقائق الكونية، وهي حقيقة الوجدانية الإلهية المقترنة بالرحمة؟

يجيء الجواب كالنور الذي يضيء للحائرين، مذكراً بالإضافة إلى حقائق النبوة بأعظم الحقائق الكونية وهي حقيقة التوحيد، وأصل الرحمة في أفعال الله الحميد المجيد، ومبيناً الموانع التي حالت بين كثير من سكان هذا الكوكب وبين اتباعها؛ وأنها خمسة موانع تؤدي بهم إلى رفض الحقائق.. لا بد أن يتغلبوا عليها، وإلا أدى بهم الاستسلام لها إلى الإجرام والإفساد في الأرض.

فبدأ بذكر المانع الأول قبل التذكير بأبرز حقائق الكون:

المانع الأول من اعتناق الحقائق: كتمان القيادات العلمية للبينات والهدى (التبعية

العمياء للقيادات العلمية والدينية):

أوضح الله ﷻ ذلك في قوله -جل مجده-:

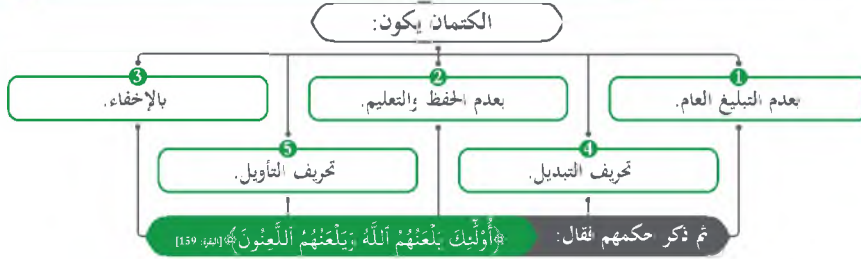
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝١٥٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٦٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خُلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝١٦٢﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٢].

وفي الشكل الآتي توضيح لجريمة الكتمان وأنواع الكاتمين، وفق ما تضمنته هذه الآيات

من بصائر، وذلك كما يأتي:

جريمة كتمان البيانات والهدى

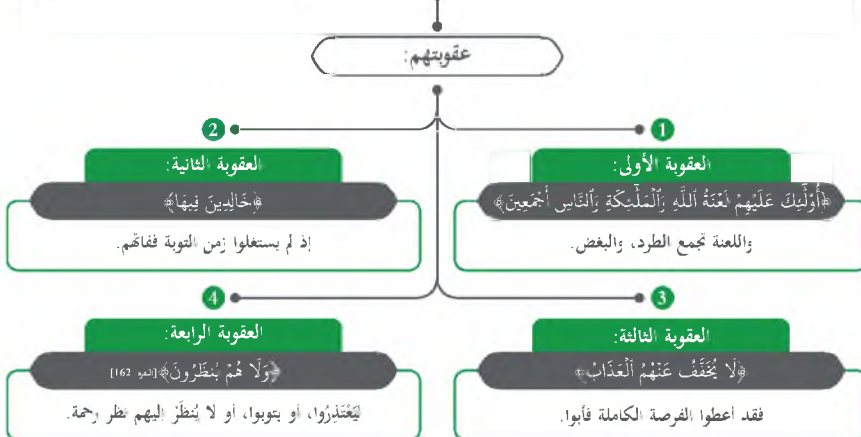
النوع الأول: الكاتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَيُحْدِثُونَ مِنْ غَيْرِهِ مَا يُنْفِثُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ﴾



شروط تصحيح المسار:



النوع الثاني: المصر على الكفر؛ تقليداً للكافرين، أو تبعيةً للمستكرمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَآمَنُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾



يَعْتَذِرُونَ

توضّح الآيات هنا أنّ من موانع قبول الحقائق أن تكتّم القيادات العلميّة البيّنات والهدى، وتتواطأ مع القيادات السّياسيّة الحاكمة المتسلّطة المتنفّذة؛ ممّا يجعل الرّأي العامّ تابعاً لهما في رفض اعتناق الحقائق، أو متردّداً في قبولها على أقلّ الأحوال - حتى لو اقتنع بمنطقيّة تلك الحقائق.

فذكر الله ﷻ الجريمة الأولى، وهي جريمة الكتمان، ورَتّب عليها ذكر نوعين من المجرمين:

النوع الأول: الكاتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، كتموا أمرين: البيّنات والهدى، والفرق بينهما:

الفرق الأول: (البيّنات) هي الآيات الواضحات، كالمعرفة بالنبي ﷺ، و(الهدى) هو كلّ ما يهدي العباد في حياتهم، كالحدود الاقتصاديّة، والجنائيّة.

الفرق الثاني: (البيّنات) محدّدة منصوّص عليها، أمّا (الهدى) فيحتمل أن يكون مستنبطاً من المنصوص عليه.

واللام في قوله ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتعليل، أي: بيّناه في الكتاب لأجل مصالح الناس في الدُّنيا والآخرة.

والكتمان يكون:

(١) بعدم التبليغ العام.

(٢) بعدم الحفظ والتعليم.

(٣) بالإخفاء.

(٥) تحريف التأويل.

يَا مَنْ سَعَى بِالْعِلْمِ يُشْبِعُ بَطْنَهُ لِيَصُدَّ عَنْ خَبَرِ الْهُدَى وَالْمُبْتَدَا

إِنْ قَامَ عَرْسٌ لِلطُّغَاةِ وَظَلَمِهِمْ
وَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلُ
وَعَمَائِمُ السُّلْطَانِ شَرُّ عَمَائِمِ
نَصَبُوا بَعْلَهُمُ الشُّبَاكَ لَصَيْدِهَا
مَا ضَرَّ أَهْلَ الْعِلْمِ غَيْرُ تَشَوُّفِ
ثُمَّ يَخَاطَبُ هَذَا الصَّنْفَ مَذْكُرًا عَلَيْهِ يَتَذَكَّرُ رَبَّهُ ﷻ، لِيَغْفِرَ حُوبَهُ وَذَنْبَهُ:

يَا شَيْيَةَ الْعِلْمِ اذْكُرْ قَوْمًا مَضَوْا
تَمَضَى الْحَيَاةَ وَتَقْضَى لَذَاتُهَا
وَالْحَقُّ قُلُهُ وَلَا تَحْدُ عَنْ دَرْبِهِ
وَإِذَا الْخِيَانَةُ أَسْفَرَتْ عَنْ قُبْحِهَا
صُوتُوا النَّفُوسَ عَنِ الْحُطَامِ قِنَاعَةً
تَلْقَوْنَ عَاقِبَةَ الْقِنَاعَةِ سُودًا^(١)

النوع الثاني: من كفر ومات كافرًا، إمَّا تقليدًا للكاتبين، وإمَّا تبعيةً للمستكبرين:

فَقَالَ عَنْهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة: ١٦١]، وَذَكَرَهُمْ بَعْدَ النَّوعِ الْأَوَّلِ
تَخْوِيفًا لِلنَّوعِ الْأَوَّلِ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ حَتَّى تَخْتَرِمَهُمُ الْمَنِيَّةُ، أَوْ تَفْجَأَهُمْ دَوَاهِيهَا عَسَى أَنْ
يَبَادِرُوا قَبْلَ أَنْ يَنَادُوا بِالتَّوْبَةِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يُسْمَعُ مِنْهُمْ فِيهِ، فَذَكَرَ اللَّهُ ﷻ لِهَذَا الصَّنْفِ الَّذِي
لَمْ يَبَادِرِ التَّوْبَةَ أَرْبَعَ عَقُوبَاتٍ:

(١) الأبيات لسعيد بن دحاج - حفظه الله تعالى -.



العقوبة الأولى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، واللَّعنة تجمع الطَّرد، والبُغض.

العقوبة الثانية: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فيخلدون في اللَّعنة غير خارجين منها؛ إذ لم يستغلوا زمن التَّوبة ففاتهم.

العقوبة الثالثة: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ فقد أعطوا الفرصة الكاملة لعدم التَّعَرُّض له، فأبوا.

العقوبة الرابعة: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢] من الإنظار، أي: الإمهال؛ لِيَعْتَذِرُوا، أو يتوبوا، أو من النَّظر، أي: لا يُنْظَرُ إليهم نظر رحمة.

وقد تسأل: ما الحكمة من تقديم الله ﷻ ذِكر المانع من اعتناق الحقائق (الكتمان) على ذِكر أعظم الحقائق الكونيَّة (حقيقة التَّوحيد المقترنة بالرَّحمة)؟

الجواب: ترى هنا أن هذا المانع الخطير من اعتناق الحقائق تمَّ تقديمه في نَظْم الآيات على أعظم الحقائق الكونيَّة (حقيقة التوحيد المقترنة بالرَّحمة) الواردة في الآية: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وذلك لضخامة أثر هذا المانع، وليبيِّن الله ﷻ لنا الإجابة المباشرة عن سبب امتناع كثيرٍ من النَّاس عن الإدعان لأعظم الحقائق الكونيَّة؛ إذ افتتنوا بالقيادات العلميَّة الفاسدة، فجريمة الكتمان هي أم الجرائم الأخرى.

ثم يذكر الله ﷻ أعظم حقائق الكون، وهي حقيقة التوحيد المقترن بالرَّحمة، ويشير إلى سبعة من براهينها الواضحة في الآفاق: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أدلة التوحيد الدامغة:

فبعد ذكر الله ﷻ جريمة كتم الحقائق من البينات والهدى، ناسب أن يذكر بعدها مباشرة أعظم الحقائق الكونية، وهي حقيقة توحيد الألوهية لله المقترن بالرحمة بالعالم: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وهي الحقيقة التي يعمل الكاثمون والكافرون على تغطيتها، إنها الحقيقة التي تنبثق عنها جميع الحقائق المعرفية، وذكر هاتين الصفتين؛ لأن ذكر الوحدانية يفيد القهر والعلو، فعقبهما بذكر الرحمة، ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية، وعزة الوحدانية، فذكر الله ﷻ مثلاً في هذا الموضع سبعة من أهم الأدلة المادية لهذه الحقيقة التي يشترك في فهمها من يستفيد من عقله، مهما كان مستوى ثقافته، وهي سبع آيات معجزات مادية محسوسة، يدركها العقل، لا يمكن لمخلوق أن يدعي القدرة عليها، وتتلخص في أن الله ﷻ: خلق الكون، ونظم حركته، حيث أظهر في هذا التنظيم رحمته، وهذه الأدلة هي:

الدليل الأول: خلق الكون ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبدأ بالأعظم خلقاً.. بين أنه خلق ما يعبد الدهريون والملحدون.. فلماذا عن خالقهم يهربون؟! **الدليل الثاني:** حالات التغير الكوني ﴿وَأُخْتَلِفَ أَلْيَلٍ وَالنَّهَارِ﴾ فذكر في الدليل الأول الخلق للكون، ثم ذكر التحكم بالحالات التي تغشى الخلق (الليل والنهار). **الدليل الثالث:** ﴿وَأَلْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، والسفر البحري يتعلق بمعرفة الليل والنهار، ويمثل التواصل بين مناطق الأرض المختلفة لتبادل المنافع، واستخراج الثروات.

الدليل الرابع: ماء الحياة ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. **الدليل الخامس:** ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾، والدواب خلقت من ماء، فمن أين أتى بالماء؟

يجيبك الدليل السادس والسابع:

الدليل السادس: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾، والرياح تحرّك الأشياء، ولكن أهم فوائدها ما بعده.

الدليل السابع: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، فالرياح تثير السحاب المحملة

بالماء.

وهذه الأدلة السبعة تمثل آياتٍ واضحةٍ للعقلاء لا للجامدين الجهلاء ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولأن القرآن كتابٌ عقليٌّ فقد تكرر لفظ الفعل يعقل نحو (٤٩) مرة، والعقل يعني ربط الأفكار بعضها ببعض، فهو يعلل، ويفهم ويشير المناقشة الذهنية، وذلك إيماء إلى أن الكافرين بأنواعهم: (الملحد المنكر لوجود الله، والكافر المُنكر للتوحيد مع الإقرار بوجود الله، والكافر بالنعم، والمُهمل لتفعيل النعم وشكرها) متخلفون عقلياً.

هنا يذكر الله -جلّ مجده- المانع الثاني من موانع قبول الحقائق:

المانع الثاني: إنه التبعية العمياء للسادة والأمراء (أفعال القيادات السياسية والثرية):

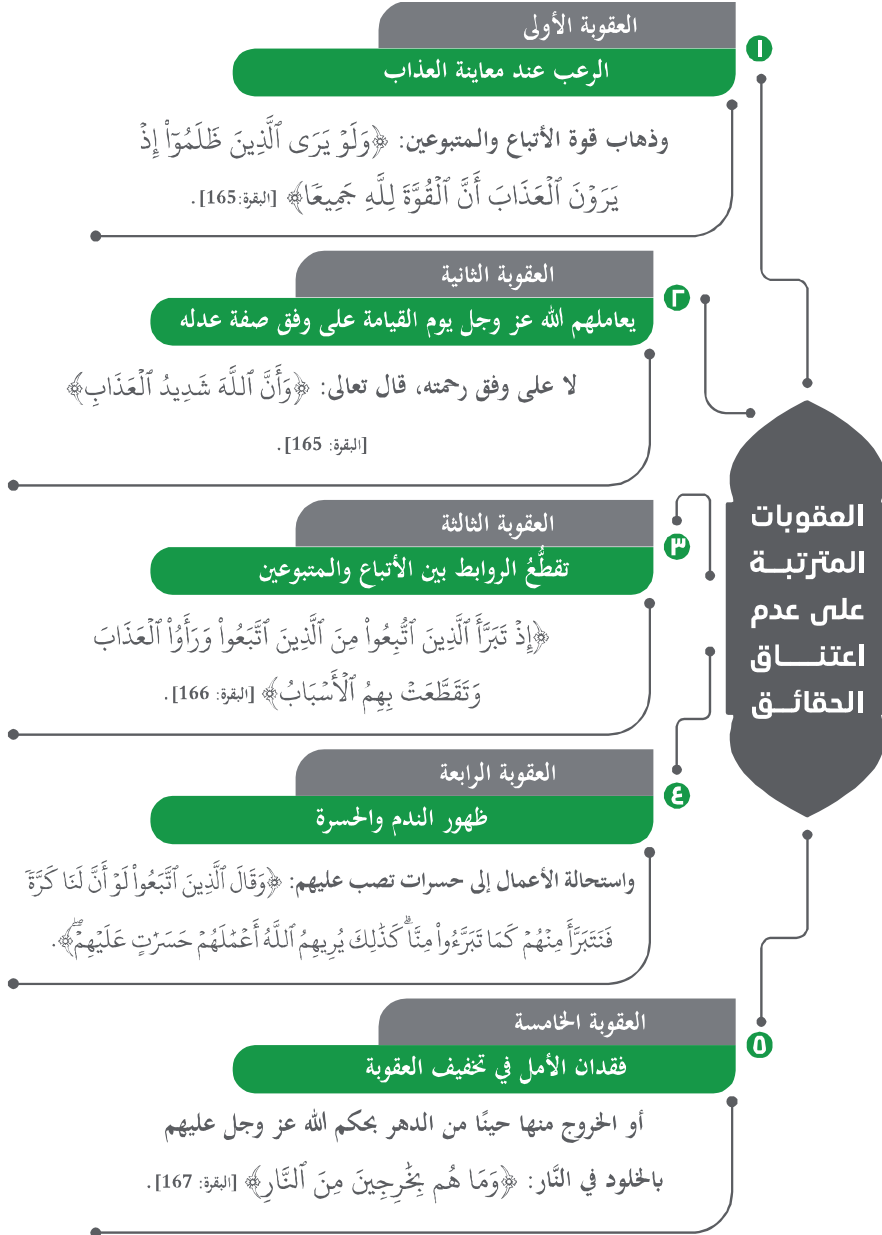
وذلك في قوله -جلّ مجده-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [١٦٥] إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ [١٦٦] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

فبعد ذكر أعظم الحقائق الكونية، وأدلتها، أشار إلى أن غير العقلاء هم الذين لا يعتنقونها.. وهنا بين سبحانه مانعاً غير عقلي هو مانع التبعية الخائفة؛ لأجل عبودية الدينار والدرهم، وذلك لأنّ الناس ينقسمون أمام تلك الأدلة والبراهين إلى صنفين:

الصَّنْف الأول: يصرُّ على إجرامه، وبدلاً من تحكيم العقل وأتباع أعظم الحقائق، يتخذون الأنداد من دون الله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﷻ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهؤلاء قسمان: متبعون، وأتباع همج.

الصنف الثاني: عاقل يؤمن، وأشار له بقول جل في علاه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ﷻ﴾. ويمكنك أن ترى احتباكاً في الآية، ويكون تقدير الكلام: ومن الناس من يضيع عقله فلا يرى هذه الآيات الكونية العظيمة، فيكفر بالله ﷻ، ويتخذ من دونه أنداداً يحبُّهم كحبِّ الله ﷻ أي: يحبُّهم جاعلاً حُبَّهم مماًثلاً لحُبِّ من يرى آيات الله ﷻ فيُحِبُّه، وفي مقابل هذه الصَّنَف: من الناس من يحرك عقله فيرى في الآيات ما يجعله يؤمن فلا يتخذ من دون الله ﷻ أنداداً، بل يكون أشدَّ حُبًّا لله ﷻ من حُبِّ الأغبياء لأوثانهم؛ إذ يرى آياته الماثلة في الأرض.

العقوبات المترتبة على عدم اعتناق الحقائق:



يُخْرِجُ الْإِسْلَامُ قَبْلَ الْيَوْمِ



وبعد أن ذكر الله -جلّ مجده- البُلْهَاء الذين لَا يُعْمِلُونَ عقولهم فيتخذون من دون الله ﷻ أنداداً، فيظلمون أنفسهم ويظلمون الآخرين، ويشكّلون أدواتٍ لرفض الحقائق في العالم حولهم، أراد أن يبيّن عقوبة هؤلاء الظّلمة ليخوّفهم من عواقب عدم اعتناق الحقائق، فذكر لهم خمس عقوباتٍ:

العقوبة الأولى: الرُّعب عند معاينة العذاب، وذهاب قوة الأتباع والمتبوعين: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

العقوبة الثانية: يعاملهم الله ﷻ يوم القيامة على وفق صفة عدله لا على وفق صفة رحمته، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

العقوبة الثالثة: تقطع الروابط بين الأتباع والمتبوعين: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله: ﴿بِهِمْ﴾ فكأنّهم هم سبب قطع الأسباب.

العقوبة الرابعة: يظهرون النّدم والحسرة، بل تستحيل الأعمال إلى حسراتٍ تُصَبُّ عليهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

العقوبة الخامسة: يفقدون الأمل في تخفيف العقوبة أو الخروج منها حيناً من الدّهر بحكم الله ﷻ عليهم بالخلود في النّار: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ثم يذكر الله ﷻ المانع الثالث من موانع قبول الحقائق:

المانع الثالث: الخوف المعيشي:

يخاف الإنسان على رزقه مع أنه مضمون له، وبيعته خوفه أن يجيز لنفسه محاربة الحقائق، فيأكل الحرام الخبيث، ويضحّي بالمبادئ، ويرفض الحقّ في صغير الأمور وكبيرها، ويصّرنا الله ﷻ بذلك في قوله -جلّ في علاه- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168].

[١٦٨].

فبعد أن قدّم الله ﷻ العقوبة للتّابع الضّالّين الخائفين، ولمتبوعهم؛ تخويفاً من المستقبل الحقيقيّ، ذكر بعده الرّزق والإحسان كأنّه يتألّفهم، وليحذّر من شرك الطّاعة هنا بسبب الرّزق، كما حدّر من شرك العبادة والتّشريع بسبب التّبعية العمياء في المانع السّابق، وبدلاً من أن يسط الله ﷻ القول في هذا المانع بصورة مباشرة وجّه الخطاب للعالم، فأمرهم أن يأكلوا مما في الأرض: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون المأكول ﴿حَلَلًا﴾، وذكر هذا الشرط لحماية الأديان، وضدّه: (المحرّم لغيره)، كالغصب، أو السرقة، أو ما يعطيه الأسياد مقابل الضّلال.

الشرط الثاني: أن يكون المأكول ﴿طَيِّبًا﴾، وذكر هذا الشرط لحماية الأبدان، ويقابله: (المحرّم لذاته)، وهو النّجس، كالميته، والخنزير، كما يقابل الطّيّب الرّديء طبيعة.

إن المنهزم نفسياً يأكل الخبيث شرعاً أو طبعاً مقابل أن يرمي بالحقائق وراء ظهره؛ لخوفه الوهمي من تحكّم الفجّار بمصادر رزقه.

ثم يذكر الله ﷻ المانع الرابع من موانع قبول الحقائق، وهو:

المانع الرابع: اتباع خطوات الشيطان:

يقول الله ﷻ عن هذا المانع: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

وانظر إلى بلاغة هذا التصوير: اتباع خطوات الشيطان.. إنه الاتباع لخطواته خطوة خطوة، حتى يصبح الإنسان شيطاناً مثله، وقد صرَّح أحد المُتَشَيْطِنِينَ بذلك، بل بما هو أشدُّ حينما أنشد أخزاه الله ﷻ:

وكنْتُ امرأً مِنْ جُنْدِ إبليسَ فَارتَقَى بِي الحالَ حتَّى صارَ إبليسُ مِنْ جُنْدِي

والخطوات الشَّيطَانِيَّةُ تقود إلى أن يقترب الإنسان أصول الأوامر الشَّيطَانِيَّةِ الثلاثة:

الأصل الشَّيطَانِي الأول: السُّوء، وهو ما يسوء الإنسان أن يراه غيره، وقد قيل: إنه ما لا حدَّ فيه، ولا عقوبة مقدَّرة عليه.

والأصل الشَّيطَانِي الثاني: الفحشاء، وهو ما استُفحش ذكره، وقَبِحَ مَسْموعه، وقد قيل: إنه ما فيه حدٌّ.

والأصل الشَّيطَانِي الثالث: القول على الله ﷻ بلا علم، ويبدأ بالكذب، والبدعة، ويصل إلى اتخاذ الأنداد في العبادة، والطَّاعة، والحاكِمِيَّة.

ثم يذكر الله ﷻ المانع الخامس من اعتناق الحقائق، وهو:

المانع الخامس: العنصرية، والتبعية المريضة المتعصبة للتقاليد والآباء (ظاهرة

الآبائية):

وذلك في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

والعنصرية المتعصبة تمنع عن الحق بالتبعية للتقاليد والآباء مثلها في ذلك مثل التبعية للأسياد، وترى أن الله ﷻ في هذه الآية لم يُخاطبهم مباشرة، بل أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا...﴾^(١).

ولا يقف الأمر في معالجة هذا المانع عند هذا الحد حتى ترى الله ﷻ يُنبهه بذكر الصورة المرضية للتبعية التي توجد التعصب.. التعصب الذي يغلق العقل، فيقول جلّ مجده: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، أي: ربّما كان آبائهم لا يحركون عقولهم كما أنكم أنتم لا تحركون عقولكم فكيف تتبعونهم؟! وربّما كانوا لا يهتدون برأي خبراء عقلاء غيرهم، فكيف تسرون على طريقتهم؟! فهل من احتملت أفعاله أنه لا عقل له، ولا اهتداء بما فيه هدى من كتاب سابق أو أثارة من علم، ولا اهتداء بمن هم من أهل الهدى، فهل من هذا حاله يمكن أن يتبع ويُقلد؟!

ويختم الله - جلّ مجده - الكلام هنا ببيان النتيجة الماحقة للإنسانية عندما ترفض الحقائق: التحول إلى حالة الجمود، وممارسة دور الأنعام في الحياة:

(١) ينظر: تفسير المنار (٢/ ٧٤).

Σ 9

○ ◆



«خُذْ هَذَا الْكِتَابَ، وَاذْهَبْ إِلَى صَاحِبِكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتَهُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَنْكَرُوا عَلَيَّ ذَلِكَ»^(١).
وقد جاء في بعض الروايات أن اسم الأسقف بغاطر^(٢)، وحقَّق الأستاذ الباحثة محمد حميد الله، أن اسم الأسقف الأعظم المحكي تعريب لكلمة: (أوتوكراتور autocrator)^(٣)، وهي كلمة يونانية تعني: «واحد الذي يحكم بنفسه»، وهو لقبٌ يونانيٌّ، يطلق على الفرد الذي يمارس سلطة مطلقة، مثل: «الحبر الأعظم»، خَلَفُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، ومال بعضهم إلى أنه كان بابا روما، وقد ورد أن قومه اعتدوا عليه فقتلوه.

(١) فتح الباري - ابن حجر - (١ / ٣٧).

(٢) سنن سعيد بن منصور، تحقيق الأعظمي (٢ / ١٨٨).

(٣) مجموعة الوثائق السياسيَّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة (ص: ١١٥).

الأنموذج الثاني

سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين (سنة التدافع)

هذا الأنموذج نورٌ في العالم المملوء بالظلم والجور، المشخن بأوزار الحروب.. ولما كتبت فيه وجدتهني أتوسع بما اقتضى أن أفردة بكتاب مستقل أسميته:

(اقتحام العقبة) سنة التدافع لصناعة التوازن والخروج من الاستضعاف.

وبعد أن رأيت أن موضوع السنن الربانية يحتاج مزيداً من الدراسة التأصيلية الاستقرائية في ضوء بصائر المعرفة القرآنية، قررت أن أفردة بالتأليف ضمن سلسلة: (وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)؛ وبهذا سيكون هذا الكتاب هو الثالث في هذه السلسلة المباركة، وسيكون عنوانه: (واصنع الفلك.. سنة التدافع والخروج من عقبة الاستضعاف، رؤية قرآنية لصناعة التوازن والسلام العالميين)، والكتابان السابقان له هما:

- (١) (المدخل إلى علم السنن الربانية)؛ ويعدُّ كتاباً مؤصلاً لعلم السنن ومسائله.
- (٢) كتاب (عاقبة المنذرين.. من السنن الإلهية التطبيقية في تداول الأيام)؛ وهذا هو الكتاب الذي بين أيدينا.

الأنموذج الثالث

(السَّبَبِيَّة) سُنَّة الحركة الكونيَّة المتطورة المتغيِّرة

إنها السُّنَّة التي توقظ الغافلين، فتقول لكلِّ واحدٍ منهم: احترس أن تعتمد على انتسابك إلى الإسلام في الحصول على تحقيق الإنجازات أو الانتصار على الظَّالِمين... احترس، فلا توجد مجاملة إلهيَّة خاصَّة بك، فقد جعل الله ﷻ لكلِّ شيء سبباً، فاتَّبِع السَّبَب.

وهذه السنة صاغتها المعادلة الدُّنيويَّة الأخرويَّة الواضحة التي بَصَّرنا بها قوله تعالى ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فَهُمُ النَّاسُ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْموذج لبيان الغفلة عن فَهْم البصائر القرآنيَّة المذهلة.. كيف ذلك؟

السِّياق الموضوعيُّ يجرُّ فَهْمَنَا إلى أن المراد بهذا القانون الفدُّ ما سيجري في الآخرة فقط، وأمَّا ما سيجري في الدُّنيا فهذه السُّورة وهذه الآية بمعزل عنه... لا تغفل واجمع بين السِّياق الموضوعيِّ، وعموم اللَّفظ، فالعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السِّياق، وللحصول على فَهْم أعظم من البصائر القرآنيَّة ينبغي أن نُعمل القاعدتين، ولا نكتفي بإحداهما، وإعمال القاعدتين يعني أمرين:

الأول: أن هذا القانون قانون عامٌّ لكلِّ عمل صغر أم كبر في الدُّنيا.

الثاني: أنه ينبغي للمرء عدم الالتفات إلى النَّتائج الدُّنيويَّة فقط، وأن يكون التَّركيز الأكبر على المستقبل الأخرويِّ.

ويلفت النَّبيُّ ﷺ إلى هذا الفهم العظيم بقوله ﷺ:

«الْخَيْلُ لثَلَاثَةِ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا، فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرَدَّ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَقُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ»، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ، قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَادَّةَ الْجَامِعَةَ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]»^(١).

خلق الله ﷻ الكون، وجعل من أبرز سُنَنِ الخلق: (السَّبَبِيَّة)، والسَّبَبِيَّة تنبثق من اسمه ﴿الحكيم﴾ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَعَزَّ جَارُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ.

وَالسَّبَبِيَّة سِرُّ ظُهُور المراحل الأرقى والأعقد من الأشياء البسيطة خلقًا، وحركة.. فَإِنْ سئلت عن أعظم الأدلة على إثبات الخالق، فقل: كُلُّ أُنُوبَةِ الكون البسيطة التي تتكوّن منها الخلايا المعقّدة، وكلُّ ذرّات الكون الوحيدة التي تُبْنَى منها الجزيئات المركبة.. إنها جميعًا أدلة على الوجود الإلهي الواجب ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۚ﴾ [نوح: ١٣، ١٤].. استنشق العبير الأخاذ في تقرير هذه الحقيقة من قوله جَلَّ مَجْدُهُ وهو يحدثنا عن جواب موسى عليه السلام حين سأله فرعون عن ربّه ﷻ وأدلة وجوده، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۚ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۚ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠]، فيدخل

(١) البخاري (٢٨٦٠)، (فأطال بها في مرج): شدّها بجبل طويل يربط طرفه برجلها والطرف الآخر بوتد وتترك ترعى وهو الطيل، كما ورد في نص الحديث، ويقال له: الطول، كما ورد عن بعض العرب. والمرج: الأرض الواسعة ذات الكلا والماء. (روضة): أرض ذات خضرة. (فاستنت): أفلتت ومرحت. (شرفًا): ما ارتفع من الأرض. (الفادّة): المنفردة في معناها.

07

تملك عندها إلا أن تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبَعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿فاطر: ١﴾.

لا تعجب عندما ترى الانحراف والخلل في الأفكار والأعمال، فمرّد ذلك غالباً إلى عمه الفكر في موضوع الأسباب، وإرجاع قوانين الحياة في هذه النقطة إلى طرفين متناقضين: إما إلى الإثبات المطلق فتجعل الأسباب هي الخالقة لذاتها ولغيرها.. وهو قولٌ يدلُّ على تعطيل العقل بصورةٍ كليّة، ولم أكن أتصوّر امرءاً عنده عقلٌ يارز إليه يمكنه أن يقول مثل هذا القول.

وإمّا إلى التّعطيل المطلق، فتلغى الأسباب مع أن الله ﷻ الذي خلق الكون هو الذي جعلها تسير على سُنَنِ تَامَةٍ محكمةٍ منتجة كما قال ابن حزم رحمه الله:

وَمِنْ هَيْئَةِ الْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرِ	وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ الْمُنْتَظَمِ
وَمَا فِيهِ مِنْ فَلَكَ دَائِرٍ	وَمِنْ كَوَكَبٍ قَاطِعٍ كَالْعَلَمِ
فَأَكْبَرُهَا قَاصِداً مَغْرَباً	وَسَائِرُهَا جِهَةً الشَّرْقِ أَمْ
إِدَارَةٌ رَبٍّ لَهَا مَنَشَى	يَصْرِفُهَا أَمْرُهُ حَيْثُ حُمِّ
يُخَالَفُ مَا بَيْنَ أَدْوَارِهَا	عَلَى سَنَنِ رَاتِبٍ مُسْتَتَمِ
لِيَعْلَمَ أَهْلُ النَّهْيِ أَنَّهَا	مُدَبَّرَةٌ لِحَكِيمٍ حَكَمِ
وَأَنْ لَيْسَ تَخْتَارُ شَيْئاً وَلَا	لَهَا الْحُكْمُ بَلْ لِإِلَهِ الْأُمَمِ
يُدِيرُ بِأَزْمَانِهَا دَهْرَهَا	فِيثُبَّتْ مَبْدُوءُهَا لِلْفَهْمِ ^(١)

كلا الطرفين متطرّف، وإنما تبصر العقول إذا اطمأنت إلى الوحي المتواتر المنقول،

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣٧٠، ٣٧١).

ففي ظلال الرؤية القرآنية تُصَوَّبُ أقوال الفلاسفة وأبحاث العلماء الحكماء - كما يقول ابن القيم رحمته الله -: «وكلُّهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصَّواب مردود، وباب الهدى في وجهه مسدود، تحسَّى علمًا غير طائل، وارتوى من ماءٍ آجنٍ، قد طاف على أبواب الأفكار، ففاز بأخس الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وقدَّم آراء مَنْ أحسن به الظنَّ على الوحي المنزل المشروع، والنَّصَّ المرفوع، حيران يأتُمُّ بكلِّ حيران، يحسب كلَّ شرابٍ ماء، فهو طول عمره ظمآن»^(١).

والكلام عن السَّبَبِيَّة كِسْئَةً إلهيَّة يدفعنا دفعًا للقول بأن عدم مناقشة ومراجعة ترتُّب النَّتَاج على المقدمات أو المسبِّبات على الأسباب في واقع الحراك التَّغييري، والصَّناعة الحضاريَّة تحت شعار: «ليس علينا إدراك النَّتَاج»، والاستسلام لها بهذه السَّهولة يفقدنا عملية الصَّواب والتَّصويب التي لا تتحصَّل إلا بالعودة إلى دراسة الثَّغرات التي كانت سببًا في تخلف النَّتَاج واستدراكها^(٢).

وما قول ربَّنَا ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] إلا وجهٌ من وجوه تقرير هذه السُّنَّة، وتوظيف تطبيقيٍّ لإعمالها في المراجعة البناءة المستدركة المنية.

قوانين التَّغْيِير الكونيَّة كَسْبِيَّةٌ قدرِيَّة:

لا يسير الكون عبثًا، ولا تدور عجلة الحياة فيه سدى.. كلا! لسنا كما يقول مخلوق تائه مثل (ريتشارد دوكنز Richard Dawkins): «إنَّنا "روبوتات خرقاء" وأن جيناتنا "شكَّلتنا جسدًا وعقلًا".. بل لسنا في جبريَّة فوضويَّة نسير كما ينقل عالم الأحياء التَّطَوُّريَّة (ريتشارد

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢).

(٢) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، (ص: ١٠).

لويتون) في سلسلته: "البيولوجيا حين تكون أيديولوجيا"؛ أن بعض التّائهيّن الدّارويين يرون أن الجينات تشكّل الأفراد، «ويُشكّل الأفراد المجتمع، وبالتالي فالجينات تُشكّل المجتمع. إذا ما اختلف مجتمع عن آخر؛ فذلك لأن جينات أفرادهِ تختلف عن جينات المجتمع الآخر»^(١).

فلنقل لهم:

نحن البشريّة التي خلقها الله ﷻ في أحسن تقويم، وجعل لها قوانين إن اتبعتها صنعت لها النّتيجة، تبصّركَ بذلك الآيات القرآنيّة الزّاهرة، مثل قوله جلّ ذكره:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

[النساء: ١٣٤].

الآية توقظك من الغفلة في تقرير المبدأ الحياتي الإلهي الذي يجيب على جميع أسئلة الشّاكّين والملحدّين والمؤمنين ممّن وقع في قلوبهم مرض: الحياة تسير على قوانين، فانظر ما أقصى أهدافك: هل الدّنيا، أو شيء منها، أو مجد الدّنيا والآخرة؟

وقد ذكر الله ﷻ هذا المبدأ بصور متعدّدة، وأفكار يكمل بعضها بعضاً، مثل قوله تعالى:

﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۚ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۚ﴾ [الشّورى: ٢٠]،

(١) البيولوجيا عندما تصبح أيديولوجيا: عقيدة الحمض النووي، ريتشارد ليفونتين، ترجمة فهد عبد العزيز، أسامة خالد، مركز رواسخ، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، (ص: ٣١، ٣٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۖ كَلَّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۖ﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۖ﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٨-٢١]، فليس الأمر كما ينقله (لويبتون): «العلم مؤسَّسة اجتماعيَّةٌ يحقُّها سوء فهم كثير، حتى لدى من ينتمون إليها. نعتبرُ العلم مؤسَّسة (بمعنى أنه خليط من طرق وأساليب وشخصيَّات ومحصول معرفيٍّ هائل)، لكنَّنا نظنُّ أنَّ تلك المؤسَّسة معزولةٌ عن القوى التي تحكم حياتنا اليوميَّة والتي تحدِّد بُنية مجتمعتنا»^(١).

فنقول له: بل السَّعي الحقُّ وفَقَّ هذه القوانين يثمر المجد الدُّنيويَّ والأخرويَّ عند التَّعلُّق ببديع السَّموات والأرض الذي أنشأهما وأنشأ قوانينهما، وأنشد أبو القاسم الرَّافعيُّ:

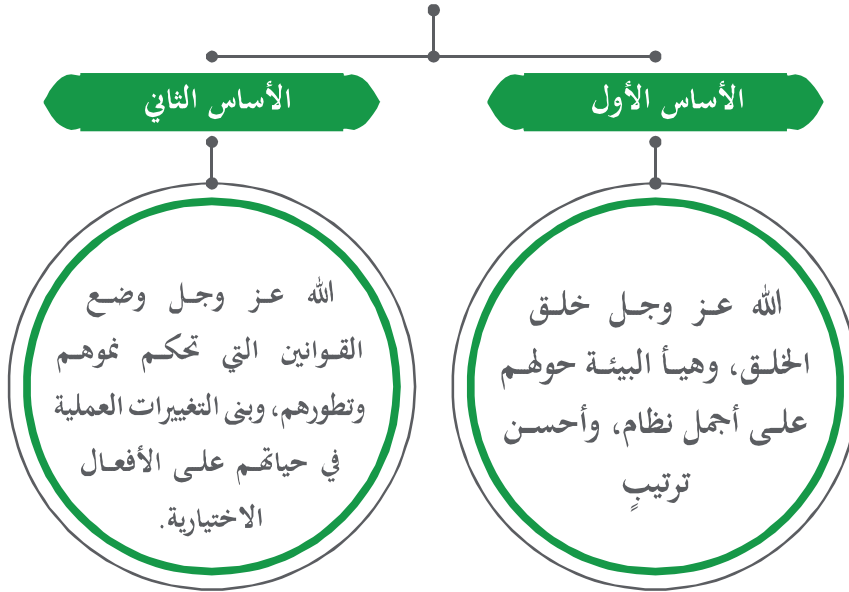
الملكُ اللهُ الذي عَنَتِ الوجو هُ له وذَلَّتْ عِنْدَهُ الأربابُ
مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ والسُّلْطَانِ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ تَجَاذَبُوهُ وخَابُوا
دعهم وزعم المُلْكِ يومَ غرورهم فسيعلمون غداً مَنْ الكَذَابُ^(٢)

(١) ينظر رابط الجزء الأول من سلسلة محاضرات "البيولوجيا حين تكون أيديولوجيا" لريتشارد لويبتون، ترجم هذا العمل أسامة خالد: <https://osamakhalid.com/translations/biology-as-ideology/> .html

(٢) ينظر: الإنشقاق في علوم القرآن (١/ ٣٨٨).

أسس الرؤية القرآنية لفهم سرّ القدر الإنسانيّ

أسس الرؤية القرآنية لفهم سرّ القدر الإنسانيّ



يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ مُقْبِلَ الْجَنَّةِ

الرؤية القرآنية في غاية الوضوح، وهي تصف الواقع الإنساني ولا تناقضه؛ وتقوم على أساسين:

الأساس الأول: الله ﷻ خلق الخلق، وهياً البيئة حولهم على أجمل نظام وأحسن ترتيب:

فقد قال جلّ مجده: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ [الملك: ١ - ٤].



الأساس الثاني: بعد أن خلق الخلق أقام لهم القوانين التي تحكم نموهم وتطورهم، وبني التغييرات العملية في حياتهم على الأفعال الاختيارية، فأحاط الله ﷻ بهم وبأعمالهم خلقاً وحركة:

ولا يمكن للأفعال الاختيارية أن تخرج عن الإرادة الإلهية الكونية؛ إذ التغيير يعني التحوُّل، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بقوة، والقوة لا يمكن أن توجد إلا بالله ﷻ؛ ولذا كانت الحوقلة كنزاً من كنوز الجنة، وهي تختصر القوانين الثلاثة لنيوتن عند التأمل.

وقد ناقش أبو عبد الرحمن الظاهري مناقشةً بارعةً موضوع العلية (السببية) عند المسلمين والأوروبيين، وبين أن العلية قانونٌ حتميٌّ في التصوُّر البشري، وهو من بدهيات العقل، وأنه أساسٌ صلبٌ أقام عليه ابن حزم، وابن تيمية ﷺ، وغيرهما البناء المنطقي، وكأن (نيكولا مالبرانش)^(١) تأثر بهم عندما قال: «لا علةَ إلا ما أدرك العقل بينها وبين معلولها علاقةً ضرورية، والله ﷻ هو العلة الحقيقية للأشياء»، ويعلّق الظاهري على ذلك فيقول: «ونحن لا نسمي الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه، ولا نصفه إلا بما وصف به نفسه... ولا جديد في نقد

(١) مالبرانش (١٦٣٨ - ١٧١٥ م): فيلسوف فرنسي، يرى تعليل كل شيء حتى الأجسام بوجود الله والوحي. من آثاره: البحث عن الحقيقة. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٨ / ٤٧٢).

(مالبرانش)، و(باركلي)^(١)، و(هيوم)^(٢)، فهذا أمرٌ فرغ المسلمون من فحصه، بعد أن فرغ بعضهم من استدراكه... فالحقُّ أَنَّ الْعِلَّةَ ناموس إلهي خلقها ربُّنا ﷻ، وجعل نتائجها في معلولاتها ضرورة حتمية، لا تختلُّ إلا بإعجازٍ يخرق الناموس، والكلُّ من الله سبحانه.. وحسبك بقوة وصلابة برهان العلية أنه لم يشدَّ في كلِّ تجربة بشرية^(٣).

فإن سأل سائل: كيف نجمع بين الفعل الاختياري (بذل الأسباب) والإيمان بالتقدير السابق؟

يجاب عنه بيسر:

الله ﷻ ذكرهما معاً، فقال: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٨﴾ فهذا إثباتٌ للاختيار، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فهذا إثباتٌ للقدر والقدرة، ولا تناقض بينهما بحكم الضرورة الواقعية؛ إذ لا ترى عقلاً فيمن يزعم أنه مسيرٌ مجبر وهو يكلمك هذه الكلمات باختياره، لو شاء أن يخزنها لاستطاع، وإن لم يستوعب العقل الجمع بين شعوره بأنه مختار ضرورة مع علمه بأن الله ﷻ لا زمن عنده؛ إذ هو موجد الزمان، فقد قدر ما كان وما يكون.. إن لم يستوعب العقل ذلك، فلقصورٍ يسيطر عليه، لكنه

(١) جورج باركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣ م): تخرج في جامعة دبلن، وعيّن مدرّساً بالجامعة سنة ١٧٠٧ م لليونانية والعبرية، ثم للاهوت، وبعد سنتين صار قسيساً، وهو في الفلسفة الإنجليزية بمثابة (مالبرانش) في الفلسفة الفرنسية، وكلاهما يجد في المبدأ التصوري وسيلةً لإنكار المادة والرد على الماديين، وكلاهما يجعل من الله محور مذهب في الوجود والمعرفة واليقين. تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ١٦٢).

(٢) دافيد هيوم: فيلسوف إسكتلندي ملحد. عاش ما بين (١٧١١ - ١٧٧٦ م)، تخرج في جامعة "أدنبرة"، وعمل بالتجارة فلم يحقق النجاح الذي كان يرجوه، عين كاتباً للسر بالسفارة الإنجليزية في باريس، ثم وزيراً لإسكتلندا، لكنه ترك هذا المنصب بعد عام واحد، وتفرغ للكتابة والتأليف. ينظر: كواشف زيوف (ص ٤٥٣).

(٣) (لن تلحد) لأبي عبد الرحمن الظاهري (ص: ٤٠).

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿الرعد: ١١﴾، فهذا القدر حيث يُحفظ العبد من كثيرٍ من المخاطر التي يمكن أن يقع فيها دون أن يدور ذلك في ذهنه، خذ مثلاً حفظ الله ﷻ له من كتم النفس، أو من انزلاق العمود الفقري.

وتمضي الآية بعد تقرير البعد القدري لتبين البعد الاختياري الإنساني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، لكنها تعود مجدداً لبيان القوة الإلهية المحيطة بالحكمة: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ﴿الرعد: ١١﴾.

لا يحجب عنك رؤية هذه الحقيقة تفكيرك بأمور القدر، فالرؤية القرآنية واضحة في كثيرٍ من الآيات الداعية إلى أن يحدث بنو الإنسان التغير بأنفسهم، حتى يترتب على ذلك الأمور القدرية.. فاسمع الله ﷻ يبين لك أن تغير أحوال الرخاء إلى شدة وبأساء مقترن بالأفعال الاختيارية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿الأنفال: ٥٣﴾.

وباستقراء ما ينسبه الله ﷻ للناس من إحداث تغيير نجد السياق يشير إلى دور سلبيٍّ مصادم لسواء القوانين التي ارتضاها الله ﷻ لصالح البشر وخيرهم، ولكأن الحياة إن سارت على هذا النحو المقتن إلهياً كان نصيبها الفلاح والرشد، فإذا ما غير بنو آدم السيرة تغيرت عليهم الأحوال، واضطربت حياتهم لانفكاكها عن القوانين المصلحة المرفقة.

اسمع إلى التوجيه القرآني لك يعلمك أن تنبئ من حولك عن الأفعال الاختيارية التي سترتب عليها العواقب المستقبلية.. أنبئهم بذلك أثناء الحوار مع القوى السيئة في المجتمع ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿الأنعام: ١٣٥﴾، أخبرهم أن الله ﷻ أتاح لكم العمل وفق اختياركم لكنه رتب بحكمته على ذلك النتائج القادمة: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتْرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ [التوبة: ١٠٥]،
﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾ [فصلت: ٤٠].

إنَّ إعمال سُنَّةِ السَّبَبِيَّةِ جزءٌ من التَّربية القرآنيَّة للمجتمعات الإسلاميَّة، والقرآن
مليءٌ بإثبات الأسباب.

فاسمع لطرفٍ من ذلك السَّيل الهادر في بيان هذا الموضوع:

فقد وردت الجملة الجزائيَّة التعليليَّة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ستَّة عشر موضعاً في القرآن
المجيد، ومثلها ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٥]، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿آل عمران: ١٨٢﴾، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿[الأففال: ٥١]،
﴿هَلْ تُخْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿يونس: ٥٢﴾، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿[الحاقة: ٢٤]، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبَصَدَّيْهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿[النساء: ١٦٠]، «فالسَّبَبِيَّة هي الصَّيْغَةُ الكونيَّة المحقَّقة
لحقائق الإظهار، والأسباب، والوسائط، والعلل محلُّ أذكار المتفكرين، واعتبار الناظرين،
ومعارف المستدلينَّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿[الحجر: ٧٥]﴾»^(١).

لولا أنَّنا في مرحلة كثر التَّشْغيب فيها على الحقائق، والأمور المستقرَّة عقلاً وشرعاً لما كنَّا
بحاجة لإطالة الذَّيل عند الكلام عن (السَّبَبِيَّة) على هذا النَّحو، خصوصاً وأنَّ علماءنا من
سلف هذه الأُمَّة قد قتلوا هذه القضية بحثاً ودرساً، ولم يغادروا من متعلَّقاتها صغيراً ولا كبيراً
إلا أحصوه وحصلوه بما عرف وشاع لديهم من درس العلَّة أو العلِّيَّة، وتراهم يعقدون أبواباً

(١) قدر الدعوة (ص: ٥٦).

مخصّصة لذلك في كتب الأصول كقولهم: (ما يدلُّ على العليّة بالتّنبية والإيماء)، أو (إثبات العليّة المناسبة)، فهي من تِلَادِ الأُمَّةِ القديمِ وعتادها، وهل السّببِيَّةُ إلا مرادف لها^(١)؟

إن بقاء الأُمَّةِ في غياهب الاستضعاف والإهانة، عائذٌ إلى فقدِها لمعرفة أسباب البناء والنّصر على الحقيقة.

وهنا نستحضر كلام محمّد رشيد رضا رحمته الله الصّارخ في بريّة المسلمين الغافلة:

«فَالِى مَتَى أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْغُرُورُ بِالْإِنْتِمَاءِ إِلَى هَذَا الدِّينِ، وَأَنْتُمْ لَا تَقِيمُونَ كِتَابَهُ، وَلَا تَهْتَدُونَ بِهِ، وَلَا تَعْتَبِرُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّذْرِ، أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ عَادَتِ الْكُرَّةُ إِلَى تِلْكَ الْأُمَمِ عَلَيْكُمْ بَعْدَ مَا تَرَكُوا الْغُرُورَ، وَاعْتَصَمُوا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، بِمَا جَرَى عَلَيْهِ نِظَامُ الْاجْتِمَاعِ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالشُّنَنِ، حَتَّى مَلَكَتْ دُوْلُ الْأَجَانِبِ أَكْثَرَ بِلَادِكُمْ، وَقَامَ الْيَهُودُ الْآنَ لِيُجْهَزُوا عَلَى الْبَاقِي لَكُمْ، وَيَسْتَرِدُّوا الْبِلَادَ الْمُقَدَّسَةَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَيُقِيمُوا فِيهَا مُلْكَهُمْ؟! فَاهْتَدُوا بِكِتَابِ اللَّهِ الْحَكِيمِ، وَبِسُنَنِهِ فِي الْأُمَمِ، وَاتْرَكُوا وَسَاوِسَ الدَّجَالِينَ، الَّذِينَ يَبْثُثُونَ فِيكُمْ نَزْعَاتِ الشَّرْكِ، فَيَصْرِفُونَكُمْ عَنْ قُورَانِكُمُ الْعَقْلِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَعَنِ الْإِهْتِدَاءِ بِكَلَامِ رَبِّكُمْ إِلَى الْإِتْكَالِ عَلَى الْأَمْوَاتِ، وَالْإِسْتِمْسَاكِ بِحَبْلِ الْخُرَافَاتِ، وَيَشْغَلُونَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ بِمَا لَمْ يُنْزِلْهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَوْرَادِ وَالصَّلَوَاتِ، وَمَا عَرَضَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا سَلْبُ أَمْوَالِكُمْ، وَحِفْظُ جَاهِهِمُ الْبَاطِلِ فِيكُمْ، أَفَيَقُومُوا أَفَيَقُومُوا، تَنْبَهُوا تَنْبَهُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تعالى لَمْ يَظْلَمْ وَلَا يَظْلَمْ أَحَدًا فِتْيَلًا، فَمَا زَالَ مُلْكُكُمْ، وَلَا ذَهَبَ عِزُّكُمْ، إِلَّا بِتَرْكِ هِدَايَةِ رَبِّكُمْ، وَاتِّبَاعِ هُؤُلَاءِ الدَّجَالِينَ مِنْكُمْ»^(٢).

(١) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، (٢٦٢/٧)، الإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين السبكي، (٢٤٠/٣)،

الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، (٢٥٤/٣).

(٢) تفسير المنار (١٢٥/٥).

وعمر بهاء الدين الأميري رحمه الله يصيح في القوى الغافلة اللاهية:

فلا بدَّ من رَأْبِ كُلِّ الصُّدُوعِ وجمعِ الصُّفوفِ ودرءِ العِلَلِ
ولا بدَّ من قَصْدِ ذَاتِ الإِلَهِ وحَشْدِ القُوى ليصحَّ العملُ^(١)

وبدلاً من انتظار التَّغْيِيرِ المعجز ينبغي الانطلاق بالحركة الممكنة المتاحة التي يباركها الله
ﷺ حتى يرى المرء من آثارها ما هو ممتدُّ خارج نطاقها، فمن الآيات الجامعة بين السَّبَبِ
والقدر قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأفال: ١٧]، وقد قال الأميري عن يضيع حياته في الأوهام:

وصِحابٌ في جـدالٍ ومُضِيٍّ غيْرُ صائبٍ
يرقـبـون الدهرَ أنْ يأتِيَ عنهم بالعجائبِ
فإذا واتَتْهُمْ الأيـامُ فالرَّبَّـان سائبِ
وتضـيـع الفرصـة المثلـى ولا تُـجـدي المـنادِيبِ
ضلَّ من يأمُلُ أنْ يَفْهَرَ بِاللَّغْوِ المَصاعِبِ^(٢)

وهذا عمر أبو ريشة يستنهض بذرة المجد لتحاول الفكاك من قيودها:

يا عروسَ المجدِ طالَ المُلتقى بعدَ ما طالَ جوى المُغْتَرِبِ
سَكِرَتْ أجيالُنا في زهوها وغَفَتْ عن كيدِ دهرِ قُلُوبِ
وصَحونا فإذا أعناقُنا مُثْقَلاتٌ بقيودِ الأجنبي^(٣)

(١) ألوان طيف (ص: ٩٩).

(٢) ألوان طيف (ص: ٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) ديوان عمر أبو ريشة، (ص: ٤٣٨).

مثال تطبيقي في الواقع الدنيوي على سُنَّةِ إعمال الأسباب لاجتناء النتائج في تَغْيِيرِ الدُّوَل:

إن رأيتنا نعرض لتجارب الأمم، فإنما ذلك لمحات برقٍ لإظهار العِبَرِ بناءً على التَغْيِراتِ الحادثة، وليس لبيان أيِّ الفريقين أهدى أو أقوم سبيلاً، فقد يموت المؤمنون الصّادقون في الأخدود الحارق، وتبقى القوى المستكبرة من أصحاب الأخدود يلهون بالحياة الدُّنيا بعدهم.. إنَّ العاقبة الدُّنيويّة القريبة لا تعبرُ عن الفريق المحقِّ، والفئة المبطلّة.

شرفُ الوثبةِ أن تُرضي العُلى غلبَ الوائبُ أم لم يغلبِ^(١)

قصة أبي مسلم الخراساني:

ودعنا نتناول القصص التاريخيَّة من حيث تقلُّبُ التَّاريخ بأهله بناءً على المقدِّمات العمليّة.. فتعال ننظر في قصة أبي مسلم:

أبو مُسلم الخراساني عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُسْلِمٍ^(٢) أعظم قادة الدَّولة العباسية عند نشوئها، نراه أعمل الأسباب اللازمة لتدمير دولة الأمويين، وإقامة دولة بديلة آلت من بعد للعباسيين، ولم ينتظر خروج المعجزات، ولا ربط نفسه وأتباعه بظهور غيبٍ تختبئ وراءه الهمم الفاترة، وتُعطلُّ بزعمه الأسباب.. أبو مسلم أتبع من كلِّ شيءٍ سببه الحقيقي غير عابئٍ بالمصير المَخُوف أمام الجيوش الأمويّة المسيطرة، وتتعجَّب إذ جمع إلى الشجاعة المفرطة الثَّقافة العلميّة الواسعة، والحزم التَّام في التَّعامل مع الأحداث، فظفرَ بمراده.

يلخِّص أبو مسلم الخراساني التَّفاعل بين سُنَنِ السَّبَبِيَّة والقدريّة في التَّغيير، حيث سأله يوماً أحد جلسائه قائلاً: بأيِّ شيء أدركت ما أدركت؟ قال:

(١) ديوان عمر أبو ريشة، (ص: ٤٣٨).

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٤٥)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٨).

انزرت بالحزم، وارتديت بالكتمان، وحالفت الصبر، وساعدني القدر، فأدركت مرادي،
وحُزْتُ ما في نفسي، ثم أنشد هذه الأبيات:

أَدْرَكْتُ بِالْحَزْمِ وَالْكِتْمَانِ مَا عَجَزْتُ
عَنْهُ مُلُوكُ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ حَـ... شَدُّوا
مَا زِلْتُ أَسْعَى عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ
وَالْقَوْمُ فِي مُلْكِهِمْ فِي الشَّامِ قَدْ رَقَدُوا
حَتَّى ضَرَبْتُهُمْ بِالسَّيْفِ فَاَنْتَبَهُوا
مِنْ رَقْدَةٍ لَمْ يَنْمُهَا قَبْلَهُمْ أَحَدٌ
وَمَنْ رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضٍ مَسْبُوعَةٍ
وَنَامَ عَنْهَا تَوَلَّى رَعِيهَا الْأَسَدُ

يقول عنه الذهبي رحمه الله: «كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْمُلُوكِ فِي الْإِسْلَامِ، كَانَ ذَا شَأْنٍ عَجِيبٍ، وَبَأٍ غَرِيبٍ،
مِنْ رَجُلٍ يَذْهَبُ عَلَى حِمَارٍ بِكَافٍ مِنَ الشَّامِ حَتَّى يَدْخُلَ خُرَاسَانَ، ثُمَّ يَمْلِكُ خُرَاسَانَ بَعْدَ
تِسْعَةِ أَغْوَامٍ، وَيَعُوذُ بِكَتَائِبِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، وَيَقْلِبُ دَوْلَةً، وَيَقِيمُ دَوْلَةً أُخْرَى!»

من يصدّق؟ فقد كان عمره حين بدأ معاركه للاستيلاء على خراسان نحو تسعة وعشرين
عامًا، فظهر في خَمْسِينَ رَجُلًا، وَآلَ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ هَرَبَ مِنْهُ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ وَالْيَ خُرَاسَانَ قَاصِدًا
الْعِرَاقَ، فَتَزَلَّ بِهِ الْمَوْتُ بِنَاحِيَةِ سَاوَةِ، وَصَفَا إِقْلِيمُ خُرَاسَانَ لِأَبِي مُسْلَمٍ فِي ثَمَانِيَةِ وَعَشْرِينَ
شَهْرًا مَعَ بَطْشٍ شَدِيدٍ، وَعِزْمٍ حَدِيدٍ، وَقِسْوَةِ مَفْرُطَةٍ.. قَامَ رَجُلٌ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: مَا هَذَا
السَّوَادُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الرَّبِيعِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ
يَوْمَ الْفَتْحِ، وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ^(١)، وَهَذِهِ ثِيَابُ الْهَيْبَةِ، وَثِيَابُ الدَّوْلَةِ، يَا غُلَامُ! اضْرِبْ عُنُقَهُ.
وَذَكَرَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: كُنْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَلَا آتِي مَوْضِعًا إِلَّا وَجَدْتُ أَبَا مُسْلَمٍ قَدْ
سَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَأَلْفَتُهُ، فَدَعَانِي إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَعَا بِمَا حَضَرَ، ثُمَّ لَاعَبْتُهُ بِالشَّطْرَنْجِ، وَهُوَ يَلْهُو بِهِذَيْنِ
الْبَيْتَيْنِ:

(١) مسلم (١٣٥٨).

ذَرُونِي، ذَرُونِي مَا قَرَرْتُ فَإِنِّي
وَأَبْعَثُ فِي سُودِ الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
مَتَى مَا أَهْجَ حَرْبًا تَضِيقُ بِكُمْ أَرْضِي
كَتَائِبَ سُودًا طَالَمَا انْتَضَرْتُ نَهْضِي

غياب الرؤية القرآنية عن أبي مسلم الخرساني:

ومع هذه الهمة العالية، والفهم المتقن للتناقض بين الأسباب، والحكمة في التدبير، ومساعدة المقدور، واستغلال ثغرات العدو الغافل المستكبر إلا أن الرؤية القرآنية العامة كانت غائبة عن وعيه، فقد كان من شأنه الإجماع في حق العرب خاصة، مما استدعى بعض المحللين للأحداث التاريخية أن يتساءل: هل اتخذ أبو مسلم من دعوة بني العباس ستاراً لحقد فارسي دفين؟ أم كان ضحية أطماع شخصية لم توقفها أنوار القرآن التي تراها غيب دائماً عن نفوس كبار المتلاعبين بدماء المسلمين؟ ضاعت معالم الحقيقة بين القوم، إلا أن الواضح أن أبا مسلم اتخذ من أسباب التغيير ما أورث النتائج سواء اتجه التغيير إلى إقامة الحق أم إلى زخرفة بنيان الباطل، وكذلك سُنن الحياة، وفي هذه الأثناء كانت بقية القوى الفاعلة تغط في سبات الرخاء، وعبث الترف الذي هيمن على الأمة المسلمة آنذاك، حتى قال إبراهيم الصائغ: «لما رَأَيْتُ الْعَرَبَ وَصَنِيعَهَا، خِفْتُ أَلَّا يَكُونَ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ، فَلَمَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ أَبَا مُسْلِمٍ، رَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ»^(١).

قال الذهبي رحمه الله: «كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ بَلَاءً عَظِيمًا عَلَى عَرَبِ خُرَاسَانَ، فَإِنَّهُ أَبَادَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ»^(٢).

(١) تاريخ دمشق (٣٥/٤١٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/٥٣).

ثم يحكي الذهبي رحمه الله كيف تغلب أبو مسلم بالدهاء، والسياسة على المخاطر التي لم يستطع القضاء عليها بالحديد والنار، وكيف جمع بمهارة بين الأمرين، وكيف كان يشكّل لجان الوساطة الغادرة عندما تنوء إمكاناته بالتدمير المباشر، ولم أر في هذا التاريخ الواسع أحداً أشبه من أبي مسلم أكثر ممّا يحدث اليوم في الدول الراحة تحت إدارة قراصنة الحرب الدوليين.

لقد كان أعداء أبي مسلم بين غافلٍ مستكبر، وخائنٍ مرتزق، وصالحٍ خائفٍ قلق، ومُتاجرٍ بالمبادئ والدين، وجنديٍّ باسل صادق ضيّعت قيادته البوصلة الحقيقية لمعرفة أهداف فوزها في أمواج التلاعب الإقليمي والدولي.. كذلك يضرب الله ﷻ لنا المثلث القديمة والحديثة، يا ضيعة الحائرين.

فانظر بعض أفعال أبي مسلم، إذ حارب نصر بن سيارٍ قائداً خارجياً يدعى الكرمانيّ.. خرج على الدولة سِتّة أشهرٍ، واستغلّ أبو مسلم الخراسانيّ الفرصة فظهر بينما كانت الدولة مشغولة بغيره، وليُظهر قوّاته ويبرز قُدّراته ويفرض نفسه لاعباً رئيساً في صناعة الأحداث مال أبو مسلم بمكرٍ على أضعف الأطراف، وهو الكرمانيّ المنهك من قتال دولة الأمويين، فاقتلت الميليشيات المسلّحة للطرفين، فقتل الكرمانيّ، ولحق جُموُعُه شيان بن مسلمة السدوسيّ الخارجيّ؛ المتغلّب على سرّخس، وطوس، فحاربهم نصر بن سيارٍ نحواً من سنة ونصف، ثمّ اصطَلَحَ نصر، وجديع بن الكرمانيّ على أن يحاربوا أبا مسلم، فإذا فرغوا من حربِه وظهروا، نظروا في أمرهم، فدسّ أبو مسلم إلى ابن الكرمانيّ يخدعه، ويقول: إني معك... واغترّ ابن الكرمانيّ، فابتلع الطعم؛ إذ ظنّ أنّ التحالف الجديد، ومجلس التنسيق المشترك يجمع طرفين يمثلان التيار المعارض لدولة الأمويين، وظنّ أنّ هذا اللقاء المشترك

كفيلٌ بتصفيه ما بينهما من إحنٍ وضغائن، فوافق ابنُ الكَرْمَانِيّ، وشكّلا اثتلافًا حزبيًّا وعسكريًّا مشتركًا، فحاربًا نصرًا، وعظّم الخطب، ثم إنَّ الذي يمثلُ دولة الأمويين وهو نصر بن سيارٍ شعر بالإنهاك والإعياء، ورأى أنَّ دولته يوشك أن تزول، فكتبَ إلى أبي مُسلم: أَنَا أَبَايُعُكَ، وَأَنَا أَحَقُّ بِكَ مِنْ ابْنِ الْكَرْمَانِيّ، فلَمَّا انضمَّ نصرٌ إليه شكّلا حلفًا جديدًا ظنَّ نصرٌ من خلاله أنه سيتمكّن يومًا من أبي مسلم بعد أن يفرغا من خصومهما، خصوصًا وهو الذي يمثلُ الحكومة الشرعيَّة السَّابقة.. لكن الذي حدث أنَّ أبا مُسلم قوي أمره، وكثُرَتْ جُيُوشُه، وبدأ أتباع نصرٍ بالانضمام إليه لما هالهم تدبيره، وقوَّة شخصيته، ودأبه في ترجيح جهته، ثمَّ عَجَزَ عَنْهُ نصرٌ، وتقهقرَ إلى نيسابور خائفًا وجلًّا من أن يغدر به، وأبو مسلم ينفرد بصاحب كلِّ كتيبة، فيبيده، ويبيدها، ثم يعود إلى مَنْ تحالف معه، فيقتل رؤوسه، منهم ابن الكَرْمَانِيّ، واعتمد في سفك الدماء على شرعيَّة مزيفة تتكرَّر على مرِّ التاريخ.. إنها شرعيَّة الانتساب إلى آل البيت، والمقصود بهم هنا بنو العباس، فأقام لهم أساس دولتهم على أنهار الدماء، كما يقول الذَّهَبِيُّ رحمته الله ملخصًا رأيه في دولة بني العباس بعد الأمويين:

فَالدَّوْلَةُ الظَّالِمَةُ مَعَ الْأَمْنِ وَحَقِّ الدِّمَاءِ، وَلَا دَوْلَةٌ عَادِلَةٌ تُنْتَهَكُ دُونَهَا الْمَحَارِمُ، وَأَتَى لَهَا الْعَدْلُ؟ بَلْ أَتَتْ دَوْلَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ خُرَاسَانِيَّةٌ جَبَّارَةٌ، مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ.

لقد أقام أبو مسلم مجددًا دنيويًّا عابرًا استغلَّ فيه شتات خصومه أكثر من استغلاله وجود جيش نظاميٍّ تابعٍ له، كما قيل:

قَهَرْتَ الْعِدَا لَا مُسْتَعِينًا بِعُصْبَةٍ وَلَكِنْ بِأَنْوَاعِ الْخَدَائِعِ وَالْمَكْرِ
وَفَهُمَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ هُوَ أَبِي مُسْلِمٍ، وَعَظَمَتِهِ، وَسَفْكَهَ لِلدِّمَاءِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ مُقَابَلَتِهِ
لِلْمَجْلِسِ الْأَعْلَى لدولة العباسيين، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ لِأَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ: لَسْتُ
بِخَلِيفَةٍ إِنْ أَبْقَيْتَ أَبَا مُسْلِمٍ.

قَالَ: وَكَيْفَ؟

قَالَ: مَا يَصْنَعُ إِلَّا مَا يُرِيدُ.

قَالَ: فَاسْكُتْ، وَاکْتُمْهَا.

وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ يَقُولُ لِلْسَّفَاحِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَطْعَمَنِي، وَاقْتُلْ أَبَا مُسْلِمٍ، فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي رَأْسِهِ لَعُدْرَةً.

وَفِي عَامِ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ: خَرَجَ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ شَرِيكُ الْمَهْرِيِّ بِبُخَارَى، وَنَقَمَ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ كَثْرَةَ قَتْلِهِ، وَقَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْنَا آلَ مُحَمَّدٍ.

فَاتَّبَعَهُ ثَلَاثُونَ أَلْفًا، فَسَارَ عَسْكَرُ أَبِي مُسْلِمٍ، فَالْتَقَوْا، فَقَتِلَ شَرِيكُ.

وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ حَتَّى انْتَقَلَ فِي حَرْبِهِ لِيُقَاتِلَ أَعْظَمَ رَأْسِ عَبَّاسِيٍّ مِيدَانِيٍّ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عُمُ الْمَنْصُورِ عِنْدَمَا خَرَجَ عَلَيْهِ، حَيْثُ سَلَّطَهُ الْمَنْصُورُ عَلَيْهِ، فَكَادَ أَنْ يَهْزِمَ جَيْشَهُ، وَأَبُو مُسْلِمٍ يُسَبِّحُهُمْ، وَيَرْتَجِزُ^(١):

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلَا رَجْعَ
فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ، وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ
وَانْتَصَرَ بَعْدَ لَايٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْمَنْصُورُ يَسْتَدْرِجُهُ: وَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ مِصْرَ وَالشَّامَ، فَانْزِلْ
بِالشَّامِ، وَاسْتَنْبِ عَنْكَ بِمِصْرَ.

فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ، أَظْهَرَ الْغَضَبَ، وَقَالَ: يُؤَلِّينِي هَذَا، وَخُرَاسَانُ كُلُّهَا لِي؟!

وَشَرَعَ فِي الْمِضِيِّ إِلَى خُرَاسَانَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ شَتَمَ الْمَنْصُورَ، وَأَجْمَعَ عَلَى الْخِلَافِ، وَسَارَ.

(١) البيت بلا نسبة. ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني (ص: ٢٩٩).

ثُمَّ قَالَ الْمَنْصُورُ لِبَعْضِ رُسُلِهِ: كَلِّمُوا أَبَا مُسْلِمٍ بِأَلَيْنِ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَمَنْهُ، وَعَرَفَهُ أَنِّي مُضْمَرٌ لَهُ كُلُّ خَيْرٍ، فَإِنْ آيَسْتَ مِنْهُ، فَقُلْ لَهُ: وَاللَّهِ لَوْ خُضْتُ الْبَحْرَ لَخُضْتُهَ وَرَأَيْكَ، وَلَوْ اقْتَحَمْتُ النَّارَ لَاقْتَحَمْتُهَا حَتَّى أَقْتُلَكَ.

لم يخل أبو جعفر -إن قال هذا- من غرور، ولكنه ظن أنه بذلك ينزل الرعب النفسي على فئة قليلة من دولة عظيمة مستيقظة، وليست نائمة كما كان الأمويون في آخر أيامهم، فزلزل ذلك من عزم أبي مسلم، فاستشار أبو مسلم خواصه، فقالوا: اخذوه. فلما طلب الرسول الجواب، قال: أرجع إلي صاحبك، فليست آتيه، وقد عزمْتُ على خلافه.

هكذا قال! فأين الكتمان الذي تباهي به أول أيام؟ فقال رسول أبي جعفر: لا تفعل.

فلما آيسه من المجيء، كلمه بما أمره به المنصور من الزلزلة النفسية، فوجم لها طويلاً، ثُمَّ قَالَ: قُمْ. وكسره ذلك القول، وأرعبه. وكان المنصور قد كتب إلى أبي داود خليفته أبي مسلم على خراسان، فاستماله، وقال: إمرة خراسان لك.

فكتب أبو داود إلى أبي مسلم يلومه، ويقول: إِنَّا لَمْ نَخْرُجْ لِمَعْصِيَةِ خُلَفَاءِ اللَّهِ ﷺ، وَأَهْلِ بَيْتِ النَّبَوَّةِ، فَلَا تُخَالِفَنَّ إِمَامَكَ.

هنا تلمح أن الذي تجدد في عصرنا أن سفاكي الدماء ولصوص العالم ادَّعوا الجمع بين النصرة الشعبية الجاهلية وبين النسب الشريف.

فَوَافَهُ كِتَابُ أَبِي دَاوُدَ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَزَادَهُ هَمًّا وَرُعْبًا.
ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ مَنْ يَتَّقِي بِهِ مِنْ أَمْرَائِهِ إِلَى الْمَنْصُورِ، فَلَمَّا قَدِمَ تَلَقَّاهُ بَنُو هَاشِمٍ بِكُلِّ مَا يُحِبُّ،
وَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: اصْرِفْهُ عَنْ وَجْهِهِ، وَلَكَ إِمْرَةٌ بِلَادِهِ.. وَهنا ترى أبا جعفر يسلك أسلوب
أبي مسلم في شراء الذمم، وزرع الخيانات التي تطوق حليفه.
فَرَجَعَ رَسُولُ أَبِي مُسْلِمٍ إِلَيْهِ، وَقَالَ: لَمْ أَرْ مَكْرُوهاً، وَرَأَيْتُهُمْ مُعْظَمِينَ لِحَقِّكَ، فَارْجِعْ،
وَاعْتَذِرْ. فَأَجْمَعَ رَأْيُهُ عَلَى الرَّجُوعِ، فَقَالَ رَسُولُهُ أَبُو إِسْحَاقَ:
مَا لِلرَّجَالِ مَعَ الْقَضَاءِ مَحَالَةً ذَهَبَ الْقَضَاءُ بِحِيلَةِ الْأَقْوَامِ^(١)
خَارَ اللَّهُ لَكَ، اخْفِظْ عَنِّي وَاحِدَةً، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى الْمَنْصُورِ، فَاقْتُلْهُ، ثُمَّ بَايِعْ مَنْ شِئْتَ، فَإِنَّ
النَّاسَ لَا يُخَالِفُونَكَ.
ثُمَّ إِنَّ الْمَنْصُورَ سَيَّرَ أَمْرَاءَ لَتَلْقَى أَبِي مُسْلِمَ، وَلَا يُظْهِرُونَ أَنَّهُ بَعَثَهُمْ، بَلْ كَانُوا يَبِينُونَ أَنَّهُمْ
بَادَرُوا إِلَيْهِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَيَطْمَئِنُّ، وَتَهْدَأُ نَفْسُهُ، وَتَخُورُ عَزِيمَتُهُ عَنْ أَيِّ مَقَاوِمَةٍ مَتَوَقَّعَةٍ،
وَكَانَ مِنْ فَعْلِهِمْ الَّذِي تَمَّ إِيصَاؤُهُمْ بِهِ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ حُسْنَ نِيَّةِ الْمَنْصُورِ لَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ،
انْخَدَعَ الْمَعْرُورُ، وَفَرِحَ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَتْفُهُ، فَقُتِلَ فِي شَعْبَانَ، سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَعُمُرُهُ
سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ عَامًا.
ونقل الذهبي رحمته الله أن بعض الزنادقة، والطُّغَمَاءِ مِنَ التَّنَاسُخِيَّةِ، اعتقدوا أَنَّ الْبَارِي ﷻ حَلَّ فِي
أَبِي مُسْلِمٍ الْخِرَاسَانِيَّ الْمَقْتُولِ عِنْدَمَا رَأَوْا مِنْ تَجْبُرِهِ، وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى الْمَمَالِكِ، وَسَفْكِهِ
لِلدِّمَاءِ، وَرَبَّمَا دَلَّ عَلَى شَعُوبِيَّتِهِ خُرُوجَ سِنْبَازِ الْمَجُوسِيِّ بَعْدَهُ طَالِبًا بِثَأْرِهِ^(٢).

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٨٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٦٧).

$\vee \wedge$

السببية والاعتصام بالمعونة الربانية منهج رساليّ مسلوک:

السببية والاعتصام بالمعونة الربانية منهج رساليّ مسلوک

الموازنة بين العوامل المختلفة للتغيير الناجح في سورة طه في الآيات {٤١ - ٤٧}:

١-١	﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُنْفِيسَ﴾	١-١	﴿أَذْهَبُ﴾
	الاصطفاء الإلهي في أبهى صوره.		بداية تفعيل قانون السببية، فالاصطفاء الإلهي لا يفني عن العمل والحركة البشرية.
١-٢	﴿أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾	١-٢	﴿يَأْتِي﴾
	ضرورة العمل الجماعي المتناسق في إحداث التغيير.		ثلاثية التحرك تجتمع في وقت واحد: الدستور الذي يجب ملاصقته في الحياة، والمنهاج الذي يجب تقديمه للعالم، وتبليغه للناس، والحارس الذي تتم الاستعانة به.
١-٣	﴿وَلَا تَبْتَئِ فِي ذِكْرِي﴾	١-٣	﴿أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾
	الحالة الدائمة المصاحبة، والسبب الشرعي الناصر.		الحركة الجماعية نحو الهدف المقصود.
١-٤	﴿إِنَّهُ طَعَنَ﴾	١-٤	﴿فَقُولَا لَهُ،﴾
	السبب الدافع للتغيير المنشود: إنقاذ الإنسانية من رجاسات الأنانية والطغيان.		المبادرة إلى الحوار المقنع من أعظم وسائل التغيير الإنساني.
١-٥	﴿فَقُولَا آمِنَا﴾	١-٥	﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَفْقَهُ﴾
	وجوب أن يتصف الحوار باللين، والهدوء حتى مع أعنى عتاة البشرية.		التذكير بالهدف الأصلي من الحوار: الحرص على هدايته ابتداء ليصل إلى مرحلة التذكر فيستيقظ من الغفلة، أو إلى مرحلة الخشية من لقاء الله عز وجل.
١-٦	﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرَظَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾	١-٦	﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾
	التوسل بالربوبية، والاعتراف بالضعف البشري.		الرعاية الإلهية الدائمة، والشعور بمعونة الله عز وجل.
١-٧	﴿فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾		
	التنفيذ وإعمال الأسباب البشرية وكيفية إدارة الحوار.		

يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ مُمْتَازِينَ

ألم تسمع إلى ربك - عزّ جاره - يقول لموسى عليه الصّلاة والسّلام، وهو يعلمه الموازنة بين العوامل المختلفة للتّغيير النّاجح.. يعلمه الموازنة بين الأسباب البشريّة، والتّوكل على الله ﷻ في سورة طه في الآيات [٤١ - ٤٧]:

﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُقْبِلَ﴾ ﴿٤١﴾ هنا ترى الاصطفاء الإلهي في أبهى صوره.
﴿أَذْهَبْ﴾ هنا ترى أن الاصطفاء الإلهي لا يغني عن العمل والحركة البشريّة، ويظهر هنا بداية تفعيل قانون السببيّة.

﴿أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ هنا ترى ضرورة العمل الجماعي المتناسق في إحداث التّغيير.
﴿بِأَيَّتِي﴾ هنا ترى ثلاثيّة تجتمع في وقت واحد:
(١) الدّستور الذي يجب استيعاب الحياة به.

(٢) المنهاج الذي يجب تقديمه للعالم، وتبليغه للنّاس.
(٣) الحارس الذي تتمّ الاستعانة به كما قال جل ذكره: ﴿فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الفصص: ٣٥].

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾ هنا ترى الحالة الدّائمة المصاحبة، والسّبب الشرعيّ النّاصر، وهو الذي يدعو العارفون: التّوجّه.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هنا ترى الحركة الجماعيّة نحو الهدف المقصود.
﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ هنا ترى السّبب الدّافع للتّغيير المنشود: إنقاذ الإنسانيّة من رجاسات الأنانيّة والجشع والادّعاء واستعباد بعضها بعضاً وتفتيت الموارد على أصحاب الكبر والغرور.. كلّ ذلك يُعبّر عنه الطّغيان الإنسانيّ.. وكلّ من يتّصف به يجب العمل على إنقاذه.
﴿فَقُولَا لَهُ﴾ هنا ترى أنّ المبادرة إلى الحوار المقنع من أعظم وسائل التّغيير الإنسانيّ.

﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ هنا ترى وجوب أن يتَّصف الحوار باللين، والهدوء حتى مع أعتى عتاة البشرية، فالليونة قد تغلب الخشونة، ورفع الصَّوت وخشونته وغضبه ليس دليلاً على الصدق وامتلاك الحق.

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ هنا ترى التذكير بالهدف الأصلي من الحوار، فليس لحشد الجماهير، ولا للجوائز الدنيوية، ولا للانتقام بالغلبة والظهور، ولا لإزالة الخصم، بل الحرص على هدايته ابتداء ليصل إلى مرحلة التذكر فيستيقظ من الغفلة، أو إلى مرحلة الخشية من لقاء الله ﷻ على تضييع العمر الإنساني في الطغيان.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ هنا ترى الاعتراف بالضعف البشري الذي لا ينجو منه أحد، وترى التوسل بالربوبية لحيازة القوة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ هنا الرعاية الإلهية الدائمة، والشعور بمعية الله

ﷻ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ هنا التنفيذ، وإعمال الأسباب البشرية، وكيفية

البداية في إدارة الحوار.

سُنَّةُ (السَّبَبِيَّةِ) تَوْضُحُ الْوَجْهَ الْمَشْرِقَ لِمَعْنَى الْإِيمَانِ أَمَامَ خَرَاةَاتِ الْعَنْصَرِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ،

وَعَقِيدَةُ الْفِدَاءِ وَخِلَاصُ الْبَشَرِيَّةِ:

هنا ترى الوضوح الإسلامي في نفي عقيدتين متناقضتين اجتاحت الإسلام واليهودية والنصرانية بصورة صارخة، فجرفنا بسيولهما صفاء الإيمان الذي قرره الله ﷻ في الكتب الإلهية:

العقيدة الأولى: العقيدة القائمة على النزعة العنصرية.. عقيدة جعلت بين الله ﷻ وبعض عباده نسباً يخولهم التحكُّم ببقية البشر مهما اقترفوا من جرائم، فمنعت هذه العقيدة أن تكون الأعمال سبيلاً للتقرب من الله ﷻ، فكأنهم لا يعلمون، مثل قوله جلّ ذكره: ﴿وَتُودُوا أَنْ تَتَّخِذُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأُولَئِكَ يَخْلَعُ اللَّهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ذَوِي أَلْبَابٍ تُخَالِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَبَسُوا دِينَهُمْ لَكُمْ تَبْتُلُوا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وإنما اكتفوا بالنسب.. اجتاحت هذه العقيدة محرّفي اليهود حتى تبنوا نظرية (شعب الله المختار)، وتبعهم ضلال صهاينة النصارى الذين آمنوا بأنهم بخدمتهم لشعب الله المختار سيجدون الخلاص، ويذكر الله ﷻ ذلك فيقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا إِلَهُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، ويراجع هنا كتاب: "النُّبُوَّةُ والسياسة" لـ (جريس هالسيل) حيث يفضح الإجراءات العملية لهذه العقيدة في الواقع السياسي المعاصر، وتبعهم أصحاب الضلالات العنصرية الكبرى ممّن ينتسب إلى المسلمين حتى غيروا معالم دين الإسلام، وسببوا للبشرية الآلام.

لم يخلُ البيان النبويُّ من التحذير من ذلك، فالنبيُّ ﷺ قال عنهم: «إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي، وإن أولى الناس بي المتقون: من كانوا، حيث كانوا، اللهم إني لا

أَحْلُ لَهُمْ فُسَادٌ مَا أَصْلَحْتُ. وَإِنَّمُ اللَّهُ، لَيَكْفُرُونَ أُمِّي عَنْ دِينِهَا كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ فِي الْبَطْحَاءِ»^(١)، وهذه العقيدة العنصرية المجرمة أوهمت أصحابها من اليهود أنه يحلُّ لهم أن يستبيحوا غيرهم ممَّن يسمِّيهم البعض الجوييم^(٢)، ويسمِّيهم آخرون الزنايل، وانظر كيف يكشف الله ﷻ مقالتهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) [آل عمران: ٧٥].

يُعَبَّرُ عن الفكر الدَّنس لهؤلاء العنصريين ممَّن ينتسب إلى المسلمين أن نشوان بن سعيد الحميري رحمه الله من أكبر علماء اليمن رأى أن النسب النبوي والقرشي ليس بشرط لتولي الحكم^(٣)، فردَّ عليه السَّفاح عبد الله بن حمزة:

ما رأيكم في مؤمنٍ قوَّامٍ موَّحِدٍ مجتهدٍ صوَّامٍ
حَبْرٍ بكلِّ غامضٍ علَّامٍ وذِكْرُهُ قد شاعَ في الأنامِ
لم يبقَ فنٌّ من فنونِ العلمِ إلا وقد أضحى له ذا فَهْمٍ
وما له أصلٌ إلى آلِ الحَسَنِ ولا إلى آلِ الحُسَيْنِ المؤتمنِ

(١) ابن حبان (٢ / ٤١٥) برقم (٦٤٧)، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي».

(٢) الجوييم: كلمة عبرية على صورة الجمع ومفردا "جوي"، وتعني غير اليهود. وأصل اشتقاق الكلمة غير معروف. ويرى بعض العلماء أنها جاءت من أصول غير سامية قديمة جداً، واستخدمها العبريون في العصور القديمة بمعنى الهوام والحشرات التي تزحف في جموع كبيرة، مكررة مرتين للتهويل، فكانوا يقولون "جوى-جوى" ومن هذا التركيب الازدواجي بقي في لغتنا العربية لفظ "غوغاء" ومعناها أيضاً جموع الجراد، ثم انتقل إلى معنى الكثير المختلط من الناس، ثم أصبح يدل على السُّوقَة والأشجار بصفة خاصَّة. ومن هنا؛ خصصتها العنصرية الإسرائيلية منذ القدم للإشارة إلى الناس جميعاً من غير اليهود، وقد توسَّع أبحار اليهود في مدلول الكلمة؛ فأضافوا إليها معنى القذارة الماديَّة والرُّوحية والكفر، وأصبحت بمثابة سبَّة تلصق باليهودي الذي يتعدَّى حدود الدِّين. ينظر: مركز المعلومات الوطني الفلسطيني.

(٣) ينظر كتابه: (الحوار العيني) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

مَا حَكُمُهُ عِنْدَ ثِقَاتِ الْفَضْلِ
أَمَّا الَّذِي عِنْدَ جُدُودِي فِيهِ
وَيُتِمُّونَ جَهْرَةً بَيْنَهُ
يَا قَوْمُ لَيْسَ الدُّرُّ قَدْرًا كَالْبَعْرِ
لَيْسَ عَلَى رَبِّي اعْتِرَاضٌ لِأَحَدٍ
لَمْ يَجْعَلِ الْكَلْبَ سِوَاءً وَالْأَسَدَ
حَمْدًا لِمَنْ أَيْدَنَا بِعَصْمَتِهِ
وَصَيَّرَ الْأَمْرَ لَنَا بِرُمَّتِهِ
صَرْنَا بِحُكْمِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ
وَمِنْ عَصَانَا كَانَ فِي النَّيِّرَانِ
الْعِلْمُ فِي آلِ النَّبِيِّ مِنْ صِغَرٍ
وغيرُهم لَيْسَ بِمَغْنِيهِ الْكِبَرُ
وكم تَجَرَّعَتِ الْأُمَّةُ، وَلَمْ تَزَلْ تَتَجَرَّعْ بِسَبَبِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ أَوْ الْعَقْدَةِ الشَّيْطَانِيَةِ غَضَبًا،
وكم سَقَطَتْ عَلَى مَقَاصِلِهَا رُؤُوسٌ مُوَحَّدَةٌ، وَسَفَكَتْ فِي سَاحَاتٍ مُجَازِرِهَا دِمَاءٌ مُؤَمَّنَةٌ، وَجَبَاهُ
سَاجِدَةٌ.

العقيدة الثانية: العقيدة الخرافية القائمة على مبدأ خلاص البشرية من خلال صلب المسيح
الْكِلَانِيَّةُ، فَالْقَائِلُونَ بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ جَعَلُوا (الصَّلْبَ) بِصُورَةٍ غَرِيبَةٍ مَدْهَشَةٍ أَسَاسًا لِعَقَائِدِهِمْ بَدَلًا مِنْ

(١) ذَكَرَ بَعْضُ هَذِهِ الْآيَاتِ مُحَقِّقُ كِتَابِ شَمْسِ الْعُلُومِ لِنَشْوَانَ الْحَمِيرِيِّ (ص: ١٦)، وَذَكَرَهَا كُلُّهَا د. فَالْحُ الْكِلَانِيُّ فِي مُوسُوعَةِ
شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَجْلَدِ الْخَامِسِ، الْجُزْءِ الثَّانِي.

أن يجعلوا التوحيد أساس العقائد، ثم أقاموا له أساسًا لا يوجد له سندٌ حتى في (كتابهم المقدس)، وهو أن آدم عليه السلام لَمَّا عَصَى اللَّهَ -تَعَالَى- بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ صَارَ هُوَ وَجَمِيعُ أَفْرَادِ ذُرِّيَّتِهِ خُطَاةً مُسْتَحِقِّينَ لِلْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ بِالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ.. فإن كان آدم عليه السلام أذنب فما ذنب ذرّيته؟ وما ذنب عيسى عليه السلام لِيُضْحَى به؟

هذا المبدأ الخرافي أفضى ببعض المتدينين إلى الإلحاد لغرابته وعدم موافقته لمنطق معتبر.

السَّبَبِيَّةُ قَانُونُ النَّجَاةِ وَالْفُوزِ: فَالْأَصْلُ فِي النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْحَيَاةِ وَنِيلِ

الْحَقُوقِ وَالْفُوزِ بِالثَّوَابِ الْعَمَلِ وَالْاِكْتِسَابِ، وَلَيْسَ الْأَمَانِيُّ وَالْجَنَسِيَّةُ الدِّينِيَّةُ وَالْاِنْتِسَابُ:

وَيَبْصُرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

ف(لَيْسَ) فِعْلٌ، وَلَا بَدَلٌ لَهُ مِنْ اسْمٍ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ الشَّامِلُ لِمَعْنَى الْآيَةِ:

لَيْسَتْ النَّجَاةُ مِنَ الْخَسَارَةِ الْمَبِينَةِ وَلَيْسَ الْفُوزُ وَالْخِلَاصُ مِنْ خُطَّةِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ، وَلَا النَّجَاةُ مِنَ الْخَسَارَةِ الْمَبِينَةِ، وَلَا التَّقَدُّمُ فِي الْحَيَاةِ، وَلَا الْفُوزُ بِالْجَنَّاتِ الْقَادِمَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ.. كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ مُسْتَحَقًّا بِأَمَانِيَّكُمْ -أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ-، وَلَا يَكُونُ مُسْتَحَقًّا بِأَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ وَضْعُ الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ حَسَبَ أَمَانِيَّكُمْ، وَلَيْسَ الْجَزَاءُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ يَرْجِعُ إِلَى أَمَانِيَّكُمْ وَمُسْتَهْيَاتِكُمْ، وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَمَانِيَّكُمْ﴾ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيُّ لَيْسَ الْجَزَاءُ حَاصِلًا حُصُولًا عَلَى حَسَبِ أَمَانِيَّكُمْ^(١)، بَلْ مِنْ يَعْمَلُ سُوءًا يَلَاقِي جَزَاءَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ صَالِحًا يَجِدُ ثَوَابَهُ، إِنَّهُ يَتَحَصَّلُ بِالْعَمَلِ وَالْاِكْتِسَابِ وَلَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ

(١) تفسير الرازي (١١ / ٢٢٥)، التحرير والتنوير (٥ / ٢٠٨).

والادعاء والانتساب، فالتفاضل بين الناس يكون بالعمل والقيام بالأسباب المناسبة للأعمال المحققة للنتائج.

تري المبدأ القرآني يجعل الأسباب والسببية أساساً للمسؤولية الفردية.. وعندما تقلّب صفحات القرآن المجيد تجدها مترعة بالآيات التي تقرر ذلك.

فبين الله ﷻ أن الإنسان مسؤول عن عمله الصالح أو السيئ، وفتح باب التوبة للمذنبين غير المتلاعبين فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

نحن نتحدث هنا عن محكمات قرآنية مقصودٌ تقريرها في كلام الله ﷻ على نحو واضح جلي لا يقبل الامتراء والشك، محكمات لا يقبل عقلاً وشرعاً وعادة أن تهدر لصالح متشابه النصوص، وم احتمالات الألفاظ التي يهتبلها سراق الأديان، ومزيفو التاريخ، وحرّاس معابد العنصرية الجاهلية المقيتة.

ومن أعجب الظنّ ونبد العلم قصّة الصّلب من أجل الافتداء والخلاص التي اخترعتها الكنيسة مع أن الأناجيل الموجودة الآن تبين أن عيسى ﷺ رغب إلى ربّه -الذي يزعم بعض الغلاة أنه هو نفسه-.. رغب إلى ربّه أن يعفيه من الصّلب والقتل، وخاف من الموت، ففي الإنجيل المنسوب إلى متى:

(٣٧: ٢٦) ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بَطْرُسَ، وَابْنِي زَبْدَى، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَسِبُ.

(٣٨: ٢٦) فَقَالَ لَهُمْ نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. امْكُثُوا هُنَا، وَاسْهَرُوا مَعِيَ.

(٣٩: ٢٦) ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَحَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمَكْنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا. بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ.

(٤٢:٢٦) فَمَضَىٰ أَيُّضًا ثَانِيَةً، وَصَلَّىٰ قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ، إِلَّا أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلَتَكُنْ مَشِيَّتُكَ^(١).

وفي بقايا الوحي الموجود في الإنجيل تجد الإقرار بمبدأ السببية الذي يفضي إلى العملية، ففي إنجيل متى الحث على الاستعداد والعمل، وليس الاتكال على التّضحية المزعومة لعيسى عليه السلام عن البشر:

(١:٢٥) حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس.

(٢:٢٥) وكان خمس منهن حكيّمات وخمس جاهلات.

(٣:٢٥) أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً.

(٤:٢٥) وأما الحكيّمات فأخذن زيتاً في أنيتهن مع مصابيحهن.

(٥:٢٥) وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن.

(٦:٢٥) ففي نصف الليل صار صراخ: هوذا العريس مقبل. فاخرجن للقائه.

(٧:٢٥) فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن.

(٨:٢٥) فقالت الجاهلات للحكيّمات: أعطينا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ.

(٩:٢٥) فأجابت الحكيّمات قائلات: لعلّه لا يكفي لنا ولكنّ. بل اذهبن إلى الباعة وابتعن

لكنّ.

(١٠:٢٥) وفيما هنّ ذاهبات لبيتعن جاء العريس والمستعدّات دخلن معه إلى العرس

وأغلق الباب.

(١) إنجيل متى، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣٨٣).



(٢٥: ١١) أخيراً جاءت بقيّة العذارى أيضاً قائلات: يا سيّد، يا سيّد افتح لنا.

(٢٥: ١٢) فأجاب وقال: الحقّ أقول لكنّ إني ما أعرفكن^(١).

وفي إنجيل متى أيضاً:

(٢٢: ٢) يشبه ملكوت السّموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه.

(٢٢: ٣) وأرسل عبيده ليدعو المدعوّين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا.

(٢٢: ٤) فأرسل أيضاً عبداً آخرين قائلاً: قولوا للمدعوّين هو ذا غذائي أعددت. ثيراني

ومسمناتي قد ذُبِحت، وكلّ شيء معدّ. تعالوا إلى العرس.

(٢٢: ٥) ولكنهم تهاونوا ومضوا، واحد إلى حقله، وآخر إلى تجارته.

(٢٢: ٦) والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم.

(٢٢: ٧) فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده، وأهلك أولئك القتالين، وأحرق

مديتهم.

(٢٢: ٨) ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعدّ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقّين.

(٢٢: ٩) فذهبوا إلى مفارق الطُّرق، وكلٌّ من وجدتموه فادعوه إلى العرس.

(٢٢: ١٠) فخرج أولئك العبيد إلى الطُّرق وجمعوا كلّ الذين وجدوهم أشراراً وصالحين

فامتلاً العرس من المتكّنين.

(٢٢: ١١) فلما دخل الملك لينظر المتكّنين رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس.

(٢٢: ١٢) فقال له: يا صاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس فسكت.

(١) إنجيل متى، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣٥٨).

(٢٢: ١٣) حينئذ قال الملك للخدام: اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان^(١).

هذا النص الإنجيلي في معناه العام يخرج من مشكاة واحدة مع قول جابر بن عبد الله عليه السلام جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبةً، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله ﷻ، ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله ﷻ، ومحمد ﷺ فرق بين الناس^(٢).

السَّبَبِيَّةُ لا تعني جحود البركة الإلهية، ولا تقوم على القانون الهمجي (البقاء للأقوى)، بل ينبثق عنها قانون التعاون بين الضعفاء والأقوياء، وكلُّ قوَّةٍ سوى قوَّةِ الله ﷻ يعترئها الضَّعْفُ النَّسْبِيُّ، كما أنَّ كلَّ ضعفٍ يخفى قوَّةً مستترة:

فالماديُّون يزنون الأمور فقط بميزان الشُّنن الماديَّة، ويجعلون الأسباب آلهة مستقلة، لكن هذا المقياس يعطب وينقلب إن لم يُضَفَ إليه النُّظَرُ الأشمل، والفكر الأعلى، والعقل الأوسع، ومن أجل ذلك وضع النَّبِيُّ ﷺ لنا النُّظرة الشاملة للشُّنن لتشمل الماديَّة، والغيبية،

(١) إنجيل متى، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣١٦).

(٢) البخاري (٧٢٨١).

فقد ذكروا أن الأنظمة الشُّموليَّة المجرمة كانت تتخلَّص من جنودها الجرحى لئلا يكونوا عبئًا إضافيًا على الجيش القوي.. زعموا مثل هذا عن هتلر.. أما نبينا ﷺ فصَحَّح هذا الاعوجاج عند الأقوياء وهو يُريِّي أنبل أصحابه ﷺ، فعَن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ ﷺ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ»^(١).

والحديث ينبئك أنك إن جمعت عوامل القوَّة الماديَّة والبشريَّة فلا يعني ذلك أن تنتصر.. انتبه للأسباب الشرعيَّة المصاحبة، مثل: نصرة الضعفاء، والعدل في المجتمع. هنا تأتي البركة الإلهيَّة لتصلح من عجز الأسباب الماديَّة، وحسبك عبرة ما أشار إليه أهل العلم من كثرة نتاج الكلاب، وقلة نتاج الغنم عند المقارنة بين الاثنين ثم ترى كثرة وجود الغنم مقارنة بالكلاب، وتوقن بعظمة الآية الإلهيَّة: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون: ٢١].. وأي عبرة؟ فبأيِّ حديث بعده يؤمنون؟

وممَّا يذكرك بالبركة الإلهيَّة أن الله ﷻ أمر مريم عليها السلام ببذل ما يمكنها من السَّبب، حين أمرها أن تهزَّ الجذع، مع أن هزَّها لا يغني شيئًا، ولذا قيل:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ وَلَا تَرْعَبَنَّ فِي الْعَجْزِ يَوْمًا عَنِ الطَّلَبِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ وَهَزِّي إِلَيْكِ الْجَذْعَ يَسَاقِطِ الرُّطْبُ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ جَتَّتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ^(٢)

(١) البخاري (٦٤٨٢).

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف (١٢٧/٢).

الأنموذج الرابع

حماية المجتمع من التدهور من خلال سُنَّة حراسة الجوانب الحقوقيّة الإنسانيّة، والثّوابت الشرعيّة

وهذه فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قد تسأل: ما حقيقة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الجواب: حقيقتها باختصار حراسة حقوق المجتمع بكلّ فئاته وأفراده، فلتحقيق الأمن المجتمعي على أوسع نطاق لا بدّ من تكاتف الأفراد والمؤسّسات على حراسة الواقع الحقوقي الفرديّ والجماعيّ في الحياة الإنسانيّة. ذلك يعني التّضامن لمنع الأخطاء والجرائم، وهذا التّضامن هو الذي سمّاه الشارع الحكيم (النهي عن المنكر)، والتّعاون على تنمية مظاهر الصّواب والعدل والخير والحقّ، وهو الذي سمّاه الشارع الحكيم (الأمر بالمعروف).

وباختصار لا بدّ من وجود الرّقابة المتبادلة بين أفراد المجتمع لمنع وقوع كلّ منهم في خطأ يصرون عليه، فالوقوع في الخطأ في ذاته لا إشكال فيه، والمشكلة الكبرى: الإصرار على ذلك الخطأ، وتمدّده وشيوعه.

وهنا ترى اللّوحة البارعة التي يرسمها التّمثيل النبويّ للمجتمع الآمن من الغرق أو الاندثار أو التدهور، وذلك في قول النّبيّ ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ

فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، نَجَوْنَا وَنَجَوْا جَمِيعًا^(١).

إنه وصفٌ نبويٌّ بارِعٌ يُظهرُ ضرورةَ الحماية المجتمعيَّةِ المشفقة على المجتمع من خلال سُنَّةِ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لتحقيق الاستقرار، وعدم الانهيار والدمار.

ليست حراسة المجتمع مجرد صفة ثانوية بل هي الصِّفة الجماعية الأساسية الأولى؛ لأنها تمثِّل صِمام الأمان من كلِّ المخاوف المستقبلية، واسمع لهذا الوصف المهيِّب للمؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ولقد كان لهذا الوصف أهميته في الإيقاظ الثقافيِّ والسياسيِّ مقابل حالة التَّغْفِيل التي تحاول قوى النِّفاق أن تجرَّنا إليها حيث ترى المقابل للمؤمنين والمؤمنات المنافقين والمنافقات: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

لقد ندب النَّبِيُّ ﷺ المجتمع كاملاً ليقوم كلُّ فردٍ فيه بالنَّهي عن المنكر حتى لو كان المنكر أذى يسيراً يرميه فردٌ منهم على قارعة الطَّرِيق، كما شدَّد على أن يأخذ هذا الإنكار مواضعه حينما يكون على ذوي السُّلطة والبأس؛ لأنَّ أخطاءهم لا تكون أخطاء فرديةً مجردة، بل تؤثر على المجتمع كله، وكما أن لهذا الإنكار أثره فإنَّ له أجره المقابل، فعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاها

(١) البخاري (٢٤٩٣).

فَقَتَلَهُ»^(١)، وسأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ وقد وضع رجله في الغرَز: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمةٌ حقٌّ عندَ سلطانٍ جائرٍ»^(٢).

هل هناك تناقض بين مبدأ حفظ النظام وحراسة المجتمع في الوقت ذاته؟

لا تعرف الرؤية الإسلامية الصَّافية التناقض بين مبدأ حفظ النظام الذي يُعبَّر عنه بالسَّمْع والطَّاعة، وحراسة المجتمع حتى من القائمين على النظام، بل إنَّ إظهار التناقض بينهما افتعالٌ سياسيٌّ وأهواء من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

فاسمع للجمع بينهما في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً»^(٣).

وحتى لا يسقط مبدأ حراسة الحقوق الإنسانية جعل النبي ﷺ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب؛ فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، فَقَالَ قَدْ تَرَكْتَ مَا هُنَالِكَ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٤).

(١) المستدرک (٤٨٨٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بأن فيه حفيد الصفار، لا يُدرى من هو؟ مختصر تلخيص الذهبي (٤ / ١٧٤٤)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤)، وذكر له طريقاً أخرى جعلته يذكره في الصحيحة.

(٢) أحمد (١٨٨٣٠)، وصحح الأرنؤوط إسناده، وصححه الألباني في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح (٣٧٠٥).

(٣) البخاري (٧١٩٩).

(٤) مسلم (٤٩).

والمحافظة على سفينة المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قد يكون تحت مبدأ التذكير، وقد يكون تحت مبدأ النكير، وقد يكون تحت مبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وذلك حسب المقتضى، وليبيان خطورة هذه السنة خذ هذا الاستشعار الذي ينقله مُطَرِّف [بن عبد الله الشَّخِير] رحمته الله عندما قال: قلنا للزبير رحمته الله: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيَّعتم الخليفة حتى قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه. قال الزبير رحمته الله: «إنا قرأناها على عهد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وأبي بكر وعمر وعثمان رحمته الله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، لم نكن نحسب أننا أهلها، حتى وقعت منا حيث وقعت»^(١).

ومن أوسع ما يُدمِّر المجتمعات: تبعض الإيمان، والتلاعب بشعبه، حيث يأخذ اللاهون والفاسقون منها ما راق لهم، ويردُّون ما تشربه أهواؤهم، ولقد توعَّد الله تعالى العصاة الإسرائيليين الفاعلين لذلك بعقوبة لم تخلف، فقال: ﴿فَمَا جَزَاء مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥].

والخِزْيُ إظهار القبايح التي يُستحيا من إظهارها عقوبة^(٢)، وينتج عن ذلك ذلٌّ طارئٌ على النفس إهانة لها، وتلحقهم بها مشقةٌ تجتاحهم، ففسر علماؤنا الخزي بمقدمة هي الوقوع في معاصٍ يُستحيا منها، والنتيجة هي ذلٌّ طارئٌ يدمِّر حياتهم.

فماذا وقع من عصاة بني إسرائيل وماذا وقع لهم؟ لقد وقعوا في القبايح المنكرة، فصارت ثقافتهم، ومادة حياتهم التي بها يتفاخرون لكأن قلوبهم طُبعت عليها، فمسخت قلوب قردة

(١) أحمد (١٤١٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ١٢).

توليه الخلافة لحماية الأمة من الزوال والاختراق المدمر لأمنها: التذكير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَتْنَى عَلَيْهِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّكُمْ تَقْرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا» ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْ شَكَّ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِعِقَابٍ»^(١)، وفي رواية قال ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ لَمْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

سهام الإفساد تتخزن في جسد الأمة المنهك أصلاً، ورماح الأعداء تتناوشها من هذا الجانب تارة، ومن الجانب الآخر تارة، وتتوالى طعنات المبطلين حتى لا تكاد تستطيع لها رداً، ولكأن إقبال يعينها حينما قال:

عَدَوْتُمْ فِي الدِّيَارِ بِلَا دِيَارٍ وَأَنْتُمْ كَالطُّيُورِ بِلَا وُكُورٍ
وَكُلُّ صَوَاعِقِ الدُّنْيَا سَهَامٌ لِّبِدْرِكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غُرُورٍ^(٣)
ما أكثر ما تُرِكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراعاة للواقع، وتناغمًا معه، ومن أهم الأسباب الشَّيْطَانِيَّة التي تمنع منه ادِّعاء القدرة على المناورة السَّيَاسِيَّة، فلما حدث ذلك رَأَيْتَ الذين امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُؤْكَلُونَ مِنْ قَبْلِ الْفَسَاقِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَجْرِي بَيْنَهُمْ سَحَبُ الْإِبْتِسَامَاتِ وَالْمَوَدَّاتِ، فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي الْمُسْلِمِينَ طَرَأَ عَلَيْهِمُ الْخِزْيُ

(١) أحمد (٣٠) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، أبو داود (٤٣٣٨)، وصححه الألباني

(٢) أحمد (١٩٢١٦) وحسنه الأرنؤوط

(٣) ديوان محمد إقبال، (ص: ١٠٣).

نتيجةً بعد إذ بذلوه مقدّمةً، وتفوّق عليهم غيرهم بالأسباب المادّيّة والدّهاء التخطيطي، فإن رأى المتلهّف ذلك رجع متوجّعاً، وصاح أسيفاً، مناجياً ربّه ﷻ:

مَلَأَ الشُّعُوبَ جُنَاتُهَا وَعُصَاتُهَا مِنْ مَلْحِدَاتٍ وَمِنْ مَغَرُورٍ
فَإِذَا السَّحَابُ جَرَى سَقَاهُمْ غَيْثَهُ وَاخْتَصَّصْنَا بِصَوَاعِقِ التَّدْمِيرِ
قَدْ هَبَّتِ الْأَصْنَامُ مِنْ بَعْدِ الْبَلَى وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ قَبْلِ نَفْخِ الصُّورِ
وَالْكَعْبَةُ الْعُلْيَا تَوَارَى أَهْلُهَا فَكَأَنَّهُمْ مَوْتَى لَغَيْرِ نُشُورٍ
وَقَوَافِلُ الصَّحَرَاءِ ضَلَّ حُدَاتُهَا وَغَدَتْ مَنَازِلُهَا ظِلَالٌ قُبُورٍ^(١)

ما الإطار الذي نفعل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليثمر ثماره؟ ما الضوابط الكبرى لتفعيل هذه الفريضة؟

الجواب: يجب أن تتحوّل استراتيجية حراسة المجتمع من خلال الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلى وعيٍ ثقافيٍّ عامٍّ بين الأفراد، واستراتيجية مجتمعية لتكوين رأي عام متماسك ومتكامل حتى لا يخاف أحدهم في قوله لومة لائم، لكنّه في الوقت ذاته ينبغي أن تكون التّحرّكات الإصلاحية عاملاً إصلاح لا عاملاً لإفساد، فيؤمر بالمعروف وفّق سبيلٍ معروف، ويُنهى عن المنكر بلا منكر.

إنّ من أخطر ارتدادات غياب التّفاعل المجتمعيّ وفّق استراتيجية الأمر والنهي ظهور السّماعين للأعداء المتربّسين، والتّسّتر على الخيانات الشّخصيّة.. وهنا تنهار حصون الحمايات والحراسات المختلفة.

(١) ديوان محمد إقبال، (ص: ٩٦).

حيث يُعَيِّن مَصَّاوِ الدِّمَاءِ خَائِنًا نَشِطًا لَا خَامِلًا لِيَرْبِحُوا الْبِلَدَ بِأَكْمَلِهَا؛ إِذْ سَيَقُومُ الْخَائِنُ بَعْدَ ذَلِكَ بِبَقِيَّةِ الْمَهْمَةِ لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِيُعْتَمَدَ عَلَيْهِ حَيْثُ سَيُؤَلِّي فِي طَاقِمِهِ الْعَمَلِيَّ فَاسِدِينَ خَوْنَةً أَوْ مَزِيَّتِينَ لِلْخَوْنَةِ، وَيُنْصَبُ مَصَّاوِ الدِّمَاءِ أَنْفُسُهُمْ حُكَمَاءَ يَلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْخَوْنَةُ وَالْمَظْلُومُونَ عِنْدَمَا يَحْدُثُ النِّزَاعُ، وَإِذَا حَدَثَ صِرَاعٌ بَيْنَ الْخَوْنَةِ أَنْفُسُهُمْ لَجَّؤُوا إِلَى الْحُكَمَاءِ الْخَارِجِيِّينَ لِيَطْلُبُوا الشَّرْعِيَّةَ الْخَارِجِيَّةَ بِتَقْدِيمِ عُرُوضٍ أَكْثَرُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِفْسَادِ وَالْخِيَانَةِ، وَهَكَذَا يَرْبِحُ مَصَّاوِ الدِّمَاءِ الْعَالَمَ.. هَلْ تَسْتَحْضِرُ الْآنَ كِتَابَ (تِيرِي مِيسَان): "الْخُدْعَةُ الْمَرْعَبَةُ"، إِذْ حَاوَلَ أَنْ يَفْضَحَ الْأَعْيَابَ الْعَالَمِ الْمَظْلَمِ الْقُدْرَ، وَقُدْرَتَهُ الْمَجْرَمَةَ عَلَى إِجْرَاءِ عَمَلِيَّاتٍ تَغْطِيهِ عَلَى الْحَقَائِقِ الصُّلْبَةِ لِإِدْخَالِ الْبَشَرِيَّةِ فِي أَوْهَامِ الْحُرُوبِ، وَهَذَا الرَّجُلُ (مِيسَان) نَدَّدَ بِفِكْرِ (لِيُو سْتَرُوس) وَ(بِرْنَارْد لُويْس) وَ(وَصَامُوِيل هِتْتِنِجْتُون)، وَنَادَى بِالِاتِّحَادِ لِمُقَاوَمَةِ مَشْرُوعِ الْهَيْمَنَةِ الشَّامِلَةِ لِلْإِمْبَرِيَالِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ وَالْوُقُوفِ فِي وَجْهِ الْمَحَافِظِينَ الْجَدِّدِ. هُوَ يَذْكُرُنَا فِي كِتَابِهِ بِمَبْدَأٍ يُمْكِنُ أَنْ نَدْعُوهُ: الْأَيْدِي الْقُدْرَةُ وَالْقَفَازَاتُ الْمَعْطَرَّةُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَعْوَقَاتِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى تَغْيِيرِ حَقِيقَتِي أَنَّكَ تَقْلُبُ الطَّرْفَ فِي الصُّفُوفِ الْمُؤْمَنَةِ بِالْقُرْآنِ لِتَجِدَهَا تَجْعَلُ أُسَاسَ تَفَاعُلِهَا التَّعَارُضَ بَدَلًا مِنَ التَّعَاوُضِ، لِكَأَنَّكَ تَرَاهُمْ بَدَلًا مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالْمَرْحَمَةِ يَتَوَاصُونَ بِأَنْ يَكُونُوا أَذَلَّةً أَمَامَ الْآخَرِينَ أَعَزَّةً أَمَامَ بَعْضِهِمْ، فَإِنْ انْبَعَثَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنْ حِصَارِ الْإِسْتِزْعَافِ وَاجْهَهُ آخَرُونَ بِمَنْكَرٍ مِنَ الْفِعْلِ وَزُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنْ (أَلْبِرْت أَيْنِشْتَاين) كَانَ يَتَوَجَّعُ مِنْ شَيْءٍ يَشْبَهُ ذَلِكَ حَتَّى أَرْسَلَ رِسَالَةً مَفْتُوحَةً إِلَى (بِرْتِرَانْد رَاسِل) رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا: «طَالَمَا وَاجْهَتْ الْعُقُولُ الْعَظِيمَةَ مَعَارِضَةً عَنِيفَةً مِنَ الْعُقُولِ الْمَتَوَسِّطَةِ...».

الأنموذج الخامس

السُّنَّةُ الكُونِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ المَزْلَزَلَةُ للحضارات (نقص الأرض من أطرافها)

وهي من السُّنَنِ الاجتماعية التي تبين أطوار الازدهار والانهيار في واقع الدول، وقد لخص ابن خلدون رحمه الله أطوار الدولة واختلاف أحوالها ليبين بذلك بعض السُّنَنِ الاجتماعية التي يتغير فيها الخلق الإنساني حسب الطُّور الذي تمرُّ عليه الأمة أو الدولة، وجعلها خمسة أطوار:

الأطوار التي تمر بها الدول والأمم



سَعَى السَّالِمِينَ قَبْلَ الْخَيْرِ

الطَّور الأول: طَوَّر الظَّفَر بالبغية وغلب المدافع والممانع (الانقلاب):

والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدَّولة السَّالفة قبلها، فيكون صاحب الدَّولة في هذا الطَّور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية.

الطَّور الثاني: طَوَّر الاستبداد على القوم والافراد دونهم بالملك وكبحهم عن التَّطاول للمساهمة والمشاركة (الحزم لتثبيت الملك).

ويكون صاحب الدَّولة في هذا الطَّور معنيًّا باصطناع الرِّجال واتخاذ الموالي والصَّنائع، والاستكثار من ذلك لجذب أنوف أهل عصبيته، ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده، فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأوَّلون في طلب الأمر أو أشد.

الطَّور الثالث: طَوَّر الفراغ والدَّعة لتحصيل ثمرات الملك ممَّا تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعْد الصَّيت:

فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدَّخل والخرج وإحصاء النِّفقات والقصد فيها، وتشيد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتَّسعة والهيكل المرتفعة.

الطَّور الرابع: طَوَّر القنوع والمسالمة (إبعاد العقيدة الثَّورية):

ويكون صاحب الدَّولة في هذا قانعًا بما بنى أوَّلوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله.

الطَّور الخامس: طَوَّر الإسراف والتَّبذير (عدم المبالاة بالمخاطر):

ويكون صاحب الدَّولة في هذا الطَّور مُتْلِفًا لما جمع أوَّلوه في سبيل الشَّهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخذان السُّوء وخضراء الدِّمن، مستفسدًا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغنوا عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، فيكون مخربًا

لما كان سلفه يؤسسون، وهادمًا لما كانوا بينون، وفي هذا الطّور تحصل في الدّولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن إلى أن تنقرض، والله خير الوارثين^(١).
فينتهي الأمر بما آل إليه أمر العباسيين وسائر الدّول التي بادت.

وهنا يحتاج الدّولة عدد من السّنن المدمّرة، ومنها هذه السّنّة الرّهيبّة (نقص الأرض من

أطرافها):

لتتعرف إليها أكثر.. تذكّر أنه كان ضمن الدّروس القاسية لسقوط الدّولة العثمانية العظيمة تأكلها من أطرافها، ومن أطرافها المتآكلة المؤثّرة: الجزيرة العربية البعيدة عن مركز قيادة الدّولة، حيث كانت التجربة مع اليمن بحاجة إلى استخلاص العبر، وطرف آخر انتقص وانتقص وهو الاندفاع القادم من الحركة التّجديديّة المولودة وسط الجزيرة العربية، ولكنّ الاندفاع السّياسي الذي صاحبه أسهم في إضعاف المصلحين لأوضاع المسلمين بدلًا من أن يُسهم في زيادة لُحمتهم مع وجود الجوانب الإيجابيّة للأطراف المختلفة، أما الطّرف الثالث الموجه للغاية فقد جاء من مصر، حيث كانت الخيانة التي قام بها الجاهل الدّاهية محمد علي سرشمة الذي أرسله العثمانيون لإعانة المصريين على العودة إلى الحضن الدافئ للعثمانيين، فصار رمحًا في خاصرة العثمانيّين وكاد يهدّد قلبهم بعد أن أمدّته فرنسا بصدقتها الحميمة.. لم يكن اختيار هذا الرّجل موفّقًا حتى من المصريين الذين ثاروا على من قبله لينصّبوه.. تصوّر رجلًا لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يعرف معنى الدّين.. تصوّره وهو يعمل على تغريب المسلمين بثرواتهم وحراستهم.. بعد ذلك انهارت الدّولة العليّة التي طالما

(١) مقدمة ابن خلدون (ص: ٢٣٤).

حرس ديار المسلمين، إنها السُّنة الرَّهيبَة التي طالما غفلنا عنها.. سُنَّة نقص الأرض من أطرافها.

وقد أفردتها ببحث محكم مستقل بعنوان: سُنَّة (نقص الأرض من أطرافها) وأثرها في ازدهار الدول وانهيارها، باللغة الإنجليزية في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت، المجلد (٣٨)، العدد (١٣٣)، ذو القعدة ١٤٤٤ هـ - يونيو ٢٠٢٣ م^(١)، ونشر باللغة العربية في موقع بصائر المعرفة القرآنية^(٢)، فمن أراد أن يطلع عليه فعليه أن ينزله من الروابط المذكورة في الهامش.

ومن خلاصاته التي تشوق إليه ما يأتي:

أولاً:

الآيتان في سورتي الرعد والأنبياء اللتان ذكرتا سنة نقص الأرض تضعان سُنَّة عَامَّة وقانوناً شاملاً لسكَّان العالم، مهما كان دينهم، إِنَّ هذه السُّنة قانونٌ مرعَّبٌ، لا بدَّ من الانتباه له.

ثانياً: لنحاول إعمال المعاني السُّنَّة في فَهْم هذه السُّنة:

(١) ينظر: موقع مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية:

<https://journals.ku.edu.kw/jsis/index.php/jsis/issue/view/343>

(٢) رابط تحميل البحث باللغة العربية من موقع بصائر المعرفة القرآنية:

[/https://quranok.com/books/8301](https://quranok.com/books/8301)

رابط تحميل البحث باللغة الإنجليزية من موقع بصائر المعرفة القرآنية:

[/https://quranok.com/books/10736](https://quranok.com/books/10736)

مظاهر نقص الأرض من أطرافها، وتطبيقاتها الواقعية:



سَعَى السَّالِمُونَ قَبْلَ الْجَنَازِ

ثالثاً:

إذا كان معدل الولادات في العالم الإسلامي لا يدلُّ على التناقص البشريّ بخلاف كثيرٍ من دول العالم التي تصيبها هذه الظاهرة، فإن نقص الأنفس في العالم الإسلاميّ يمكن فهمه عندما ترى غشاء كثاء السيل، فبدلاً من أن يكون التمدُّد السكانيُّ نعمة، كما هو الحال في الصّين، يصبح انفجاراً تخريبياً عند المخربين الذين قد يكون لهم الحلُّ والعقد.

رابعاً:

تمادت الغفلة ببعض المسلمين فظنّوا أن قانون "نقص الأرض من أطرافها" خاصٌّ بالكفار بدليل السّياق في سورة الرّعد والأنبياء، ولعلّ هذا الظنّ أوجبه الغفلة عن شمول النّص القرآنيّ وعمومه، كذلك يُصاب المنذرون بالغفلة المركّبة عندما يسترخون في متكات الأمن من مكر الله ﷻ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

خامساً:

الحقائق المترتبة على الفهم الصحيح لسنة نقص الأرض، والإفادة منها في المحافظة على

مُقَوِّمَاتِ الْأُمَّةِ، ومكتسباتها الحضارية الرائدة:



عَبْدُ اللَّهِ الْمُقْبِلُ الْحَجَرِيُّ

سادساً:

إن لم يُكثَفَ التَّركيز على تنمية تلك المناطق الطَّرَفِيَّة، تحوَّل عددٌ من المؤثِّرين فيهم ليكونوا نهباً لذئاب الأمم التي تحتوشهم من كلِّ مكان، ونشأ فيهم العملاء الخونة لدينهم وأمتهم.

سابعاً:

كم أخطأ دعاة التَّغيير بالتَّركيز على مناطق الوسط أو على مناطق النِّشأة أو الزخم والثروة، وأهملوا الأطراف، حتى أكلت منهم وصارت حراباً في صدورهم.

اليمن والسُّنَّة الحاكمة (نقص الأرض من أطرافها):

وانظر إلى سُنَّة (نقصان الأرض من أطرافها) كيف اجتاحت اليمن، فلم يلتفت الرُّعماء السِّياسيون، ولا القيادات العلميَّة لطرفي اليمن: صعدة، وعدن، وتهامة، ولا لأطرافها الأخرى: المهرة، والحديدة، وسوقطرة.. لم يتمَّ التَّعامل معها وَفَّقَ العدل، والتَّعليم، والرَّعاية، والمساواة الوظيفية، وترك المحاباة، وتطبيق النِّظام المقسط الذي لا يلتفت في إقساطه للوجاهات والقربات، ممَّا حذَّر منه القانون الإلهيُّ الدُّستوريُّ المدهش في قول الله - تعالى ذكره - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَكِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَا أَوْ نُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].. فماذا كانت العاقبة؟

تآكلت الأطراف الجغرافية، وكان من أسباب تآكلها تآكل الأطراف العلمية، والقيادات الإدارية المقسطة نتيجة لعدم تولية الأكفاء، وتحكيم أهل الحل والعقد من العلماء (وكلا الأمرين ممّا ورد في تفسير نقصان الأرض من أطرافها).

واستمع الرّاعُ والهَمَج من القادة الشّعبيين والرّسميين والثّوريين لنصيحة سفراء الحروب والموت الأميين. وكانت نصائحهم تتمحور في تولية الفارغات اللواتي سُمّين بالنّاشطات، وفي التّخلّص من هيمنة ذوي الرّشد من القيادات العلميّة والقبلية، وتمّ ذلك تحت أسماء مختلفة.. كأن البردوني رحمه الله يراهم، وهو يقول:

والأبأ الذين بالأمس ثاروا أيقظوا حولنا الذّئاب وناموا
حين قلنا قاموا بشويرة شعب فعَدوا قبل أن يروا كيف قاموا
ربّما أحسنوا البدايات لكن هل يحسّون كيف ساء الختام؟

وأقبل مجرمو العالم ومصاصو دمائه من قرامطة العصر لإنقاذ اليمن تحدوهم الأطماع المختلفة ويؤزهم الشّيطان للسيطرة على الموانئ الاستراتيجية والجزر الثريّة، والممرّات المركزيّة، والنّفط والغاز، ولم يتركوا حتى الثروة الدّوائية والذهبيّة والسّمكيّة، وأقاموا جيوشهم لقتل المصلحين ومن يقوم بنشر بذرة خير تحت الحُجّة الفرعونيّة الجديدة (الإرهاب). وتشرف هيئة الأمم على ذلك كلّهُ، فمرتزقتها لا يجدون وظائف حقيقية لهم إلا في أرض الحروب، ويتمّ اختراع خرائط طريق لإطالة أمد المعاناة، تحفها مؤتمرات (جنيف) الفارهة لمن يستلم الرّشوة تحت الرّعاية الدّائمة من الوسطاء الدّوليين الذين يجدون الأعمال التّجاريّة النّاجحة عندما تطول الأزمة ويموت الناس قتلاً أو جوعاً.. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].. لكن (أمر الله) لم يكن كذلك إلا جزاءً وفاقاً، كما قال الله -جلّ

مجده- في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

لقد كان نقصان الأرض من أطرافها سبباً في تآكل الأراضي اليمنية، ومن آثاره: أن يتحوّل كل من يزعم نصرة اليمن من الخارج إلى نارٍ تتلظى على اليمن وأهله..

أليس جزاء وفاقاً عندما تنبذ القوى اليمنية أمر الله ﷻ وراءهم ظهرياً ويجعلوا الحلّ الأجنبي خياراً مرضياً؟! أليس جزاء وفاقاً عندما لم يتدبروا سُنة نقصان الأرض من أطرافها، فيعملوا على إسكات القيادات العلميّة لينطق الرّويضات في أنحاء الأرض؟!.. فماذا كان؟ لقد جاءت الجيوش البحريّة والبريّة والجويّة للقراطة الجُدّد لتزِيل مفهوم الدّولة اليمنية كلّها حسب التّصريحات الرّسميّة للأمم المتّحدة.. وهذا الكيان الفريد من نوعه (الأمم المتّحدة) لا يخفي قلقه المستمرّ للأزمة التي تعمل أدواته على استمرارها.. فمجلس الأمن أحد الأطراف الفاعلة في الإشراف على تزايد المأساة اليمنية.. إنه يصدر القرارات التي تعطي الشّرعية لكل الأطراف لاستمرار المأساة، ولكن بأسلوبه الماكر، وباعت القيادات (الشّرعية والواقعية والجماهيرية) اليمن الحرّ مقابل الرّشوات التي يقبضها كل منهم من جهته.. إنهم لم يسمعوا -وكأنهم لا يريدون أن يسمعوا- قول النّبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - ذَكَرَ مِنْهُمْ - وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ»^(٢).. كيف من باع ثلاثين مليون إنسان؟! انقشع الغبار عن مشهد رهط التّحالف الخارجيّ كرهط الفاسقين الدّاخلين يتجاذبون كالوحوش المسعورة الفريسة اليمنية المأسورة ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) البخاري (٢٢٢٧).

عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ١٦٩، ١٧٠].

وكأنِّي بالشاعر يتألم لحال اليمن حينما قال:

تَاهَتْ خُطَاكَ وَخَانَكَ التَّقْدِيرُ	فَعَدَا عَلَيْكَ الْغَادِرُ الشَّرِيرُ
وَاسْتَمَرَّ الْأَوْغَادُ خُطَّةَ غَدْرِهِمْ	فَالْجُرْمُ يَعْظُمُ وَالْعَرِيمُ حَقِيرُ
وَعَدَوْتَ قَصْدًا لِلْبُعَاةِ وَحَقْدِهِمْ	فَالْيَ أَدَاكَ يَوْزُهُمْ تَشْمِيرُ
أَسْلَمْتَ أَمْرَكَ لِلَّذِينَ تَظُنُّهُمْ	غَوَّثًا إِذَا هُمْ بِالْهَلَاكِ نَذِيرُ
وَزَنَنْتَهُمْ عَوْنًا إِذَا أَقْرَبُهُمْ	لِهَوَاكَ خَصْمٌ بِالْفَسَادِ جَدِيرُ
نَصَرُوا عِدَاكَ وَكُنْتَ تَرْجُو نَصْرَهُمْ	فَهُمُو لِحَصْمِكَ وَالْعَدُوُّ نَصِيرُ
قَدْ قَالَهَا التَّارِيخُ فِيمَا قَالَهُ	وَالدَّهْرُ سَجَّلَ وَالشُّهُودُ حُضُورُ
لَا تَطْلُبَنَّ الْمَاءَ مِنْ نَارِ اللَّظَى	وَمِنْ الظَّلَامِ فَلَا يُرْجَى النُّورُ
لَا تَرْكَنْ إِلَى عِدَاكَ وَإِنْ بَدَا	لَكَ نَاصِحًا إِنَّ الرُّكُونَ غُرُورُ
لَا يَطْلُبُ الْأَحْرَارُ نُصْرَةَ مَنْ طَعَى	أَوْ ظَالِمٍ فِي الْأَقْصِيَّاتِ يَجُورُ ^(١)

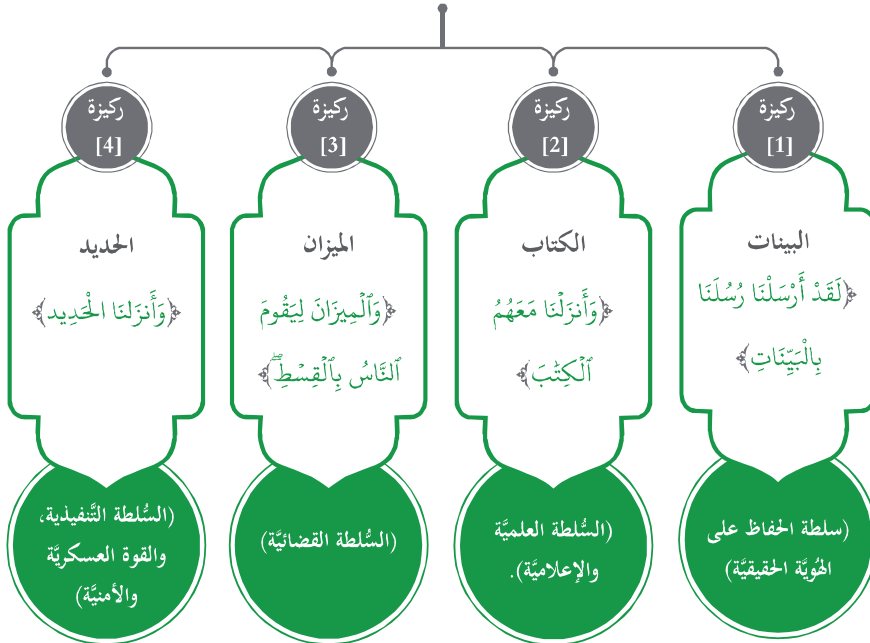
(١) الأبيات لسعيد بن دحاج - وفقه الله -. ينظر: عتب القوافي (ص: ١٩).

الأنموذج السادس

من أهمّ سنن حماية الأمم والدُّول والمجموعات البشريّة وتنميتها:
المحافظة على الرّكائز الأربع الأساسيّة: البيّنات، الكتاب، الميزان،
الحديد

ركائز الأمن المجتمعي في آية الحديد

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ...﴾ [الحديد: 25]



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنها أنوار قرآنية مستلهمة من آية الحديد، ففي إطار الإصلاح القرآني لأوضاع الأمة يبني الله -تعالى جده- لعباده مجتمعاً كفيلاً بأن يحقق أحلام البشرية في السعادة، والأمن، والاطمئنان، والتعاضد، والعدل، والحماية من العدو الخارجي أن يخترق سياجه، أو يجتاح أمنه.

لتحقيق السعادة، والأمن، والاطمئنان، ذكر الله -سبحانه وتعالى- في سورة الحديد أربع ركائز، هي عماد النهضة الإنسانية، وأساس الوجود، والتقدم والتفوق الحضاري.

إنها تشكّل صمام الأمان لسائر المجتمعات حتى بعد وفاة الرُّسل (ﷺ)، وهي أركان حماية الرسالات، وأعمدة النهوض في المجتمعات، والمتكفلة بتوفير المنافع المختلفة للناس في كل الظروف والحالات.. إنها قوام تنمية المجتمعات، فبواسطتها يصل الناس إلى أقصى درجات الانتفاع من المملذات الدنيوية المستقيمة، ويقدمون لأنفسهم أمام المستقبل الأخروي.. ولتتم ذلك لا بد من توافر هذه الركائز الأربع جميعاً، وإذا توافرت إحداها دون الباقي حصل الاختلال.. لنقرأ بتدبر الآية التي ذكرت هذه الركائز الأربع؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٥﴾ [الحديد: ٢٥].

يمتلئ قلبك من الإجلال لهذا النصّ القرآني العظيم؛ تسمع ربك ﷻ يبين فيه رعايته للمصالح البشرية، فقد أرسل الرُّسل (ﷺ)؛ لإصلاح الأرض، وإسعاد العالم، وليكونوا واسطةً بينه وبين الخلق، يبلغونهم ما يريد ربهم ﷻ منهم، ويخبرونهم عما ينفعهم،

ويحذرونهم ممّا يضرّهم، وذكر أربع ركائز لنجاح الرّسالات في تحقيق أهدافها هي: البيّنات، الكتاب، الميزان، الحديد، ثم ختم ذلك ببيان كيفية تحقيق النّصر الفرديّ والجماعيّ في الدُّنيا والآخرة من خلال هذه الرّكائز الأربع، ولنأخذ في تفصيلها لننظر كيف يمكن للقوى البشريّة الاستفادة منها لتحقيق الطّموحات البشريّة في النّصر والتّمكن:

الرّكيزة الأولى: البيّنات (سلطة الحفاظ على الهويّة الحقيقيّة):

أرسل الله -تعالى- مجده وعزّ سلطانه - الرّسلَ تصحبهم (البيّنات)، يستعينون بها على إظهار صدق رسالتهم، فالباء للمصاحبة والاستعانة، والبيّنات: وسائل برهانيّة وأدلة قطعيّة، تبين صدقهم، وتؤكد نبا إرسالهم، كما قال صاحب الزُّبد رحمه الله:

أرسل رُسُلَهُ بمعجزاتٍ ظاهرةٍ للخلقِ بآهراثٍ^(١)

وأعظم هذه البيّنات القرآن المجيد، فهو البينة العظمى الباقية حجة على البشريّة مهما تجددت أجيالها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا، أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْي، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فموسى عليه السلام أوتي الآيات التسع التي في مقدّماتها انقلاب العصا حيّة أو ثعبانًا، وعيسى عليه السلام أوتي بيّنات، منها: إحياء الموتى، وهكذا، وأوتي النّبي صلى الله عليه وآله ما يشبه ذلك من المعجزات المادّيّة، لكن المعجزة التي تناسب عموميّة رسالته إنما كانت القرآن المجيد، وقد رجا صلى الله عليه وآله أن يكون أكثر الأنبياء عليهم السلام تابِعًا يوم القيامة؛ لأن بيّنته الأساسيّة معجزة مستمرة باقية إلى يوم القيامة، ولأن القرآن محفوظ من التّغيير والتّبديل، فما كتب في عهد النّبي صلى الله عليه وآله، فهو

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ١١).

(٢) البخاري (٤٩٨١)

المكتوب بين أيدينا ذاته، دون زيادة أو نقص، ولأنَّ معجزة القرآن عقليةً فكريةً، بينما كانت معجزات الأنبياء السابقين حسيَّةً مادِّيَّةً، تنتهي بموت ذلك النَّبِيِّ أو رفعه.

المعجزة الفكرية تخترق الأزمان والبلدان، حيث تفكر فيها كلُّ العقول، أمَّا المادية فتنتهي بمجرد انتهاء المشهد.

ولأنَّ القرآن جمع بين المعجزة والمنهج، أما الأنبياء السابقون فكانت المعجزة عندهم تختلف عن المنهج.

في الميدان السُّنِّي: ماذا تقتضي كلمة ﴿بَيِّنَات﴾؟
الجواب: تقتضي ما يأتي:

(١) رَكِيزَةُ (البَيِّنَات) هنا تعني المحافظة على الهوية الثقافية للأجيال، وبما أنَّ أعظم البَيِّنَات عندنا هي القرآن الكريم؛ فإن ذلك يعني أن ينشر القرآن الكريم على أوسع نطاق.
(٢) رَكِيزَةُ (البَيِّنَات) تعني أن تظهر للأجيال كيف تَمَّت كلمات ربك صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام والتشريعات الحياتية.

(٣) رَكِيزَةُ (البَيِّنَات) تعني أن نحمي الأمة من أخطار الاختراق الثقافي والتشقق المجتمعي بين مجموعات أفكار متناقضة تحت عنوان التنوع، أو تحت مظلة حماية الأقليات التي لم تكن موجودة، فوجدت عندما غفل النَّاس عن إبراز البَيِّنَات في المجتمع.

فلنضرب لذلك مثالًا:

كان المجتمع الهندي في غالبه الأعظم مسلمًا، وبحث الاحتلال البريطاني الذي جاء تحت اسم شركة الهند البريطانية (انظر للاسم المزخرف) عن سبل ينصرون بها المسلمين قبل الهندوس، فلم يجدوا لذلك سبيلًا، وكان من أبرز نتائج هذه المحاولات الفاشلة تأليف

الكتاب المدهش في الردّ على المحاولات العسكرية الثقافية البريطانية لتنصير المسلمين: إظهار الحقّ للشيخ الكبير رحمة الله الكيرانوي (ت ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م).
فلما عجزوا عن تحقيق هذه الغاية أنشؤوا عددًا من الفرق التي يمكنها أن تدمّر مفاهيم الإسلام من الداخل، ومن أبرز هذه الفرق: القاديانيّة.
ترى أنهم دائماً يركّزون على الموهوبين؛ ولذا ركّزوا على أحد المشهورين من الأذكياء الذين يتّسمون بالطموح نحو القيادة، وهو غلام أحمد ميرزا القادياني (ت ١٣٢٦ هـ) ^(١).

لإظهار هذه الرّكيزة وإبرازها في الحياة العقلية العامّة يجب إنشاء عدد من المؤسسات التي تحميها وتحافظ عليها، ومنها: المؤسسات الثقافية، والتعليميّة، والتّثقيفيّة والبحثيّة التي تقوم على استكشاف (بيّات الرّسل)، وتعليمها، والتّعريف بها في العالم.

(١) هو: أحمد بن مرتضى بن محمد القادياني، ويسمى مرزاً غلام أحمد بن غلام مرتضى ابن عطاء حمد، ويلقّب بالمسيح الثاني: زعيم القاديانية، ومؤسس نحلته. هندي له كتابات عربية. نسبته إلى (قاديان) من قرى (بنجاب) ولد ودفن فيها. قرأ شيئاً من الأدب العربي، واشتغل بعلم الكلام. خدم الحكومة الانكليزية (أيام احتلالها للهند) مدة عمل بها كاتباً في المحكمة الابتدائية النكليزية بمدينة سيالكوت. لما تم القرن الثالث عشر الهجريّ نعت نفسه بمجدّد المّة. ثم أعلن أنه (المهدي) وزاد فادّعى أن الله أوحى إليه، وكان يقول: «هذه الحكومة (الاحتلال البريطاني).. حرام على كلّ مؤمن أن يقاومها بنية الجهاد، وما هو جهاد بل هو أقبح أقسام الفساد!»، ولا يزال له أتباع إلى اليوم في الهند وباكستان. وتصدّى كثير من معاصريه للردّ عليه وتكفيره. الأعلام للزركلي (١/ ٢٥٦).

الرَّكِيزَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ (السُّلْطَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْإِعْلَامِيَّةُ):

أشار الله تعالى إلى هذه الرِّكِيزَةُ في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، فالكتاب إشارة إلى الكتب السَّمَاوِيَّةِ، وآخرها وأعظمها: القرآن الكريم.

ظهر الفرق جليًّا بين البَيِّنَات والكتاب عند الأنبياء السَّابِقِينَ، فبَيِّنَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت العصا مثلاً، وكتابه التَّوْرَةُ، فكيف يظهر الفرق في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ؟ إذ بَيَّنَّته القرآن؟ فلماذا إذن ذكر الله ﷻ البَيِّنَات ثم ذكر الكتاب في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ؟

يظهر لي أن ذلك ليبين أن الاهتمام بالرِّكِيزَةُ الأولى (البَيِّنَات) اهتمام القرآن تعلُّماً، وتعليمًا، وتحفيظًا، ونشرًا، وتدبرًا؛ أمَّا الاهتمام به باعتباره كتابًا فليكون الدُّستور الحاكم المهيمن الذي تنبثق عنه جميع القوانين، وتصدر عنه جميع السِّيَاسَات، وتنفَّرُ عنه أُسُسُ الثَّقَافَات. ومن الكتاب نستمدُّ المنهج العاصم، والقول الرِّبَاني الخالي من المعارض والمقاوم، وينبثق عن الكتاب القوَّة العلميَّة في المجالات الدِّيْنِيَّة والدُّنْيَوِيَّة، وخصوصًا لأمَّة: ﴿أَقْرَأُ﴾ [العلق: ١]، كما أمر الله ﷻ بها في أوَّل آية نزلت من القرآن الكريم.

ولاحظ العجب في آية سورة الحديد كيف جمع الرُّسُل وأفرد الكتاب؛ فلماذا؟ الجواب: ليبين أن الكتب يُصَدِّق بعضها بعضًا، واللاحق يكمل السَّابِق، والرَّسُول مبلِّغ لما فيها، فكأنَّها كتابٌ واحدٌ، آخرها هو خاتمها الذي يُرْجَع إليه.

وإن تطع أكثر من في الأرض يضلُّوك عن القوَّة العظيمة المنبثقة من الكتاب.. إنها القوَّة القانونيَّة والدُّستوريَّة السَّارية والمطبقة على الجميع على قدم العدالة، فالكتاب هو ما أنزله الله تعالى على رسله ﷺ هدى ونورًا، كما قال -تعالى ذكره- عن التَّوْرَةِ مبيِّنًا مَادَتَهَا، أمرًا بأن تكون هي الحكم الأعلى في المجتمع: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا

الَّذِينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن الإنجيل مبيناً مادته، وأمرًا أن يكون هو الدستور الأعلى الحاكم للمجتمع النصراني: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، وختم هذه الكتب بالقرآن الكريم ليكون أعظم منهج أنزل لتنتفع البشرية بنظمه وتشريعاته، فقال عنه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ما القوى التي تنبثق عن تمسكنا بالكتاب؟

الجواب: الكتاب يحيي الجوانب الميتة في هذا العالم؛ إذ الكتاب يعني تعلّم المكتوب، ذلك يقتضي نشر قوة العلم والتعلّم والتعليم، كما أن الكتاب يعني إقامة النظام الدستوري والتشريعي القانوني المطبق؛ إذ الآيات أنزلت للإيمان بها، وقد ضلّت فئات زعموا الإيمان إذا جاءت الآيات، فلما جاءت إذا هم في غيهم معاندون.

وتنشأ عن مفهوم (الكتاب) جهاتٌ ومؤسسات، منها: الدساتير والقوانين المتفرعة عنها، والمناهج التربوية، والعلمية، والتشريعية، وهذا يقتضي إنشاء السلطة التشريعية، التي تسنّ القوانين، وتستنبط الأحكام من الكتاب.

تشير هذه الرّكيزة (الكتاب) إلى وجوب إنشاء المؤسّسات العلميّة، التي تغرس معاني الكتاب في نفوس الأجيال، والمؤسّسات التّوعويّة، التي تجعل الثّقافة القرآنيّة جزءاً من النّسيج المجتمعيّ اليوميّ، والمؤسّسات التّعليميّة والإعلاميّة المنبثقة عن الثّقافة القرآنيّة.

الرّكيزة الثالثة: ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (السّلطة القضائيّة):

والميزان يشير إلى قوّة العدل، فهو أداته الدّقيقة، ومن ذلك العدل في توزيع الثّروات، وتقسيم الحقوق، والقيام بالواجبات من كلّ أفراد المجتمع، والتّعامل مع كلّ بما يقتضيه حاله، فإن كثيراً يضلّون بأهوائهم بغير علم فيستأثرون بالثروة الاقتصاديّة، أو الامتيازات الحياتيّة، ومن أهمّ العوامل التي تضرب استقرار المجتمع، وتؤدّي إلى خطورة الموقف بين يدي الله تعالى في الآخرة: عدم وجود العدالة الاجتماعيّة بين النّاس، ونلاحظ هنا أنّ الله تعالى ذكر العدل في الآية، فقال: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

فإن سألت: ما الفرق بين العدل والقسط؟

والفرق بين العدل والقسط: أنّ «القسط هو العدل البين الظّاهر، ومنه سمّي المكيال قسطاً، والميزان قسطاً؛ لأنه يصدّر لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً، وقد يكون من العدل ما يخفى»^(١)؛ فالقسط يدلّ على النّصيب المحدّد الذي يجب أن يُعطى لأصحابه بينما العدل يشمل الظّاهر والباطن.

(١) الفروق اللغوية (ص: ٤٢٨).

ولتجدن الشرع المجيد يعدل في ذكر تفاصيل العدل، فالعدل لا يتعلّق بفردٍ أو بفردين، أو بمليون أو بمليونين من الناس، بل بكلّ رعيةٍ حسب كلّ راعٍ، صغرت مسؤوليته أو كبرت، ولخطورة ذلك جعل النبي ﷺ الإمام العادل أوّل من تستجاب له الدّعوة في الحديث الذي فيه ذكر من تستجاب دعواتهم، ويبيّن الله ﷻ مكانة المقسطين من أرحم الرّاحمين، فقال ﷺ: «إنّ المقسطين عند الله ﷻ على منابر من نور، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا»^(١)، وفي وصية عمرو بن العاص ﷺ: «يا بني! احفظ عليّ ما أوصيك به، إمام عدلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ»^(٢)، وفي المقابل حذّر النبي ﷺ من الجور، فقال: «ما من أميرٍ عشرةٍ إلا يُؤتى به يوم القيامةٍ مغلولَةٌ يدها إلى عنقه، أُلْقِيَ الْحَقُّ أَوْ أُوبِقَتْ»^(٣)، ذلك أن لم يكن ربُّك مهلك القرى والمجموعات البشريّة وأهلها يقيمون حياتهم على ميزان القسط.

وربما تساءلت: ما الحكمة من ذكر الله ﷻ الميزان دون العدل؟

الجواب: كذلك يولي الله ﷻ بعض الأشياء بعضًا لتحقيق القيم على أحسن الوجوه، فإن الميزان وسيلة، والعدل هدف ونتيجة، وتحقيق الهدف، وللوصول إلى سُبُل السّلام في الغاية لا بدّ من وسيلةٍ يظهر فيها شدّة الحرص على وزن الأشياء المتناهية في الصّغر مهما تضاءلت، كما قال تعالى شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ولذا ترى الميزان يوم القيامة

(١) مسلم (١٨٢٧) عن عبد الله بن عمرو ؓ.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (١٤٦/١٤٨) من طريقين فيهما ضعف شديد، وذكره بعضهم عن علي بن أبي طالب ؓ بلفظ قريب من غير إسناد، وهذا المتن مشهور أنه لعمر بن العاص ؓ، والله أعلم. ينظر: حسن السلوك الحافظ دولة الملوك (ص: ٥٣)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص: ٥٠).

(٣) أحمد (٩٥٧٣)، وقال الأرنؤوط: «إسناده قوي»، والدارمي (٢٥٥٧) واللفظ له، قال المحقق: «إسناده صحيح»، وصححه الوادعي في الصحيح المسند (١٣٩٥).

حقًا، فقال جلّ مجده: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

لاحظ أن الله ﷻ ذكر الوسيلة لنبحث عن إيجادها في واقعنا؛ فإن الميزان يختلف بحسب الجهات المتعددة، فميزان الطعام هو مقياسه الذي يبين حجمه، ويختلف الميثقال فيه عن ميزان المكيال، ويختلفان عن ميزان المواد المتعددة، فهناك ميزان لصلاحية الأشياء، وفسادها، وهناك ميزان للمناقصات الصّحيحة، والفسادة، وهناك ميزان لتولية الأمور أكفأها، فقد يكون الميزان علميًا، وقد يكون عسكريًا، وقد يكون مجموعًا من هذا وذاك. وذكر القسط؛ لأنه يشير إلى نصيب كلّ جهة بحسبها، فالقسط هو الحظّ والنصيب الذي يتحقّق به العدل.

انظر لدقّة الوزن: ميثقال ذرّة لا تضيع عند الله ﷻ، ولقد أشد الرافعي ﷺ: المُلْكُ لله الذي عَنَتِ الوجو هُ له وذَلَّتْ عنده الأربابُ متفرّد بالملك والسُّلطانِ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ تَجَادَبُوهُ وَخَابُوا دَعُهُمْ وَزَعَمَ الملكِ يومَ غرورِهِمْ فسيعلمونَ غَدًا مَنِ الكَذَابُ! (١) فمن يرد الله ﷻ أن يهديه يوفّقه إلى موازين إقامة العدل؛ إذ هو الحافظ للمجتمعات من وجود الجيوب المجرمة المستقوية يمينًا وشمالًا، وهو الذي يبني الأمم والحضارات دون تغليب جهةٍ على جهةٍ؛ ولقد شعر الفكر التيمّي بالارتباط بين العدل وقيام الأمم لكأنه يجب عن سبب تقدّم المجتمعات الغربية، وانحطاط المجتمعات المسلمة، فقال:

(١) ينظر: الانتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٨).

«وأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الْإِشْرَاقُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ، أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحَقُوقِ، وَإِنْ لَمْ تَشْرُكْ فِي إِثْمٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يَقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ»^(١)، «وَالْوَلَايَةُ الصَّالِحَةُ، وَالسِّيَاسَةُ الرَّاشِدَةُ تَقُومُ عَلَى آدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ»^(٢).

وَقَدْ قِيلَ: بِالْعَدْلِ تُسْتَصْلَحُ الرِّجَالُ، وَتُسْتَغْزَرُ الْأَمْوَالُ، وَالْعَدْلُ وَضَعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وَدَخَلَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ﷺ عَلَى غَلَامٍ لَهُ يَعْلفُ نَاقَةً، فَرَأَى فِي عَلفِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِ غَلَامِهِ، فَعَرَكَهَا، ثُمَّ نَدِمَ، فَقَالَ لَهُ: خَذْ بِأُذُنِي فَاعْرَكْهَا، فَأَبَى الْغَلَامُ، فَلَمْ يَدَعْهُ حَتَّى أَخَذَ بِأُذُنِهِ، فَجَعَلَ عَثْمَانُ ﷺ يَقُولُ لَهُ: شَدَّ، شَدَّ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنْهُ، قَالَ عَثْمَانُ ﷺ: وَاهَا لِقِصَاصِ الدُّنْيَا قَبْلَ قِصَاصِ الْآخِرَةِ^(٣)، هَذَا عَثْمَانُ ﷺ الَّذِي زَعَمَ الْمَرْجِفُونَ وَالْمَنَافِقُونَ وَالسَّمَّاعُونَ لَهُمْ أَنَّهُ حَابِي قَرَابَتِهِ، وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: أَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ جَوَامِعَ نَوَافِعَ، فَقَالَ: «اعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَزُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُ زَالَ، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ، فَأَقْبِلْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا بَغِيضًا، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْبَاطِلِ، فَارْذُدْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا»^(٤).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨ / ١٤٦).

(٢) السياسة الشرعية (ص: ١٢).

(٣) حياة السلف بين القول والعمل (ص: ٨٧٨).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١ / ١٣٤).

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ التّعليم القرآنيّ بقيمة العدل يصحّ المحاولات المستميتة للجاهليّات المعاصرة (المثقّفة) لتزييف الوعي الإنسانيّ.. ستسأل: كيف ذلك؟

فانظر -أيّدك الله- كيف يقدم الإعلام ووسائل التوجيه المعاصرة مبدأ الحرّيّة مصحوباً بضجيج هائلٍ.. فما للإعلاميين معرضين عن إحداث الضّجيج ذاته مع قيمة العدل؟ مع أنّ العدل هو الذي يحقّق الحرّيّة الحقيقيّة، وليس الفوضى الخلّاقة المدمّرة.. إن بصائر القرآن المجيد تقدّم لك الأولويّات الحقيقيّة.. ولقد خسر الذين يعمون عنها.. فانظر كم يستغرق المفكّرون للوصول إلى بعض أنوارها، فهاهو (ول ديورانت) يقول: «في شبّابي كنت أهتمّ كثيراً بالحرّيّة، وكنت أقول: إنني مستعد أن أموت من أجل حرّيّتي؛ ولكنني في كهولتي أصبحت أهتمّ بالنّظام قبل الحرّيّة.. فقد توصّلت إلى اكتشاف عظيم يثبت أنّ الحرّيّة هي نتاج النّظام»^(١).

فالطّامّة الكبرى التي حلّت بالأمة الاستبداد وبقية المشكلات انعكاسات لها، والمدخل الحقيقيّ لنهوض الأمة توسيع هامش الحرّيّة لتمتلك قرارها، وبعد ذلك بدافع من هويّتها ستقيم النّظام الإلهيّ العادل في حياتها.

ومن أهمّ المقترضات العملية لهذه الرّكيزة: تقرب البطانة الصّالحة العادلة المعينة؛ لتكون الهيئة الاستشاريّة الناصحة بصدق لكلّ فرد، مهما صغرت مسؤوليّاته، وهذا البطانة ينبغي أن تكون ممّن يُذكّر بالله -تعالى مجّده- وبحقوق عباده، فقد روى الأوزاعي رحمّه الله أنّ عمر بن عبد العزيز رحمّه الله قال لجلسائه: «من صحبني منكم، فليصحبني بخمس خصال: يدلّني من العدل ما لا أهتدي إليه، ويكون لي على الخير عوناً، ويبلغني حاجة من لا يستطيع

(١) ينظر: موسوعة نور الحكمة، د جهاد علي بني بكر، دار الكتاب الثقافي (ص: ٢٧٤).

إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحداً، ويؤدّي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس، فإذا كان ذلك، فحيّهاً، وإلا فقد خرج من صحبتي والدُّخُولُ عَلَيَّ»^(١)، وقال أيضاً لمزاحم مولاه: «إن الولاة قبلي جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيناً على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأني عنها، أو فعلاً لا تحبّه، فعِظْني عنده، وأنّهني عنه»^(٢)، والميزان يعني إنشاء المؤسّسات التي تقيم العدل، كالقضاء المستقلّ، ومؤسّسات الرّقابة، والمحاسبة، ومؤسّسة الحسبة والمتابعة.

الرّكيزة الرّابعة: ﴿الحديد﴾ (السُّلْطَةُ التَّنْفِيزِيَّةُ وَالقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ وَالْأَمْنِيَّةُ):

والحديد يشير إلى كلّ الصّناعات الثّقيلة، ومنها: صناعة السّلاح، والعمل على تكوين القوّة العسكرية والأمنيّة؛ فقد ذكر الله تعالى ذكره الحديد فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والبأس القوّة، والمنافع متعدّدة في جميع المجالات، ويدخل فيها حفظ النّظام، وحراسة الأمن، وجلب المنافع العامّة للناس، وتبادل المصالح الاقتصاديّة.. وهل يوجد ذلك إلا بناء على الاستقرار المعيشيّ؟

ذَكَرُ ﴿الحديد﴾ إشارة واضحة إلى المؤسّسات التّنفيذية والعسكرية والأمنية، الحامية للقوتين السّابقتين (قوّة الكتاب العلميّة والتّشريعيّة، وقوّة الميزان العدليّة).. إلا أن ذلك لا يتمُّ وَفْقَ الظُّلْمِ، والبطش، بل وَفْقَ منهج كتاب الرّحمة للعالمين سلماً، وحرّاً.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٣٣٦).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٣/ ٦٢).

۱۲۳

تَوْحُّشُ الْقُوَّةِ، وَتَكْوِينُ مَفْهُومِ أَمْرَاءِ الْحُرُوبِ، كَمَا حَدَثَ مَعَ (شَاوِشِيَسْكَو) الرَّئِيسِ الْأَسْبَقِ لِرُومَانِيَا، وَمَا زَالَ يَحْدُثُ فِي بِلَدٍ مِثْلِ الْيَمَنِ.

- وَاجْتِمَاعُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مَعَ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالنَّظَامِ الدُّسْتُورِيِّ وَالْقَانُونِيِّ، دُونَ وَجُودِ رَكِيزَةِ مِيزَانِ الْعَدَالَةِ، يُؤَدِّي إِلَى ظُلْمٍ أَكْبَرَ، يَعْتَمِدُ عَلَى الْعِلْمِ، كَمَا حَدَثَ مَعَ قُنْبُلَتِي (هِيروشيما) وَ(نَاجَازَاكِي) فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَمِثْلُهُ انْفِرَادُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مَعَ الْكِتَابِ الَّذِي يَغْلُو فِيهِ أَهْلُهُ لِيَصْبَحَ مَشْرَعًا لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْإِجْرَامِ مَا دَامَتْ صَادِرَةً عَنْ قُوَّةِ السُّلْطَةِ فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ عِنْدَمَا غَلَوَا فِي دِينِهِمْ، وَقَالُوا عَلَى اللَّهِ غَيْرَ بِالْحَقِّ الْحَقِّ، ثُمَّ أَحْرَقُوا مُخَالَفِيهِمْ، وَمِثْلَهُمُ الْخَوَارِجُ حَيْثُ غَلَوُوا فِي دِينِهِمْ، وَاسْتَخْدَمُوا قُوَّتَهُمْ لِقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ.

- وَانْفِرَادُ مِيزَانِ الْعَدَالَةِ عَنِ الْعَامِلِينَ الْآخَرِينَ يُؤَدِّي إِلَى الْانْفِلَاتِ وَالْجَهْلِ؛ لِعَدَمِ وَجُودِ الضَّبْطِ الْعَسْكَرِيِّ وَالْقَانُونِيِّ وَالْأَسَاسِ التَّشْرِيعِيِّ وَالْإِيمَانِيِّ الدَّافِعِ لِتَطْبِيقِ مَقْتَضِيَّاتِ الْعَدْلِ.

الْمِيزَانُ دُونَ وَحْيِ الرَّحْمَنِ تَبَيَّنَ، يَقْلِبُ الْحَسْنَ قَبِيحًا وَالْقَبِيحَ حَسَنًا، وَيَغَيِّرُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، وَخُلُقَهُ.

إِنَّهُ جَمَالُ الْقُرْآنِ وَإِعْجَازُهُ الَّذِي جَمَعَ الرِّكَائِزَ الثَّلَاثَ؛ لِتَشَكُّلِ صِمَامِ أَمَانٍ لَا اسْتِقْرَارَ الْمَجْتَمَعَاتِ.

التَّرتِيبُ بَيْنَ الرِّكَائِزِ الْأَرْبَعِ:

مَا الْحِكْمَةُ مِنْ مَجِيءِ الرِّكَائِزِ وَفَقَّ هَذَا التَّرتِيبِ الْمُدْهَشِ: الْبَيِّنَاتُ ثُمَّ الْكِتَابُ، ثُمَّ الْمِيزَانُ، ثُمَّ الْحَدِيدُ، مَعَ اعْتِرَافِنَا بِأَنَّ الْوَاقِعَ لَا تَفِيدُ التَّرتِيبَ لَكِنَّا لَا تَمْنَعُ مِنْهُ، وَالْأَصْلُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ وَفَقَّ تَرْتِيبَ مُحْكَمٍ؟

الجواب: تشرق عليك الأنوار القرآنية حين تتدبر الترتيب بين الكلمات، وتبحث عن حكمتها، فقد جاء الترتيب وفق الوجود الطبيعي، فإن الرسول يأتي بالبينات أولاً ليثبت صدق رسالته مثل موسى عليه السلام، ثم ينزل عليه الكتاب ليسوس الناس به، ثم ينبع من الكتاب التشريعات الكفيلة بإقامة العدل، وإعطاء القسط لأصحابه، ثم لا بد من وجود القوة العسكرية الحامية.

ولم يختلف هذا الترتيب إلا في حالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما قدمته مما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم حيث جعل بيئته كتابه.

وكذلك جاء الترتيب ليبين ما يلجأ إليه عند وجود الخطر.

فاضرب لذلك مثلاً هنا؛ إذ ترى أن الله -جل مجده- ذكر (البينات) أولاً؛ لأنها الأساس الذي يثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ويبرهن أن الرسالة من عند الله عز وجل، فحقها أن تأتي في البداية؛ ولذا قال صالح عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ومثله قال شعيب عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وحرص موسى عليه السلام على ذكر ذلك في أول كلامه مع فرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وبدونها يمكن للأقوام الانتهاض للاعتراض، كما فعل قوم هود عليه السلام فقالوا: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣].

وهنا ملمح دعوي تربوي نستشفه من هذه الأولوية، وهو أن على المصلحين أن يبنوا الثقة -أولاً- في نفوس المدعوين، فهي مقدمة لا بد منها قبل ممارسة الأدوار الدعوية، كما أنها توفر جهوداً وأوقاتاً، وتختصر عليهم مراحل ومسافات في مسيرتهم الدعوية الفردية والجماعية.

وذكر الله ﷻ الكتاب ثانياً: لأنه بعد أن يثبت صدق الرسول بالبيّنات، ينتظر الخلق منه أن يبين لهم ما أراد الله ﷻ منهم، وذلك يكون من خلال الكتاب، الذي فيه التبيان، والمنهج المتبع الملتزم، وفيه تفصيل لكل ما يتعلق بأمور الحياة سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وفيه الهدى، والرحمة، والبشرى ليقوم المجتمع ناهضاً مزدهراً، يجد المتاع في الأرض إلى الحين الذي ينتقل فيه إلى منازل الأولى في الجنة - إن شاء الله تعالى - ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وينشق عن الكتاب: القوة العلمية المستنبطة من الكتاب، والتي ينبغي أن تقدّم للعالم في قالب: (الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتّي هي أحسن).

وذكر الميزان ثالثاً لحكم بديعة منها: وجود علاقة متكاملة بين الكتاب، والميزان، فكلاهما لا يستغني عن الآخر: فأما احتياج الميزان للكتاب، فقد قال الله - جلّ شأنه -: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وأما احتياج الكتاب للميزان فقد قال الله ﷻ: ﴿لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، فالميزان لا يكون إلا وفق الكتاب، فهو الذي يحدّد كميّة الوسطية والخيار والعدالة، أو الغلوّ والجفاء والطغيان، وليطبّق المجتمع الكتاب دون غلوّ، أو جفاء، فالميزان هو التّطبيق العمليّ للتّوازن، الذي قرّره الكتاب، ويمثّل الميزان خير تمثيل تطبيقيّ سيّد الأنبياء وخليل ربّ الأرض والسّماء ﷺ، مما نقله أزواجه - رضي الله عنهن - داخل بيته، ونقله أصحابه ﷺ.

خارج بيته، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك، فقال: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ»^(١).
وتوسط الميزان بين الكتاب والحديد؛ ليكون الميزان أداة الموازنة بين القوة العلمية والدعوية، المأخوذة من الكتاب، والمقدمة بالأسلوب الحسن، وبين القوة الأمنية والعسكرية، المأخوذة من الحديد الذي يحمي المنهج الإلهي وحملته من إجرام المجرمين واعتداء المعتدين.

وذكر الله ﷻ الحديد رابعاً لحكمٍ بديعةٍ، منها:

أن الأساس في دعوة الرُّسل وأتباعهم من بعدهم هو الكتاب، الذي يهدي البشرية لأقوم طريق، ولا بدَّ من التعامل فيه وفق الميزان، ولكن أتباع الكتاب عرضة للإبادة أو الضلال، عندما يعتدي عليهم المعتدون: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝﴾ [الكهف: ٢٠]، كما أن الكتاب عرضة للتَّحريف والتَّبديل من قساة القلوب المجرمين، وحلفائهم من المنافقين المتآمرين، فكان لا بدَّ من القوة الأمنية العسكرية الحامية للكتاب وحملته، ولتكبح جماح الغالين، ونزوات الجفاة الفاسقين، وتآمر المعتدين مع المنافقين؛ فالحديد يلجأ إليه أخيراً بعد إصرار المعتدين على اعتدائهم، وإلا فالشريعة جاءت تدعوهم وفق مبدأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝﴾ [الغاشية: ٢١]، [٢٢].

كما أن الأقوام في مواقفهم من الحقِّ المضمَّن في البيِّنات والكتاب أصناف، فمنهم من يقبله، ويرضى التعامل به، ومنهم يردُّه، ولا يسلم بالاحتكام إليه، ولذا جاءت الآية شافية

(١) أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه ابن حجر في تلخيص الحبير (١١٨/٢)، وحسنه أيضاً: الأرناؤوط والألباني.

للنَّوعين، فللعقلاء الأسوياء البينات والكتاب والميزان، وللأشقياء المجرمين الحديد بقوَّته
وسطوته، وما أصدق قول أبي تمام:

فما هو إلا الوحي أو حدُّ مرهفٍ تزيُّلُ ظُباهُ أخدَعِي كُلَّ مائلٍ
فهذا دواءُ الدَّاءِ من كُلِّ عاقلٍ وهذا دواءُ الدَّاءِ من كُلِّ جاهلٍ^(١)

ويقول شوقي:

قالوا غَزَوْتُ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاؤُوا لِسَفْكِ دَمٍ
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلَامٍ وَسَفْسَاطَةٌ فَتَحَتِ السَّيْفُ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ تَكَفَّلَ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّهِ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ ذَرَعًا وَإِنْ تَلَقَّهِ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمُ^(٢)

فلا بدَّ من القوَّة الحديدية التي تحمي السُّبُل، وتحفظ الأمن، فتحقق المنافع للنَّاس، لذا
قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويستنبط ابن تيمية رحمته الله من ذلك قاعدته الرائعة: «فَقَوَامُ الدِّينِ بِالْكِتَابِ الْهَادِي، وَالسَّيْفِ
النَّاصِرِ» ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] ^(٣).

وفصل بين الكتاب والميزان وبين الحديد بإعادة: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾:

لأنَّ (الكتاب) هو الأصل، ولذا لم يؤمر النبي صلَّى الله عليه وآله باللُّجوء إلى القوَّة في دفع صولة الظُّلم
إلا بعد إصرار المجرمين على غيِّهم، فاضطرَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وأصحابه رضي الله عنهم للحديد، لاستخدامه

(١) ديوان أبي تمام، (ص: ٢٤٩)، و(المرهف): السيف، (ظباه): حدوده، (الأخدعان): عرقان في المحجبتين.

(٢) أبيات من قصيدة (نهج البردة)، لأحمد شوقي.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢٣٢).

قُوَّةَ رَدْعٍ لِحِمَايَةِ الْكِتَابِ وَحَمَلَتِهِ، ولنشر نوره ورحمته في العالمين فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ رُءُوسُهُمْ فَيُكْفَرُونَ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

وربما تسأل: هل من المفسرين من استنبط مثل هذا الاستنباط في اقتضاء الكتاب والميزان والحديد وجود المؤسسات المتعددة التي تقيم المجتمعات؟

الجواب: نظرت في أقوال المفسرين في هذه الآية فرأيت النسفي رحمه الله أشار إلى شيء من هذه البصائر النورانية التي فاضت من سورة الحديد، فجاء في "تفسيره": ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج، والمعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الوحي ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، ولا يظلم أحدٌ أحداً ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم، ومعاشهم، وصنائعهم، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها، أو ما يعمل بالحديد.

ثم قال: «والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة أنَّ الكتاب قانون الشريعة، ودستور الأحكام الدينية، يبين سبل المراشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان.

واستعمال العدل، والاجتناب عن الظلم، إنما يقع بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي، والتعادل، وهي الميزان.

ومن المعلوم أنَّ (الكتاب) الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعية للتعامل بالسوية، إنما تحضُّ العامة على اتباعهما بالسيف، الذي هو حجة الله ﷻ على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد. وهو (الحديد) الذي وصف بالبأس الشديد^(١).

وفي هذه الآية المباركة من سورة الحديد ذكرٌ لسنة كلية، يتمُّ من خلالها نصره ما أراد الله ﷻ شيوعه في الأرض من العدل، والإحسان، ممَّا يسع الحوادث المتجددة، ويعيد للمستضعفين الآمال المتبددة لو أنَّهم أقاموا ما أنزل إليهم.

وإنِّي أظنُّه مناسباً أن أذكر سبب كتابة أصل هذه الكلمات؛ وارتباطها بسنن الله ﷻ في الأرض؛ إذ استعرض الرئيس اليمني علي عبد الله قوَّاته، في عرض عسكري مهيب، وفي كلمته التي ألقاها بتلك المناسبة أكدَّ على أنَّ صِمام الأمان للبلد والوحدة اليمنية إنما هي القوَّات المسلحة، وكرَّر ذلك، وكنت حينها معيناً في جامع الصَّالح خطيباً وإماماً، ورأيت الاختلال في الفكرة التي انطلق منها الرئيس خصوصاً مع شيوع المظالم في الواقع اليمني، فكتبت حول (صِمام الأمان) وذكرت أنَّها تعود لهذه الرُّكائز المذكورة في سورة الحديد، وألححت في كتابتي على ضرورة أن يعضد القضاء العادل المستقل، والمؤسسات الرقابية لدور القوَّات المسلحة، وكلمت بعض خاصَّته في ذلك حين لم يتيسر اللقاء به على عجل، فنقل رسالتي إليه، وربما لم يؤخذ الكتاب بقوة، ولم يُذكر ما فيه، فانظر كيف عدَّت العاديات على ذلك البلد المستقر، فأصبح تأكله الكلاب الخارجية، وتعوي فيه الذئاب الداخلية، والله المستعان.

(١) تفسير النسفي (٤/ ١٨٠).

الأنموذج السَّابع

سُنَّةُ إِبْطَاءِ النَّصْرِ، وتأخُّر القوارع الماحقة للقوى الظَّالمة

يضع الأبرياء والغافلون والملحدون باختلاف أهدافهم هذا السؤال:

الظلم سبب الهلاك العاجل .. فلماذا تتأخَّر العقوبة؟

لربَّما ظننت أن وقوع التَّأخُّر لا بدَّ أن يكون حتميًّا بناءً على المقدمات .. أليس هذا ما تمَّ تقريره في سُنَّةِ السَّبِيَّةِ التي خضنا غمارها فيما سبق؟ فلماذا تتأخَّر عقوبات الظَّالَمين؟ بلى، ولقد سبق القول في ذكر خصائص السُّنَنِ الإلهيَّة أن تكون مطَّردة منتظمة عامَّة ثابتة، وعبرَ بعضهم عن ذلك بأنَّها قطعيَّة الحجَّة .. وجعلوا ذلك كسُنَّة: الشَّيْع يترتَّب على الأكل بالنَّسبة للجائع، وسُنَّة: الخوف يقوم على إحداث الرُّعب بالنَّسبة للغافل .. الكلام صحيح، لكنَّك ينبغي أن تراعي مبدأ التَّقابل في السُّنَنِ الإلهيَّة، فقد تتقابل سُنَّتَان، فتتعطَّل نتيجة إحداهما نظراً لقوَّة الأخرى، فسُنَّة الشِّفاء تقوم على طلب الدَّواء، لكنَّ الدَّواء ربَّما تعطلَّ مفعوله، إذا ضعف المحلُّ القابل، فلا يؤثِّر عليه الدَّواء.

تعال بنا ننظر في ذلك أمام قضية من أعظم قضايا العالم: إنها قضية يتلهَّف لها البرَّاء والمستضعفون في الأرض: سُنَّة نزول العذاب على قوى الظُّلم والاعتداء والإجرام.

ذكر الله ﷻ هذه السُّنَّة الكونيَّة في سورة غافر، ثم ختمها بقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥].. لقد ذكر الله -جلَّ مجده- نزول العذاب على الظَّالَمين في سورة الكهف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [يونس: ١٣، ١٤]، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٩]، ﴿فَقَطَّعَ ذَايِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿٣٣﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢]... والآيات في هذا المعنى كثيرة، عظيمة الوقع، لها هيبه ورهبة.

والعذاب النازل على الظالمين؛ إمَّا أن يكون دنيويًا، وإمَّا أن يكون آخرويًا، وقد يكون جزئيًا إنذاريًا، وقد يكون كليًا مستأصلًا.. قد يكون عاجلاً، وقد يكون آجلاً..

لكنك تسمع تساؤلًا يتكرر من الحائرين المستغيثين برَّبِّ العالمين: لماذا لا ينصر الله ﷻ الضُّعفاء، ولا يغيث الجوعى، ولا ينجد المرضى، ولا يساعد الصُّغار الخائفين؟ لماذا يترك النساء الثكالى عندما يدهمهم الذُّناب، وتأكلهم وحوش الأرض؟

ها أنت ذا ترى كيف دمَّرت المساجد في العراق والشَّام واليمن وبورما.. ها أنت ذا ترى كيف يتَّمُّ التَّلَاعب بدماء الأطفال في محافل الفتوى، وفي الاجتماعات القدرة لما يسمى المؤسَّسات الدَّولِيَّة.. ها أنت ذا ترى كيف يُحرق الأبرياء ويضحك القتلة.. بل يقدمون التقارير المفتخرة بإنجازاتهم في جرائمهم التي يرتكبونها ضدَّ البشريَّة.. أفحسبت أن الله ﷻ غافل عما تقوم قوى الإجرام في العالم؟



لا تتعجّل الحكم؛ فقد تتخلف سنة نزول العذاب على الظالمين فيما يرى الرائي.. فيتوجّع وربّما طرفته أوهام الشكّ.. فذكره أنه لم يحطّ علماً بالجوانب المختلفة لحقيقة الأمر.. ربّما لم ينتبه لوقوع التّقابل بوجود سنة أقوى، أو أشدّ فعالية.. ربّما لم يلتفت لموجب حدّ منع من ترتب الآثار على الأسباب في السنة الأولى.

موانع نزول العذاب العاجل على الظالمين والمعتدين:

موانع نزول العذاب العاجل على الظالمين والمعتدين

المانع الأول	المانع الثاني
عدم نزول العذاب المستأصل على سبيل خرق العادة بعد موسى عليه السلام	وجود نبي يعيش مع القوم المكذبين، دون أن يفارقهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]
المانع الثالث	المانع الرابع
الاستغفار غير المتلاعب به: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33]	عدم تزئيل المؤمنين من ديار الظالمين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ...﴾ [الفتح: 25]
المانع الخامس	المانع السادس
وجود العدل البيني في الجهة الكافرة ويقابله انتشار الظلم في الجهة المؤمنة.	وجود العذاب الجزئي "قارعة حالة" قد يؤخر العذاب الكلي: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: 31]
المانع السابع	المانع الثامن
عدم القيام بالشرط الذي شرطه الله على عباده المؤمنين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ [النور: 55]	عدم القيام بإعمال سنة المدافعة بوجوهها المتاحة: ﴿وَلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]
المانع التاسع	
أن يُخرج الله عز وجل من أصلاب القوى الظالمة من ينصر الحق وأهله.	

يَعْتَذِرُ السَّالِمُ مُقْبِلًا الْحَيَاتِي

فمن الموانع التي تسبب عدم نزول العذاب:



المانع الأول: عدم نزول العذاب المستأصل على سبيل خرق العادة بعد موسى عليه السلام لما سبق ذكره في سنة نقص الأرض من أطرافها.

المانع الثاني: وجود نبي يعيش مع القوم المكذبين -صلى الله على أنبياء الله أجمعين- دون أن يفارقهم؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

المانع الثالث: الاستغفار غير المتلاعب به، كما قال الله -عزَّ شأنه-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وحكى الله تعالى عن قوم يونس عليه السلام أنهم فعلوا نحوًا من ذلك، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وهل يشمل ذلك استغفار الكفار؟

ظاهر الآيات أنه يشملهم، فقد ذكر الله تعالى ذلك مرَّات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

المانع الرابع: عدم تزييل المؤمنين من ديار الظالمين، فوجود المؤمنين يمنع من نزول العقوبة إن لم تشملهم العقوبة لحكمة؛ لقوله تعالى مجده: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

ومقابل ذلك فقد تشمل العقوبة الجميع - مؤمنهم وظالمهم - عندما لا يقوم المؤمنون بجهود حقيقية في إصلاح الواقع بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، أو عندما يريد الله ﷻ - لحكمة خاصة - إهلاك الظالمين الذين تخللهم من ليس منهم، وتوضح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذلك حين روت لنا أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: يُخسفُ بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نيأتهم»^(١).

المانع الخامس: وجود العدل البيئي في الجهة الكافرة ويقابله انتشار الظلم في الجهة المؤمنة:

وهذا المانع من أعظم الموانع، وقد سبق في الأنموذج السابق تقرير أن العدل سبب بقاء الملك، والظلم سبب ذهاب الدولة بغض النظر عن الدين أو الجنس، ومن أبرز أمثلة الظلم البيئي العنصرية الفجة، والطبقية المجرمة؛ إذ ترى التقنين لرفع بعض الفئات على بعض،

(١) البخاري (٢١١٨).

واحتقار فئات ضمن المجتمع تُصَنَّفُ على أنها دون البشريَّة المكرمة في الوعي الباطن لدى بعض المسلمين، ومن ذلك أيضًا: العمالة المهانة عند بعضهم، يتظالمون بينهم.

أترى المسلمين يستنزلون النَّصر على المجرمين الخارجيين، والأعداء
المتربِّصين، بينما هم يظلمون الناس، ويستغلُّون المستضعفين، ويبغون في
الأرض بغير الحقِّ؟

لماذا يحدث اليأس عند بعض الشَّباب المتديِّنين إذا رأوا أن الظَّالَمين لم يعاقبوا؟

الجواب: من أسباب حدوث اليأس، والوقوع في أسْر الإحباط عند الشَّباب المتديِّنين طريقة معالجة موضوع الظُّلم والظَّالَمين، فمن الأخطاء الفكرية الفادحة التي تجتاح الحركات الإسلامية أنَّ الظلم العظيم الذي تقرّفه الأنظمة كافٍ لينصر الله ﷻ الجهة التي تقابلهم.. ثم ترى مقابل الفساد الإداريِّ العظيم في الأنظمة فسادًا إداريًا بحسبه في تلك التَّجمُّعات والمجموعات المقابلة، فيقابل تولية الرَّجل الخطأ في المكان الخطأ في الأنظمة أن تجد الأمر ذاته في الجهات الأخرى التي تزعم مقاومة ظلم الأنظمة، ومقابل العنصريَّة المقيتة في الأنظمة تجد عنصريَّة خفية في الحركات المقابلة، والفارق بين الطَّرفين أمران:

أحدهما: أن مقدار الفساد يختلف حسب مقدار حجم المسؤولية والموارد الماليَّة والإدارية.

وثانيهما: أن فساد الأنظمة أحيانًا لا تسبغ عليه الشرعيَّة الدِّينية في حين أنك تجد فساد الحركات تسبغ عليه الشرعيَّة الدِّينية.. فكيف يتمُّ النَّصر إذن؟

فإذا جمعت إلى ذلك أنَّ النفوس مجبولة على التَّوَحُّش والفرعنة ومحبة الظُّلم إلا أن تقمع فجورها بتقواها، أو يوجد من يقمع عندها ذلك.. هنا تتصور مقدار الظلم الذي ربما يوجد عند من يزعمون مقاومة الظُّلم، ولذا قال المتنبّي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّذَا عَفَّةٌ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلَمُ^(١)

واسمع إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يروي لنا شيئاً يتعجب المرء من صدقه فيه، فعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، أَي: إِمَّا فِي قُوَّتِهِ وَإِمَّا فِي نَسَبِهِ، وَتَصَوَّرَ أَنَّ الَّذِي يُحَدِّثُ هَذَا هُوَ سَعْدُ نَفْسِهِ! فَأَيُّ صَدَقٍ يَفُوحُ مِنْ كَلَامِهِ، وَأَيُّ تَرْكِيزَةٍ تُظْهِرُ الْإِخْلَاصَ مِنْ قَلْبِهِ، وَيَنْقُلُ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وآله أَرَادَ تَرْبِيَّتَهُ، فَقَالَ صلّى الله عليه وآله: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ؟»^(٢).

ربما سألت أو سمعت هذا السؤال كثيراً: لماذا لا تعاقب الدول المستكبرة التي تعيثُ فساداً وإجراماً في حقِّ الدُّول المستضعفة في هذه الأيام؟

لعلك الآن وجدت جواباً، ولنسمع إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه يصف لنا في تحليل دقيق مدهش سُنَنَ البقاء في هذه الدُّول الرُّومِيَّة، ممَّا يوجد عكسه في خصومها من الدُّول المستضعفة، فقد سمع المستورِدَ الْقُرَشِيَّ رضي الله عنه يَحَدِّثُ قَائِلاً: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ». فَقَالَ لَهُ عَمْرُو رضي الله عنه: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ. قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله. قَالَ: «لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ

(١) ديوان المتنبّي (ص: ٥٧١).

(٢) البخاري (٢٨٩٦).



فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمُسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ. وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ^(١).

المانع السادس: وجود العذاب الجزئي "قارعة حالة" قد يؤخر العذاب الكلي، فقد قال

الله -جلّ ذكره-: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ

حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

وممّا يوضح ذلك حديث: «يا معشر المهاجرين: خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن...» وقد سبق.

وهذه السُّنَن والقوانين تنطبق على الكفار والمسلمين، إلا أنه إذا وجد العدل البيني العام عند الكفار قلل من آثار العذاب الحال؛ لتطبيقهم سُنَن العدل فيما بينهم.

يقول المصلح الجزائري البشير الإبراهيمي رحمه الله متأسفاً لحال الأمة وما يصيبها: «إِنَّ التَّارِيخَ أَفْصَحُ مَخْبَرٍ، وَأَصْدَقُ نَاقِلٍ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَحَدَّرْنَا أَنْ نَتَعَرَّضَ لِمَقْتِ اللَّهِ ﷻ بِمَا كَسَبْتَ أَيْدِينَا، وَأَعِذْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ تَمَارَوْا بِالنَّذْرِ.

أقول، ولا نكران للحق، إنّه ما من نقيصة كانت سبباً في هلاك الأمم قبلنا إلا وهي موجودة فينا على اختلاف تقتضيه طبيعة الزّمان والمكان، وإنّ تغافل الإنسان عن عيبه لمن دواعي الغرور، والغرور من دواعي التّمادي في الغي، والتّمادي في الغي من موجبات الهلاك^(٢).

(١) مسلم (٢٨٩٨).

(٢) آثار محمد البشير الإبراهيمي، (١/ ٥٧).

131



وخلجات قلبه. وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفترات جوارحه، وسلوكه مع ربّه ﷻ في أهله ومع الناس جميعاً. ويتوجّه بهذا كله إلى الله ﷻ..

يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، والشرك مداخل وألوان، والتوجّه إلى غير الله ﷻ بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله ﷻ.

وتمكين الدين يتمّ بتمكينه في القلوب، كما يتمّ بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها، فهل وفّى المتعجلون النصر هذه الحقائق ومقتضياتها؟

المانع الثامن: ألا يقوم المؤمنون بإعمال سُنّة المدافعة بوجوهها المتاحة، فتراهم يكتفون بما يمكنهم أن يقدروا على ما هو أكثر منه من وجوه المدافعة، وعندها يقع الفساد في الأرض.

والله ﷻ يؤكّد لنا ضرورة أن يُعمل المؤمنون جهدهم في مدافعة الباطل، وذوده، فيقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ويقول جل مجده: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيَّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ثم يؤكّد الله ﷻ على أن نصره المبين يستحقّه من يبادر إلى البحث عن وسائل النصر، فيقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وهذا مرّدّه عند التّحقيق إلى ما سبق قبل تناوله في سُنّة السّبيّة.

ما حجم المدافعة التي تجب على كلّ إنسان؟

الجواب: يحدّد ابن حزم رحمته الله - أحد مجددي الخير في العالم - ذلك بعبارة نبهة، ويتعجب من تفریط المصلحين في استغلال الفرص المتاحة، وتأزرهم على دفع الباطل بالقدر الممكن، فيقول في رسالته العظيمة "التلخيص في وجوه التلخيص": «فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذمّ جميعهم؛ فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعّه، وما أدري كيف هذا، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا»^(١).

وهو يعني رحمته الله أن المنكر بقلبه لو اجتمع مع أخ آخر له لزادت قوتها، وعظم أثرهما، ثم اجتمع اثنان مع ثالث لآل الأمر إلى ما هو أعلى.. فكيف لو اجتمع المصلحون الذين يكتفون بأن ينكروا تقية أي: بقلوبهم؟

وعقوبات الدنيا يجب أن يستعان على اتقائها بالعلم بسنن الله تعالى في هذا العالم.. فأتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقّف على معرفة نظام الحرب وفنونها، وإتقان آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيّباً، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، كما يتوقّف على أسباب القوّة المعنويّة من اجتماع الكلمة، واتّحاد الأئمة، والصبر، والثبات، والتوكّل على الله تعالى، واحتساب الأجر عنده^(٢).

المانع التاسع: أن يخرج الله تعالى من أصلاب القوى الظالمة من ينصر الحق وأهله:

ألم تر أن الله تعالى أخرج من أصلاب التّار من رفع راية الحقّ إلى اليوم؟

(١) رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣).

(٢) انظر: تفسير المنار، (١/ ١٠٦).

لقد كان أولى المجرمين استحقاقاً لأن يُعَذَّبَ على جرائمه: من آذى الأنبياء ﷺ، ولكننا نجد أن الله الحكيم ﷻ ينزل على نبيه ﷺ قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ [آل عمران: ١٢٨، ١٢٩]، ولقد اقترن نزول هذه الآية بحادثتين عظيمتين ودَّ النَّبِيُّ ﷺ فيهما أن يُنزل سخطه على أعدائه من القوى الوثنية، فيذكره الله ﷻ بهذه الآية، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١)، وفي رواية أخرى سَمَى النَّبِيُّ ﷺ هؤلاء الذين آذوه، واعتدوا على أصحابه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللَّهُمَّ الْعَنِ أَبَا سَفِيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةٍ» فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾، فتاب الله ﷻ عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم (٢).

تصوّر المسألة! لقد كان هؤلاء الثلاثة من أشدّ النَّاسِ عداوةً للنَّبِيِّ ﷺ وكانوا يمثّلون القيادات الوثنية التي يحركها الغضب والانتقام، بل إن هؤلاء الثلاثة جهّزوا جيش القوى الوثنية في أحد التي حدث فيها إيذاء عظيم للنَّبِيِّ ﷺ، ويحكي أنس بن مالك رضي الله عنه أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحَ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٣).

(١) البخاري (٤٥٥٩).

(٢) الترمذي (٣٠٠٤)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

(٣) مسلم (١٧٩١)، ومعنى يسلّط: يقطع نزول الدّم ويزيله.

ماذا يعني هذا المانع؟

الجواب: يعني ألا يدخر المصلحون جهداً في مخالطة الصّالحين والفاستدين: إعانة للصّالح على صلاحه، ودفعاً لفساد الفاسد أو تقليل فسادهم، كما يعني هذا أن يجتهد الصّالحون في محاول استنبات الصّلاح في بيوت الفساد دون يأس أن يخرج من الظّالم عادل، ومن المجرم مسلم، ومن الفاسق تقيّ باراً.

فعلى الرّغم من هذه المواقف المخزية المؤذية لهذه العصبة القرشية.. وعلى الرّغم من جرائم الحرب التي ارتكبوها في حقّ النّبي ﷺ والأبرياء فإنّهم لم يبرحوا حتى أسلموا رغم طول تلك العداوة وضراوتها.

ويقرّر النّبي ﷺ ذلك تقريراً مدهشاً يجعلنا نعيد النّظر في استراتيجيتنا الدّعويّة والسّياسيّة، فيقول: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَٰذَا الشَّانِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهِينِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِهِ»^(١).

فقوله ﷺ: «معادن» عنى «أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن، وهو الشّيء المستقرّ في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً، وكذلك النّاس. قوله ﷺ: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام» وجه التّشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغيّر صفته، فكذلك صفة الشّرف لا تتغيّر في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمرّ شرفه»^(٢).

(١) البخاري (٣٤٩٤).

(٢) فتح الباري (٥٢٩/٦).

إن ذلك يورثنا مراجعة لأنفسنا في التعامل مع الفئات المختلفة؛ إذ يمنعنا أولاً من اليأس من إسلام أحدٍ وصلاحه مهما كانت شدته ضدَّ دين الله ﷻ، سواء أكان من الفاسقين أم كان من المحاربين للدين ممن ليس من أهله.. فلم تيأس منه، ورسولك ﷺ يقول: «وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّانِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً»؟ وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد كان من أشدَّ النَّاسِ عداوةً للإسلام، فما هو إلا أن هدى الله ﷻ قلبه حتى أعزَّ الله ﷻ الإسلام به.. تذكر كيف كانت شدته على الإسلام وأهله حتى يأس بعض المسلمين من إسلامه، فعن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمِّه ليلى قالت: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشدَّ الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنا على بعيري، وأنا أريد أن أتوجه، فقال: أين يا أمَّ عبد الله؟ فقلت: آذيتونا في ديننا فنذهب في أرض الله لا نؤذى [في عبادة الله]، فقال: صحبكم الله. ثم ذهب فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر، رضي الله عنه فقال: ترجين أن يسلم، [فقلت: نعم. فقال: لا والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب^(١)، فما أيس النبي ﷺ حتى من أبي جهل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبُّهما إلى الله ﷻ عمر بن الخطاب رضي الله عنه»^(٢).

ولله دُرُّ شاعر النبل حينما أنشد في عمرَيْته المشهورة:

قد كنتَ أَعْدَى أَعَادِيهَا فَصِرْتَ لَهَا بِنِعْمَةِ اللَّهِ حِصْنًا مِنْ أَعَادِيهَا

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢٠٥٧٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٤٠): رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح، وأخرجه في فضائل الصحابة (٣٧١)، وقال المحقق: «إسناده حسن».

(٢) أحمد (٥٦٩٦) قال الأرنؤوط: «رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير خارجه بن عبد الله الأنصاري»، وصححه الألباني في تعليقه على الترمذي (٣٦٨١).

وَلِلْحَنِيفَةِ جِبَارٌ يُوَالِيهَا
حَتَّىٰ انْكَفَأَتْ تُنَاوِي مِنْ يُنَاوِيهَا
فَزَلْزَلَتْ نِيَّةً قَدْ كُنْتَ تَنْوِيهَا
قَوْلُ الْمُحِبِّ الَّذِي قَدْ بَاتَ يُطْرِيقُهَا
عَنْ كَاهِلِ الدِّينِ أَثْقَالُ يُعَانِيهَا
لَهَا الْقُلُوبُ وَلَبَّتْ أَمْرَ بَارِيهَا
وَأَنْتَ فِي زَمَنِ الصَّدِيقِ مُنْجِيهَا^(١)

فانظر أي عبقری خرج نیر العالم بنور الله ﷻ من ثوب ذاك الرجل الشدید العداوة للإسلام وأهله، ولقد ضرب لنا النبی ﷺ القدوة العظيمة في الصبر على من آذاه من الأقوام، والنظر إلى المستقبل المشرق في خروج أهل العدل من أصلاب الظالمين، فسألت عائشة ؓ زوج النبی ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجِبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل ﷺ، فناداني، فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت

(١) ديوان حافظ إبراهيم (ص: ١٧٩).

أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ ﷻ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١).

وإنه لتقرُّ عينك أن تسمع هذه الكلم الجوامع من تأملات المفسر المخبت ﷺ في إبطاء النصر على المؤمنين؛ إذ يقول بملء فم الإشراق القرآني:

«وَالنَّصْرُ السَّريع الذي لا يكلف عناء، والذي ينزل هيئًا لينا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور؛ لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه، أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة، وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر، ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم، ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف، والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة، والتنسيق بين الاتجاهات في ثنایا المعركة وقبلها وبعدها، وكشف نقاط الضعف ونقاط القوة، وتدبير الأمور في جميع الحالات .. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة، وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره ممّا يعلمه الله ﷻ .. جعل الله ﷻ دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم، ولم يجعله لقيّة تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

(١) البخاري (٣٢٣١).

والنَّصْرُ قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا: ربُّنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله ﷻ.

قد يبطئ النَّصْرُ لأنَّ بنية الأُمَّة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتمَّ بعدُ تمامها، ولم تحشد بعدُ طاقاتها، ولم تتحفز كلُّ خلية وتتجمَّع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النَّصْر حينئذ لفقدته وشيئاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!

وقد يبطئ النَّصْر حتى تبذل الأُمَّة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوَّة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هيئاً رخيصةً في سبيل الله ﷻ.

وقد يبطئ النَّصْر حتى تجرَّب الأُمَّة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أنَّ هذه القوى وحدها بدون سند من الله ﷻ لا تكفل النَّصْر.

والإسلام مع هذا لا يعدُّ القتال غاية لذاته، ولا يأذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والمودعة .. إنَّ السَّلام هو غاية الإسلام كما تقرَّر آياتٌ أخرى كثيرة في القرآن. ولكنَّه السَّلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولابغي ولا عدوان. أما حيث يقع البغي والعدوان على أيِّ مقوِّم من مقوِّمات الإنسانيَّة الفاضلة؛ كحرِّيَّة العقيدة، وحرِّيَّة العبادة، والعدل في الحكم، والعدل في الجزاء، والعدل في توزيع المغانم والمغارم، والحقوق والواجبات، واستقامة السُّلوك الفرديِّ والجماعيِّ على حدود الله ﷻ.. أما حيث يقع البغي على أيِّ مقوِّم من هذه المقوِّمات في آيَّة صورة من الصُّور، سواء وقع من فرد على فرد، أو من فرد على جماعة، أو من جماعة على فرد أو جماعة، أو من دولة، على دولة... فالإسلام لا يرضى حينئذٍ بسلام يقوم على هذا العدوان.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ﷻ، وهي تعاني وتبذل ولا تجد لها سندًا إلا الله ﷻ، ولا متوجِّهًا إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عند ما يتأذَّن به الله ﷻ. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله ﷻ.

وقد يبطئ النصر لأنَّ الأمة المؤمنة لم تتجرَّد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ﷻ ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحقِّقه، أو تقاتل حميَّة لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. كما قد يبطئ النصر لأنَّ في الشرِّ الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقيَّة من خير، يريد الله ﷻ أن يجرِّد الشرَّ منها ليتمخَّض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرَّة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأنَّ الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للنَّاس تمامًا. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعدُ بفساده وضرورة زواله، فتطلُّ له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله ﷻ أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للنَّاس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأنَّ البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقرُّ لها معها قرار، فيظلُّ الصراع قائمًا حتى تنهيا النفوس من حوله لاستقبال الحق الظَّافر، ولاستبقائه! من أجل هذا كله، ومن أجل غيره ممَّا يعلمه الله ﷻ.

قد يبطيء النصر، فتتضاعف التّضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله ﷻ عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية...».

«وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين وجعله لهم حقاً، فضلاً وكرماً. وأكّده لهم في هذه الصّيغة الجازمة التي لا تحتمل شكاً ولا ريباً. وكيف والقائل هو الله ﷻ القويّ، العزيز، الجبّار، المتكبرّ، القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. يقولها سبحانه معبرة عن إرادته التي لا تردّ، وسُنَّته التي لا تتخلف، وناموسه الذي يحكم الوجود.

وقد يبطيء هذا النصر أحياناً - في تقدير البشر - لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ﷻ، ويقدّرون الأحوال لا كما يقدرها الله ﷻ، والله ﷻ هو الحكيم الخبير، يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه، وفَقْ مشيئته وسُنَّته.

وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر، وقد لا تتكشف، ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصّحيح، ووعد القاطع واقع عن يقين، يرتقبه الصّابرون واثقين مطمئنين».

الأنموذج الثامن

سُنَّةُ الاستدراج

يذكر الله -جلَّ ذكره- هذه السُّنة الهائلة الخفية في معرض التحدي المذهل لمن يغطي الحقائق أمام العالم.. يذكرها لمن يتلاعب مزهواً مغروراً بالوسائل الحقيقية لإصلاح الأرض، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، ويقول علا شأنه: ﴿قَدَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٠﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٩١﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].. فما سُنَّة الاستدراج؟

تعريف سُنَّة الاستدراج:

اسمع معي إلى هذه التعريفات المخيفة للاستدراج؛ لتعرفنا إلى حقيقة هذه السُّنة: الاستدراج: أن تبتعد من رحمة الله تعالى رويداً رويداً، وتقترب من عقابه تدريجياً. وهذا التعريف ليس بسديد، (ليس جامعاً مانعاً) فإنه يشمل العاصي المجاهر العارف بعصيانه وعقوبته.

وقيل: الدُّنُو إلى عذاب الله ﷻ بالإمهال قليلاً قليلاً.

وهذا تعريف بأداة من أدوات الاستدراج، وهي الإمهال.

102

مراحل ستة الاستدراج السبع

- مرحلة [1]**
الإرسال الإنذاري النبوي إلى الظالمين الذي يقوم به الأنبياء أو أتباعهم:
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 42]
- مرحلة [2]**
التعذيب الجزئي العابر، والمصائب المحدودة للمعاندِين:
﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]
- مرحلة [3]**
عدم التأثير الشعوري بالعذاب الجزئي، وتزيين قبائح الأعمال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ لُحُوبُهُمْ رَزَقْنَاهُمْ لَعَلَّهُمْ الشَّاكِرُونَ﴾ [الأنعام: 43]
- مرحلة [4]**
نسيان التوجيهات الإلهية، وعدم تطبيق الدستور الرباني:
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: 44]
- مرحلة [5]**
الفتح الاستدراجي، وتحقيق بعض المنجزات الدنيوية:
﴿فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 44]
- مرحلة [6]**
الفرح البطر المعروض عن التذكير:
﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: 44]
- مرحلة [7]**
الأخذ الشامل المستأصل: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ نَقْطَعُ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَآلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: 44-45]

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

مراحل سنة الاستدراج السبع:

ذكر الله ﷻ مراحل الاستدراج مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٥]، وتفصيل هذه المراحل كما يأتي:

المرحلة الأولى: الإرسال الإنذاري التبشيري إلى الظالمين الذي يقوم به الأنبياء ﷺ أو

أتباعهم عسى أن يوقظوا الغافلين: فيذكر الله -تعالى ذكره- هذه المرحلة قائلاً: ﴿وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٤٢]:

لماذا أرسلهم؟ لم يذكر ذلك، لكنه جلَّ شأنه بيّن المهمة الرسالية العظمى لجميع الرسل ﷺ في إنقاذ البشرية، فقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد تسأل: ما الحكمة من تقديم الإنذار على التبشير في كثير من الآيات؟

الجواب: نجد الإنذار مقدّمًا غالبًا على التبشير، أو منفردًا عنه؛ لأنه يقتضي التبشير ويتضمّنه، فهو يدلُّ على التّأمين والحماية لمن اتّبع ما يقتضيه الإنذار، ولأنَّ الإنذار يناسب الغفلة الغليظة التي ترزح تحتها البشرية، والإنذار يتضمّن التّخويف من عواقب رفض الاستجابة، فمن المواضع التي ذكر الله ﷻ فيها الإنذار ما يأتي:

(١) ذكر أن مهمّة الإنذار إنقاذ البشرية، لكنه لا يفيد مع من يغلق عقله وقلبه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦].

٢) والإعراض عن الإنذار سمة من يريدون تغطية الحقائق الواضحة: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

٣) والقرآن يمثل مركز الإنذار للبشريّة: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٤) والإنذار يُوجّه للعالم، لكنّه يتخذ وضعاً خاصّاً مع الذين يحسبون حساب اللقاء القادم ربّهم ﷻ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

٥) والإنذار مهمّة الرّسل ﷺ لتذكير الغافلين عن توحيد ربّ العالمين ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

تلكم بعض المواضع التي انفرد فيها الإنذار عن التبشير.. نعم! لقد جاء التبشير قبل الإنذار في مواطن، منها: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

وبيّن النّبي ﷺ الطّبيعة الإنذارية لرسالته؛ إشفاقاً على البشريّة أن يجتاحها الفساد، ويقضي عليها الهوى، والكبر، والعناد، فعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ ﷻ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْنَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ، فَأَذَلَّجُوا عَلَىٰ مَهْلِهِمْ، فَنَجَّوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ،

فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَاجْتَا حَهُمْ»، زاد مسلم ﷺ: «فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمِثْلُ مَنْ عَصَانِي، وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(١).

وإذا كان للندارة حقُّ التغليب والأولوية في الخطاب الرساليِّ فإنَّ للتبشير موقعه، وتأثيره في بعض النفوس أكثر من الإنذار، وربما كان أولى في حقها منه، ولذا نجد ربَّنَا ﷻ يقول متلطِّفاً ممتناً على عباده: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

المرحلة الثانية: التعذيب الجزئي العابر، والمصائب المحدودة للمعاندين، ويبصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذكره: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]:

فإن قلت: ما نوع الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾؟

الجواب: الفاء تسمَّى فاء الفصيحة، وهي تُفصح عن كلام محذوف، والتقدير: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فكفروا أو فأبوا أو فما استجابوا، فأخذناهم بالبأساء والضراء. والبأساء: هي البؤس في المعيشة، والضراء: الضُرُّ في البدن. وربما تسأل: هل هذا التعذيب جزئيٌّ أم كليٌّ استتصاليٌّ؟

الجواب: تعذيب جزئيٌّ؛ لأن الله ﷻ بيَّن ذلك لاحقاً.

ستقول: ما الهدف من هذا التعذيب الجزئيِّ؟

يجيبك الله ﷻ على ذلك قائلاً: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، فالتعذيب بالبأساء والضراء كان تعذيباً جزئياً، يعبر عن إنذار مبكر لهم، وفَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ ﷺ البأساء بِشِدَّةِ الْفَقْرِ، وَالضُّيْقِ فِي

(١) البخاري (٦٤٨٢)، مسلم (٦٠١٨).

المعيشة، والضراء بالأسقام، والعَلَلِ العارضة في الأجسام، ... وعن سعيد بن جبير رحمته الله أن البأساء خوفُ السُّلطان، وغلاء السَّعْرِ، والأقوال في الكلمتين مُتقاربةٌ، والفرق بينهما - كما أفهم - أن البأساء ما يقع في الخارج من الأمور الشديدة الوقع على من يمسه تأثير الحرب الحاضرة الآن، فإن وقعها أليم شديد على من أصيبوا بفقد أولادهم، أو تخريب بلادهم، أو ضيق معاشهم، وأما الضراء فهي كل ما يؤلم النفس ألماً شديداً، سواء كان سببه نفسياً، أم بدنياً، أم خارجياً - فعلى هذا تكون البأساء من أسباب الضراء^(١).

فإن قلت: هلا ضربت مثلاً يوضح التعذيب الجزئي؟

واضرب لهم مثلاً واقعياً على هذا التعذيب الجزئي ما حدث لقوم فرعون؛ إذ قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ولكن النفس المعاندة تأبى فهم الأحداث على حقيقتها، وتنكر الواضحات من الأمور، ويصف الله ﷻ ذلك فيقول: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُٗٓ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، بل تصر هذه النفس المغلقة المعاندة على غيها وإجرامها، وتتحدى أن تؤثر فيها الحوادث المتقلبة في الدنيا.. فهي لا تفهم أن ما وقع عليها كان عذاباً ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].. انظر للسُّنن الجارية على من أغلق قلبه وعقله.

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٤٥).

تأمل كيف يقيم الله ﷻ عليهم الحجاج فيأبون إلا الاستدارة عن رؤية الحق المبين، مهما تابعت الآيات، وتكاثرت صنوف العذاب الجزئية ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

المرحلة الثالثة: عدم التأثير الشعوري بالعذاب الجزئي، وتزئ قباخ الأعمال، ويصف الله ﷻ هذه المرحلة، فيقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

أي: فهلاً تضرَّعوا خاشعين لنا، تائبين إلينا عندما جاءهم البئس من عذابنا، فرأوا بواذره، وحذروا أو آخره؛ لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم! أو فما خشعوا ولا تضرَّعوا إذ جاءهم بأُسُنَا^(١).

عدم التأثير الشعوري ترتب عليه ازدياد عصيانهم سوءاً؛ إذ صاحَب ذلك قسوة القلب، وتزيين الأعمال السيئة ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فأما قسوة القلب فإنها تصل إلى درجة تكون معها أقسى من الحجر، فلم تؤثر فيها النُّذُر^(٢)، ولم يحركها مشهد الأطفال التي تحرقها وحوش البشر.. لم تهتز عواطفها لمن يموتون

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٤٦).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٤٦).

109

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْدُ الْمُسْتَعِيرُ أَسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيعَ الْعَطَبِ
رَمَاهُ الْكَنَانِيُّ وَالْعَامِرِيُّ وَتَلَّاهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ الْعَرَبِ
كَلا الرَّجُلَيْنِ أَتَلَى قَتْلَهُ فَأَيُّكُمْ أَغْلَّ حُرَّ السَّلَبِ
وَأَيُّكُمْ كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَصَّةً فِي الذَّنَبِ^(١)

أيا صاحبا! لا يعزبن عن بالك أنه قد يمتد التزين لسيئ الأعمال إلى عالم المتدينين والصالحين، يحسبون أنهم على شيء، وهم بالخطأ في معاملات الخلق عاملون، ويظنون بنفوسهم الخير بسبب السبق في العبادات الشعائرية، بينما لا يقيمون روح تلك العبادات، التي يفترض أن تظهر في بناء الحياة، والتعامل مع الخلق.. فوعزة ربك! إن هذه لهي الهلكة الحقيقية.

وإنما يقع أقوام ويرتكسون في هذه الأحوال لفقدان بوصلة حرارة الإيمان الحساسة؛ ذلك أن الوجدان أو القلب بالمفهوم القرآني هو مناط الإصلاح الديني في الإسلام، وهو الذي تنبع منه -على الحقيقة- المواقف والتصرفات والتصورات والذي تنشأ عنه العلاقات الأفقية والعمودية التي هي أساس بناء النسيج الاجتماعي في صلة الإنسان بربه ﷻ وفي صلة الإنسان بأخيه الإنسان.. وهذا أمر لا تصل إليه الحركات الإسلامية بمناهجها الشكلائية هذه، فالوجدان لا يصنع إلا في مختبرات الدين بما هو دعوة إسلامية بالدرجة الأولى^(٢).

(١) ديوان المتنبي (ص: ١٣).

(٢) الفطرية، فريد الأنصاري، (ص: ٥٣).

۱۶۱

وبيّن الله ﷻ ذلك فيقول: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ومما يؤدي إلى هلاك الأمم تقييض بطانات السوء للمؤثرين في صناعة قرارها.

وعدم التأثير الشعوري، وتزين أعمال السوء يؤدي إلى الفساد المالي والإداري والنفسي: أدرك أبو جعفر المنصور أن بطانة السوء من الاستدراج فقال: «ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، قيل: يا أمير المؤمنين، من هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم، إن نقصت قائمة واحدة فقد وهي:

أما أحدهم: ففاض لا يأخذه في الله ﷻ لومة لائم.

والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي.

والثالث: صاحب خراج يستقضي، ولا يظلم الرعية؛ فأني غني عن ظلمهم.

ثم عَضَّ أصبعه السَّبَّابة ثلاث مرّات يقول في كل مرة: آه آه على الرابع.

ف قيل له: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصّحة»^(١).

المرحلة الرابعة: نسيان التوجيهات الإلهية، وعدم تطبيق الدستور الرباني، وبيصّرنا

بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤]:

وهذا النسيان يشمل صنفين من الناس: التاركين لتلك التوجيهات بالكلية، فإن التارك يسمى ناسياً، والمتغافلين عنها ممن لا يأخذها بقوة، فينسونها حتى يالفوا القبيح.

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥٢٠).

173

وفي هذه المرحلة الخطيرة يجعل الله ﷻ النعم أشدَّ وبالأعلى المستدّرجين من المصائب والنّقم.. وفي هذه المرحلة ترى حقّاً تحقّق قوله جلّ ذكره: ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فتسود الغفلة، ولا يسمعون حينها لتحذير ممّن كان يبصر المستقبل بعين البصيرة، ويحسب حساب العواقب والمآلات بالنّظر في الكتاب والواقع.. حينها يخنقهم الكبر، وتتلعب بهم المعرفة الزّائفة، ويحقيق بهم قول الله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وحسبنا بيان النّبي ﷺ لهذه المرحلة من سُنّة الاستدراج، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّه قال: «إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].^(١)

المرحلة السادسة: الفرح البطر المعرّض عن التّذكير، ويبصّرنا بهذه المرحلة قوله تعالى
جُدْهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤]:

يزداد أمنهم من مكر الله ﷻ وهم يرون النّعم تغشاهم من كلّ جانب، وربّما اطمأنّوا -إذا كانوا مسلمين- بالعبادات الشّعائريّة التي يؤدّونها، فيزدادون نسياناً لما ذكّروا به.

(١) أحمد (١٧٣١١)، وحسن إسناده الحافظ العراقي. إحياء علوم الدين، وبهامشة مغني الأسفار (ص: ١٤٧٧)، وقال الأرنؤوط: «حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف رشدين بن سعد، وباقي رجال الإسناد ثقات»، وصححه الألباني بالمتابعة. الصّحيحة (٤١٣).

وَيَغْرِهُمْ التَّقَدُّمُ المدهش الذي يغشى حياتهم المرفَّهة، وعندها لا يظنون أنهم قد اقترفوا ذنبًا، وهم يصدُّون عن سبيل الله ﷻ، ويقدمون المساعدات لطغاة العالم ليقمعوا المظلومين، ويتلذذوا بتعذيب المستضعفين.. غرَّهم الأمن العام، والخيرات التي تزداد مع الأيام.. وعندها يقعون في الفرح البطر.

فالفرح سنة بشرية تعبّر عن السَّعادة.. لكنه يتحوّل إلى مشكلة مستحكمة الحلقات عندما يكون (فرحًا بطرًا).. فما معنى البطر؟

الجواب: البطر: دهشٌ يعتري الانسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقّها، وصرفها إلى غير وجهها^(١)، فإن بطر الشخص وطغى وغالى في مَرَحِهِ وَزَهْوِهِ واستخفافه، وتجاوز الحدَّ كِبَرًا واختيالًا، ظنَّ أَنَّهُ يستحقُّ النعمة دون سواه، فهذه المرحلة القارونية، ثم يبطر الحقَّ أي: ينكره مكتفياً بما يقذف شيطانه له من قناعات.. فكيف يمكن أن ينجو مثل هذا من الخسر؟ كيف وهو يمنع مبدأ التواصي بالحق الذي هو سرُّ النجاة من الخسارات المتلاحقة؟ أما إن رأيته كذلك فاعلم أنه قد وقع في دائرة سُنَّة الاستدراج المخيفة.. يغفل الفرد عنها، فيقع، وتصير عاقبة أمره خسرًا.. والكارثة المظلمة تحلُّ عندما تسقط في شباكها المجموعات، والجماعات، والدُّول، فتفنى وتزول ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، وهنا تأتي المرحلة الأخيرة الحزينة:

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٧٩).

المرحلة السابعة: الأخذ الشامل المستأصل، ويصَّرنَا بهذه المرحلة قوله تعالى ذكره:

﴿أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾،

[الأنعام: ٤٤-٤٥]:

إنَّها مرحلة الأخذ الشامل المستأصل، وهي النتيجة النهائية للاستدراج، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يأخذ التعبير أنفاسك؛ إذ تجد فيه (إذا) الفجائية تفيدك المباغته غير المتوقَّعة في نزول العذاب عليهم، ومعنى ﴿مُبْلِسُونَ﴾: مُتَحَسِّرُونَ متحيرون يائِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، فالإِبْلَاسُ: اليأس والقنوط مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ، قال الْعَجَّاجُ:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا قَالَ: نَعَمْ! أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا^(١)

وَلَقَوْلِهِمْ: أَبْلَسَتِ النَّاقَةُ إِذَا لَمْ تَرْغُ مِنْ شِدَّةِ الضَّبْعَةِ، وَهِيَ بِالتَّحْرِيكِ شِدَّةُ شَهْوَةِ الْفَحْلِ. لقد سدَّت السُّبُلَ في وجوههم، وتقطَّعت بهم الأسباب، وحينها يأتي الوصف الحزين لهم: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، لم يكن هلاك هؤلاء الظَّالِمِينَ معتادًا، بل قطع دابرهم، أي: استَوْصَلُوا، فلم يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كُنِيَ عَنْ ذَلِكَ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ، وهو آخر جسد القوم^(٢). ويعلق الحسن البصريُّ رحمته الله على هذه النتيجة المذهلة فيقول: «مُكِرَ بِالْقَوْمِ وَرَبَّ الْكُعْبَةِ؛ أَعْطُوا حَاجَتَهُمْ، ثُمَّ أَخَذُوا»^(٣).

(١) ديوان العجاج، رواية الأصمعي، شرح وتحقيق: د عزة حسن، (ص: ١٥٦).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٧/ ٣٤٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٧٢٩٣).

هذه سُنَّة الاستدراج المخيفة.. قَلْبِ الطَّرَف في الأنحاء.. وانظر كيف وقعت
هذه الأُمَّة فيها.. أُمَّةٌ يكسو بعضُ سفهائها نُوقَةً بالذَّهب، ويُطْعِمهن النُّقود،
ويموت بعضُ أبنائها وهم يئنون من الجوع.

حَدَّثَنَا الأَيَّامُ عن المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد (صاحب إِسْبِيلِيَّة)، وما بلغه من ملك غرور، وما علم
أن الدنيا خَدَاعَةٌ، والأَيَّامُ دول تدور، فقد ذُكِرَ أن زوجة المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد اشتَهت أن تمشي في
الطَّيْن وتحمِل القِرْب، فأمر المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد أن ينشر المسك على الكافور والزَّعفران،
وتحمِل قِرْبًا من طيب المسك، وتخوض فيها تحقيقًا لشهواتها!!
ولكن الله ﷻ المعزَّ المذلَّ أراد أن تنقلب الأمور على المُعْتَمِدِ، فيؤخذ أسيرًا في أَغْمَات
[بلدة قريبة من مُرَّاكش]، وتبقى بناته يَغْرِلن للنَّاس يتكسبن^(١).

(١) ينظر: نفح الطيب (٤/ ٢٧٣).

الأنموذج التاسع

سُنَّةُ الْفَرْحِ الْبَطْرِ بِشِيرِ الْهَلَاكِ

هذه سُنَّةٌ تكميلية تفصيلية لسنة الاستدراج، تبنيتها المعرفة القرآنية بدقة مذهلة، ويمكن صياغتها في الآتي: الفرح البطر بشير الهلاك:

فَالْبَطْرُ كلمة تدل على الحيرة، والدَّهْشُ عن الواجب إزاء النعم، كالأشْر، وغمط النعمة، يقال: بَطِرَ فلانٌ نِعْمَةَ اللَّهِ ﷻ، أي: كأنه مَرِحَ حَتَّى جاوز الشُّكْرَ، فتركه وراءه^(١)، وسبق أن عرفنا البطر في السُّنَّةِ السَّابِقَةِ بأنه: دهشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحَقِّها، وصرفها إلى غير وجهها، فإن بَطِرَ الشَّخص طغى وغالى في مَرِحِهِ وزَهْوِهِ واستخفافه، وتجاوز بعد ذلك الحدَّ كِبَرًا واختيالًا، ثم يبطر الحقَّ أي: ينكره مكتفياً بما يقذف شيطانه له من قناعات.

هل هذا يعني أن الفرح مذموم مطلقاً؟

الفرح ليس مذمومًا مطلقًا، فقد وردت مشتقات كلمة: (فرح) في واحدٍ وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، ومن خلال المعرفة القرآنية المبصرة التي تزودنا بها تلك المواضع نستنبط أنَّ الفرح ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) العين (٧/ ٤٢٢).



أنواع الفرح وحكم كل نوع:

أنواع الفرح

الفرح الطبيعي

الأول

فهو جزء من الطبيعة الإنسانية التي لا تدم ولا تمحذ، والفرح هنا ينتمي إلى المباح.

الفرح المحمود

الثاني

وهذا قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وهو أنواع:

٣
الفرح بنعمة التوفيق للطاعات أو القربات، وفي كلام سيدنا المصطفى ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» [البخاري (2165)، وابن أبي عمير (165)، وصحاح (165)].

٢
الفرح بالإسلام، والقرآن والإيمان: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» [يونس 58].

١
الفرح مقابل نعمة الله عز وجل التي يعترف بها ويشكرها «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» [النساء: 170].

٦
الفرح بتوفيق الله عز وجل للآخرين بدخولهم في الإسلام، أو فعلهم الطاعات، أو توبتهم من المعاصي، كفرح أبي هريرة رضي الله عنه بدخول أبيه الإسلام.

٥
فرح الصائم بطاعته: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرَحٌ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرَحٌ بِصَوْمِهِ» [البخاري (1904)].

٤
الفرح بعلو الحق، وذهاب الباطل، أو الفرح بمن هو أقرب إلى الحق: «وَيَوْمَذِيْقُرْخُ الْمُؤْمِنُونَ 4 يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» [الحجرات: 1-5].

الفرح المذموم

الثالث

وهو أنواع:

٣
الفرح بالمعصية «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البقرة: 81].

٢
الفرح بما يحدث لأهل الإيمان في العالم من مصائب «إِنْ تَسْتَكْبِرُوا حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا» [النساء: 129].

١
الفرح بالظلم، والفساد في الأرض: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ» [الحجرات: 175].

٦
الفرح الأثافي «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» [الأنعام: 55].

٥
الفرح بزخرف الدنيا ومتاعها فرحاً ينسي قيمة الآخرة «وَفَرَحُوا بِأَحْيَاةِ الدُّنْيَا وَوَسَّوْا لِحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعَ» [البقرة: 26].

٤
الفرح المتفاخر المستعالي «وَلَبِنَ أَذْقَهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِمَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ» [الزمر: 10].

٧
الفرح البطر «لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» [القصاص: 76].

سُبْحَانَكَ يَا مَنْ لَا يَمُوتُ وَلَا يَمُوتُ

الأول: الفرح الطبيعي:

فهو جزء من الطبيعة الإنسانية التي لا تدم ولا تمدح، والفرح هنا ينتمي إلى المباح، كالفرح بالنعمة فرحاً لا يؤدي إلى البطر، لكنه دون شكر، كالفرح بحلول النعمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: ٣٦]، ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [الشورى: ٤٨]، والفرح بتحقيق الإنجازات ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِ ٱللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

الثاني: الفرح المحمود:

وهذا قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وهو أنواع:

(١) الفرح مقابل نعمة الله ﷻ التي يعترف بها ويشكرها ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فهذا فرح بما ترتب على الشهادة فيما يظهر، ويحتمل أن يكون فرحاً بالشهادة، ويكون واجباً عندما يتعلق بالاعتراف والشكر، ويكون مستحباً عندما يتعلق بالاستحضار الدائم لهذا الاعتراف والشكر.

(٢) ومنه: الفرح بالإسلام، والقرآن والإيمان والقرب من الله ﷻ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦].

(٣) ومثله الفرح بنعمة التوفيق للطاعات أو القربات، وفي كلام سيدنا المصطفى ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(١).

(١) الترمذي (٢١٦٥)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني.



٤) ومنها: الفرح بعلو الحق، وزهق الباطل، في غير أمنٍ من مكر الله ﷻ، أو الفرح بمن هو أقرب إلى الحق، وهو الفرح الوارد في قوله تعالى جدّه: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الروم: ٤-٥].

٥) ومن ذلك: فرح الصائم بطاعته، ممّا ذكره المصطفى ﷺ في قوله: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»^(١).

٦) ومن ذلك: الفرح بتوفيق الله ﷻ للآخرين بدخولهم في الإسلام، أو فعلهم للطاعات، أو توبتهم من المعاصي، كفرح أبي هريرة ؓ بدخول أمّه الإسلام، حيث قال: كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا، فَأَسْمَعَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ، فَأَسْمَعَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ ﷻ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»، فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ، فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ [أي مغلق]، فَسَمِعْتُ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ، وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا، وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. - قَالَ: - فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، - قَالَ: - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْشِرْ، قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ ﷻ دَعْوَتَكَ، وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٢).

(١) البخاري (١٩٠٤).

(٢) مسلم (٢٤٩١).

الثالث: الفرح المذموم:

ومن أمثلة هذا النوع من الفرح ما يأتي:

(١) الفرح بالظلم، والفساد في الأرض، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

(٢) الفرح بما يحدث لأهل الإيمان في العالم من مصائب ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

(٣) الفرح بالمعصية ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، ومثل ذلك قوله -تعالى عزه-: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونُ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، تصور حالهم وهم يفرحون بمعصية الله ﷻ.. تصور واقعهم وهم في الوقت ذاته يحبون أن يُحمدوا على طاعات وإنجازات لم يأتوها ولا قدّموها!

ويوضح ذلك ما جاء عن علقمة بن وقاصٍ أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباسٍ عليه السلام، فقل: لئن كان كل امرئٍ فرح بما أوتي، وأحب أن يُحمد بما لم يفعل مُعَذِّبًا لنعذبَنَ أجمعون!! فقال ابنُ عباسٍ عليه السلام: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي صلى الله عليه وآله يهودَ، فسألهم عن شيءٍ، فكتّموه إيّاه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابنُ عباسٍ عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونُ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(١).

(١) البخاري (٤٥٦٨).

فهذا تنبيه من ابن عباس ؓ لإعمال السَّيِّئَاتِ الذِّكْرِيَّ.

ويدخل في الفرح المذموم:

٤) الفرح المتفاخر المستعلي الذي قال الله ﷻ عن صاحبه: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

٥) الفرح بزخرف الدُّنْيَا ومتاعها فرحاً ينسي قيمة الآخرة، وحكى الله ﷻ عنه فقال: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

٦) الفرح الأناني: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

يدخل في الفرح الأناني المذموم: قيادات المؤسَّسات والجهات ممن يجدون الاطمئنان في أعمالهم العاصية، نابذين بعض التَّوجِيهَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ وراءهم ظهرياً مثل: (الإخلاص والعمل الجماعي وعدم التنازع ونصرة الضُّعفاء...).

والله ﷻ يبيِّن أن ذلك ما زال ضمن دائرة الاستدراج، فيقول: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣ - ٥٦].

٧) الفرح البَطَرُ: حيث يجعل صاحبه يتعالى في الأرض بغير الحقِّ، ويحسب أن الأرض تسبِّح حول ذكائه وقدراته الخارقة.. يجب أن يُخاطَبَ مثله بقول الله تعالى جدُّه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ويفرح صاحب الفرح البَطَرُ مختالاً فخوراً، والله

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

من أردأ صفات صاحب الفرح البطر أن يفرح بالعلوم الشخصية، والأفكار الأرضية ويستبدل به الوحي الإلهي والتعليم النبوي ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

مثال تاريخي للفرح البطر:

ومن الفرح البطر الذي لا نغفله ونحن نجول في سُنَنِ الأوَّلِينَ، ما حدث للمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ من ملوك الطوائف الذين تكرر سيرهم ويغلب عليهم الفرح البطر، فعلى علمه، وأدبه، وسعة معارفه، وفروسيته، إلا أنه كان يتلهَّى بحياته.. فدونك فقلِّب في صفحات حياته، وبينات أدبه وأبياته، هل تحسُّ للتربية القرآنية من ظهور، أو تسمع لها في فكره همساً؟ إنَّك لتصوِّر حياة الترف التي يغشاها وقد منعت من النظر في عواقب الغفلة عن إقبال جبال جيوش الإفرنج عليه، وعلى المختالين من ملوك الطوائف حواليه.. فلما أقبل (ألفونسو) السادس يريد السيطرة على مملكة المُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ، ليأخذ منه إشبيلية.. ربَّما فكر المُعْتَمِدِ في حاله.. فماذا يتوقَّع من الصليبي غير أن يقطع رأس المُعْتَمِدِ، ويسبي نساءه وبناته؟

أدرك المُعْتَمِدِ ذلك فقال: «تالله، إنني لأؤثر أن أرى الجمال لسلطان مراكش، على أن أغدو تابعاً لملك النصارى، وأن أؤدِّي له الجزية، إن رعى الجمال خير من رعى الخنازير»، وأرسل يستنجد بيوسف بن تاشفين رحمته الله ملك المرابطين، وأحد رياحين الدنيا، وكانت

نتيجة الشورى في المغرب في شأن الاستغاثة الأندلسية وجوب النهوض لإغاثة مستغيث لا يحول دونه إلا ساقية ماء، أي: مضيق جبل طارق^(١).

وصل يوسف الجزيرة الخضراء، وقاد معركة الزلاقة غرب مدينة (بطلوس)^(٢) أمام قوات الفرنجة المتحدة يوم الجمعة ١١ رجب ٤٧٩هـ، الموافق لـ ٢٣ من شهر أكتوبر سنة ١٠٨٦م، وأجاز يوسف بن تاشفين رحمه الله ثانية سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وتناقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يقومون به من الظلمات، والمكوس، وتتابع المغارم، واللّهو، فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس، وتحري العدل، فلما أجاز انقبضوا عنه، إلا ابن عبّاد فإنه بادر إلى لقائه، وأغراه بالكثير منهم^(٣)، ولما انتصر على الإفرنج أبقى جيشاً لمساعدة الأندلسيين، لكن ملوك الأندلس تلاعبوا به، وكانوا يعقدون الاتفاقات الخفية مع العدو، ويصف ابن خلدون رحمه الله ذلك، فيقول: «وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته، فساء نظره، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم، وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام، مثل: الغزالي، والطّروطشي رحمه الله»^(٤)، واشتكى عمّة الأندلسيين من ملوكهم لابن تاشفين رحمه الله، وزاد الطّين بلة أن يوسف رحمه الله كلما جاز لنجدتهم تلاعبوا، وأظهروا السياسة في مواطأة الإفرنجة، مما فيه هلكتهم ولا يشعرون.. حقاً ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا أَتَوْا

(١) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤/ ٣٥٩).

(٢) أنشأ هذه المدينة الثائر على إمارة بني أمية بقرطبة عبد الرحمن بن مروان، المعروف بالجليقي سنة ٢٦٢هـ، وهو الذي أطلق عليها (بطلوس)، وسقطت نهائياً بأيدي المسيحيين في عام ١٢٣٠م، وهي الآن مدينة تقع في منطقة إكستريمادورا في غرب إسبانيا على مقربة من الحدود مع البرتغال، ويطلق عليها (بدخوت) (بالإسبانية: Badajoz).

(٣) ينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٢/ ٤١).

(٤) تاريخ ابن خلدون (٦/ ٢٤٩).

وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْتَهُمْ بِمَقَارَةِ مِّنَ الْعَذَابِ ﴿١٨٨﴾ [آل عمران: ١٨٨].. عندها اضطر يوسف ﷺ لاستخلاص تلك الأرض من يد هؤلاء الزعماء الذين لم يقوموا بمسؤوليتهم، بل كانوا قوَّامين بالظلم شاهدين على أنفسهم بالفساد ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

وكان من هؤلاء البَطْرِين: المعتمد الذي أعمل العقل السِّيَاسِيَّ التَّعْيِيسَ فرحاً به، وقَدَّمه على التَّوجِيهَاتِ الإِلَهِيَّةِ الصَّرِيحَةِ، فعقد التَّحَالِفَاتِ مع (ألفونسو)؛ ظَنًّا منه أنه سيحدث توازناً بين الجبلين.. مسكين! أَيْظَنُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ غافلٌ عما يعمل الظَّالِمُونَ؟ أم أنزل الله ﷻ عليه سلطاناً فهو يتكلم بما كان به ووزرائه يعبثون؟ لم يطل الأمر حتى حاصره يوسف ﷺ في إشبيلية، وضيَّقَ عليه.. استنجد المعتمد عندها بحليفه من أهل الكتاب لينقذه من هذا الحصار، فحاول، فلم يغن عنه شيئاً، واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقبض على المعتمد، وقاده أسيراً إلى مَرَاكُش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين ﷺ إلى أن هلك في محبسه بأَغْمَاتِ (١) سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة (٢).

وقد بلغ من تنعمه وفرحه البَطْرُ أن كان يرش المسك على الطين، لتطأه زوجته وبناته.. تذكر تلك الصُّورَةَ في منفاه لما رأى الحال المؤلم لبناته بعد ذلك العز الذي لم يحافظ عليه، فقال:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مَسْرُورًا فسَاءَكَ العيدُ في أَغْمَاتِ مَأْسُورًا
تري بناتِكَ في الأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلُنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَ قِطْمِيرًا

(١) أغمات: مَدِينَةٌ فِي سَفْحِ جَبَلٍ بِالقُرْبِ مِنْ مَرَاكُش. الكامل في التاريخ (٨ / ٣٤٢).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٦ / ٢٤٩).

يَطَّأَنَّ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ
 قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمَرَهُ مُمْتَثِلًا
 مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يَسْرُبُهُ
 كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكًَ وَكَافُورًا
 فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهَيًّا وَمَأْمُورًا
 فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا^(١)
 ربما رحمته مما وقع له، فاسمع لغدره، وبطشه، وخروجه عن أخلاق الإسلام، التي نصَّ
 عليها القرآن القاطع حكمه وثبوتها:
 ففي عهده وقع الآتي:

في سنة ٤٥٦ هـ تنافس ولدا أبي الوليد بن جَهْوَرٍ على إمارة قرطبة، واستفرد عبد الملك بن
 جَهْوَرٍ بالإمارة دون أخيه الكبير عبد الرحمن، وقرب لنفسه مستشاري السوء، فساموا أهل
 قرطبة سوء العذاب، ظلمًا وإذلالًا، وفي هذا الجو التأمري وفي سنة ٤٦٣ هـ اشتهدت نفس
 يحيى بن ذي النُّون ملك طُلَيْطَلَةَ الاستيلاء على قرطبة، فاستمد ابن جَهْوَرٍ من المُعْتَمِدِ بن
 عَبَّاد ملك إشبيلية أن يعينه ضدَّ خصمه، فأرسل إليه قوَّات من جيشه لتشكِّل حلفًا ضدَّ عدوِّه!
 وما إنَّ ملَّ ابن ذي النُّون من حصاره لإخوانه، ونادى على قواته بالرحيل.. وما إنَّ ظهر
 لملك قرطبة ابن جَهْوَرٍ أن الخطر الطُّلَيْطَلِيُّ انتهى، حتى هجمت عليه قوَّات التحالف
 الإشبيليِّ من جنود ابن عَبَّاد غدًّا وبغيا، فأحدقوا بقصر الإمارة، فقبضوا على عبد الملك بن
 جَهْوَرٍ وأبيه، وسائر أهل بيته وأسرته، فأخرجوا من ديارهم وأموالهم على أسوأ حالات الذلَّة
 والإهانة، ولما وصل قنطرة قرطبة خارجًا منها رفع يديه إلى السماء، وأخذ يبتهل في الدعاء،
 وكان مما حفظ عنه قوله: «اللهم كما أجبْتَ الدعاءَ علينا، فأجبْ لنا»^(٢).

(١) ينظر: المختصر في تاريخ البشر (٢/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: تاريخ ابن الوردي، (٢/ ٨)، تاريخ الإسلام، الذهبي، (٣٣/ ١٨٥).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ٦١٠).

ابن عَمَّارٍ يَسْتَقِلُّ بِحَكْمِ مُرْسِيَّةٍ وَيَتَمَرَّدُ عَلَى الْمُعْتَمِدِ:

ومن أصحاب المعتَمِد الذين سخط عليهم: أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَمَّارِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْمَهْرِيُّ، الذي بلغ أَسْنَى الرُّتَب، حَتَّى اسْتَوَزَرَهُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ، ثُمَّ اسْتَبَاهَهُ عَلَى مُرْسِيَّةٍ، فَاسْتَعْمَلَ الدَّهَاءَ فِي صَدِّ هَجَمَاتِ الْأَدْفَنَشِ مَلِكِ الْإِفْرَنْجِ، الَّذِي ظَهَرَ لَهُ الْإِنْتِصَارُ فِي عِدَدٍ مِنْ غَزَوَاتِهِ، بَيْنَمَا كَانَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ فِي فَرْحِهِمُ الْبَطْرِ، وَهَجُومِهِمُ الْمُسْتَعْرِ عَلَى إِخْوَانِهِمْ.. وَلَعَلَّمَ ابْنَ عَمَّارٍ بِحُبِّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجِ لِلشُّطْرَنْجِ طَلِبَ أَنْ يَتَحَدَّاهُ فِيهِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ حُكْمُهُ إِنْ فَازَ، وَقَدْ كَوَّنَ مَجْمُوعَةً ضَغَطَ مِمَّنْ حَوَالِي الْعَلِجِ لِيَسَاعِدُوهُ عَلَى مَطْلُوبِهِ، فَعَلِبَهُ غَلْبَةً ظَاهِرَةً لِجَمِيعِ الْحَاضِرِينَ، فَقَالَ ابْنُ عَمَّارٍ عِنْدَ ذَلِكَ: هَلْ صَحَّ أَنْ لِي حُكْمِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَمَا هُوَ؟ قَالَ: أَنْ تَرْجِعَ مِنْ هَهْنَا إِلَى بِلَادِكَ! فَاسْوَدَّ وَجْهَ الْعَلِجِ، وَقَامَ وَقَعَدَ، وَقَالَ لَخَوَاصِّهِ: قَدْ كُنْتُ أَخَافُ مِنْ هَذَا حَتَّى هَوَّنْتُمُوهُ عَلَيَّ!، وَهَمَّ بِالنَّكَثِ، وَالتَّمَادِي لَوَجْهِهِ، فَقَبَّحُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَالُوا لَهُ: كَيْفَ يَجْمَلُ بِكَ الْغَدْرُ، وَأَنْتَ مَلِكُ مَلُوكِ النَّصَارَى فِي وَقْتِكَ؟! فَلَمْ يَزَلُوا بِهِ حَتَّى سَكَنَ، وَقَالَ: لَا أَرْجِعُ حَتَّى آخِذًا إِتَاوَةً عَامِينَ، خِلَافَ هَذِهِ السَّنَةِ! فَقَالَ ابْنُ عَمَّارٍ: هَذَا كُلُّهُ لَكَ! وَجَاءَهُ بِمَا أَرَادَ، فَرَجَعَ، وَكَفَّ اللَّهُ عَنَّا بِأَسْهٍ، وَدَفَعَهُ بِحَوْلِهِ، وَحَسَنَ دِفَاعَهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ. وَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ، وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُ الْمُعْتَمِدِ سُرُورًا بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَمِدَ حَدَثَ لَهُ أَمَلٌ فِي التَّغْلُبِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ وَأَعْمَالِهَا، وَهِيَ الَّتِي تَعْرِفُ بِتُدْمِيرٍ؛ وَكَانَتْ بِيَدِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرٍ.. وَهَكَذَا بَقِيَتْ هَذِهِ الْعَقْلِيَّةُ الْمَفْسُودَةُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ.. فَجَهَّزَ الْمُعْتَمِدُ جِيوشًا عَظِيمَةً، وَتَكَفَّلَ لَهُ ابْنُ عَمَّارٍ بِأَخْذِهَا، وَإِخْرَاجِ ابْنِ طَاهِرٍ عَنْهَا؛ فَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى مِنْ ذَلِكَ. وَخَرَجَ ابْنُ عَمَّارٍ حَتَّى نَزَلَ عَلَى مُرْسِيَّةٍ، فَأَخْذَهَا، وَأَخْرَجَ ابْنَ طَاهِرٍ عَنْهَا.. وَكَمَا غَدَرَ هُوَ وَالْمُعْتَمِدُ بِإِخْوَانِهِمَا فِي مُرْسِيَّةٍ، غَدَرَ ابْنُ عَمَّارٍ بِالْمُعْتَمِدِ، فَاسْتَقَلَّ بِمُرْسِيَّةٍ وَأَعْمَالِهَا..

لا ينفكُّ الفرح البطر بما حرَّم الله ﷻ يزلزل أديان الرِّجال، ويفضي بالعقول إلى الخيال، والخبال.

ابن عمَّار في قبضة المعتمد ذليلاً مهاناً:

فقام على ابن عمَّار رجلٌ من أهل مُرْسِيَّة يقال له: ابن رشيق، كان أبوه من عرفاء الجُند بها؛ فهرب ابن عمَّار، إلى أن وقع في حصنٍ من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى: شَقُورَة، كان المتغلَّب عليه رجل يقال له: ابن مبارك، فأكرم وفادته، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه، فأرسله إلى المعتمد مقابل مال ضخيم، وأمر المعتمد بإخراج النَّاس -خاصَّة وعامَّة- حتى ينظروا إليه على تلك الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له، وخرج إليه وجوه أهلها، وأعيانهم، ورؤساؤهم، فالسَّعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده، أو يردُّ عليه ابن عمَّار السَّلام... فسبحان مُحيل الأحوال، ومُديل الدُّول!

فأدخل على المعتمد يَرْسُفُ في قيوده؛ فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونِعَمه، فقال: ما أنكر شيئاً ممَّا يذكره مولانا -أبقاه الله-، ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات فضلاً عمَّن ينطق؛ ولكني عثرت، فأقل، وزَلَلْتُ فاصفح! فقال المعتمد: هيهات؛ إنَّها عثرة لا تُقال! فجعله في غرفة على باب قصر المعتمد بإشبيلية المعروف بالقصر المبارك، فطال سجنه هناك، وكتب في السَّجن قصائد -يزعم عبد الواحد المَرَاكُشِيُّ صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)- أنه لو توَسَّل بها إلى الدَّهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكفَّ عن دَوْره؛ فكانت رُقَى لم تنجع، ودعوات لم تُسمع، وتمائم لم تنفع.. ثم زاره، وأظهر الرِّقَّة لحاله، وظنَّ المغرور أنه سيطلقه، فاستخفَّ الفرح، وكتب بعض ما اطلَّع عليه المعتمد، فاغتاظ منه.. ومن حنقه عليه بعد حوارٍ مراوغ رجع إليه وبيده الطَّبَرَزِين -وهو سلاح على

هيئة فأس - فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله، حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما، والمعتمد لا يثنيه شيء؛ فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه به حتى برد^(١)، فذبحه صبراً للعصيان بعد فرط الإحسان.. ومن قبل هجا ابن عمار المعتمد وآباءه فقال:

مَمَّا يُقْبَحُ عِنْدِي ذَكَرَ أُنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَسْمَاءُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ^(٢)
سُنة الله ﷻ تلاحق المعتمد (كما تدين تدان):

ودارت الأيام قصيرة، فأصاب المعتمد سنة الله ﷻ التي لا تخلف، ولما دنا أجله قام يرثي نفسه بما يصور الأثرة، وضعف حضور فقه المسؤولية القرآني، فقال:

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي حَقًّا ظَفَرْتُ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عَبَّادٍ
بِالْحَلَمِ، بِالْعَلَمِ، بِالنُّعْمَى إِذَا اتَّصَلْتُ بِالْخَصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا، بِالرِّيِّ لِلصَّادِي
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَتَلُوا بِالمَوْتِ أَحْمَرُ، بِالضَّرْغَامَةِ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نَقَمٍ، بِالْبَحْرِ فِي نَعَمٍ بِالبَدْرِ فِي ظُلَمٍ، بِالصَّدرِ فِي النَّادِي
وَلَا تَزَالُ صَلَاةُ اللَّهِ دَائِمَةً عَلَى دَفِينِكَ لَا تُحْصَى بِتَعْدَادِ^(٣)

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٩٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٧٩).

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ١٢٠).

الأنموذج العاشر

صناعة المجد الحضاريّ يقتضي وجود القيادة الرّاشدة الممسّكة بالكتاب

التي تتصرف على أساس العدل مع الخلق والتّذلل بين يدي الملك الحقّ

هل وجود الرّشد في القيادة شرط للتّغيير وتداول الأيام في الحياة؟ ما الشرط الذي لا بد منه

في القيادة ليحدث التغيير والتأثير؟

الجواب: شرط التّغيير وجود القيادة الفعّالة لكن حالة التّغيير مرهونة بالرّشد أو بضده، فقد توجد القيادة الفعّالة ويكون التّغيير نحو الأسوأ، ولذا بيّن الله تعالى الأثر الخطير للقيادة على الأمم؛ إذ القيادات تمثّل أئمةً لمن بعدهم، لا يملك من بعدهم غالباً إلا متابعتهم.. وانظر تفصيل هذا الأثر الهائل للقيادة الضّالة، ودورها السيّئ في تدمير الشّعوب في قوله تعالى شأنه:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

إنّها ضلالة خالصة، لم يخالطها هدى، ولو في جزئية من جزئيات الحياة.. ولم يكن إضلاله لقومه قائماً على منهجٍ علميٍّ، أو على نورٍ عقليٍّ، بل استخفّهم بأساليبه، فلم يفكّروا، فأطاعوه لميلهم التّفسيّ نحو الفسق، واللّذة العاجلة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وترى آية الزّخرف هنا تحيل الجرم على الطّرفين: القيادة والأمة.. وكما كان قدوتهم ونموذجهم الأعلى في خطّة الفساد الدّنيويّة، فهو كذلك إمامهم في العقوبة التي استحقّوها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [٣٦] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٨].

وهل كان فرعون يؤدّي هذا الدور الخطير وحيداً؟ كلا! بل كانت معه أرتال من قيادات المؤسّسات الاستشاريّة، والقضائيّة، والأمنيّة، والعسكريّة، والمعماريّة التي أشار إلى رؤوسها قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَلْنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]؛ ولذلك لم ينفرد هو بالإمامة التُمودجيّة للسوء، والفسق، والفساد، بل كان قادة مُلكه في مؤسّساتهم المختلفة أكبر المعاونين لهم؛ ولذا سمّاهم الله جميعاً أئمة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وعلى الشق الآخر، وفي الطّرف المقابل، يقال كذلك بأنّ إعزاز الديانة، وحمل الأمانة لا بدّ لها من قيادة رشيد، وقوّة جندي، وبأس وحدّ، وإلا فدون النّصر والظفر خرط القتاد.

البيت لا يُبْتَنِي إِلَّا عَلَى عَمَدٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أُوتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أُوتَادُ وَأَعْمَدَةٌ وَسَاكِنٌ بَلَّغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
إِذَا تَوَلَّى سَرَاةَ الْقَوْمِ أَمْرَهُمْ نَمَا عَلَى ذَاكَ أَمْرُ الْقَوْمِ وَازْدَادُوا
تَلْقَى الْأُمُورَ بِأَهْلِ الرَّأْيِ قَدْ صَلَحَتْ وَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ
كَيْفَ الرَّشَادَ إِذَا مَا كُنْتَ فِي نَفْرِ لَهُمُ عَنِ الرَّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ^(١)

الرَّحْمَةُ الْمَهْدَاةُ ﷺ يَحْذَرُ مِنْ أُنْمَةِ الضَّلَالِ وَدَعَاةِ الْفِتَنِ:

ولهذا الدور الخطير الذي تؤدّيه القيادة حذر النّبي ﷺ من أئمة السّوء، وقيادات الفساد التي لا تألو العالم خبلاً تدميرًا للشّعوب، وإعماراً لوسائل التّعذيب، وتسعيراً للحروب.. يتعاملون مع الإنسانيّة تعامل الوحوش الشّيطانيّة.. أخبر النّبي ﷺ عن الغيب بما أوحى الله

(١) الأبيات للأفوه الأودي. ينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ٥١).

ﷺ إليه، فرأى هذه المُسوخَ الشَّيطانيَّةَ قد لبست الثَّوبَ البشريَّ لتُدَمِّرَ العالمَ، فَتَحَدَّثَ عَنِ الشَّرِّ الَّذِي يَحْدُثُونَهُ، فَقَالَ فِي تَصْوِيرٍ بَلِيغٍ: «يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ، لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتَنُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ: قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»^(١)، وَتَبْلُغُ الشُّرُورُ الَّتِي يَشِيرُهَا أُمَّةُ الضَّلَالَةِ، وَأَمْرَاءُ الْجورِ مَبْلَغًا رَهيبًا، جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَغَيْرِ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَى أُمَّتِي» قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا الَّذِي غَيْرَ الدَّجَالِ أَخَوْفُكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «أُمَّةٌ مُضِلِّينَ»^(٢)، بَلْ حَصَرَ كُلَّ خَوْفِهِ عَلَى أُمَّتِهِ فِي أُمَّةِ الْفَسَادِ، وَسُلَاطِينِ الْإِجْرَامِ، سِوَاءِ أَكَانُوا سُلَاطِينَ عِلْمٍ أَمْ أُمَّةً سِيَاسَةً، فَقَالَ ﷺ بِصِيغَةِ الْقَصْرِ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُمَّةَ الْمُضِلِّينَ»^(٣).

بين قيادتين: قيادة تعيسة وأخرى راشدة سعيدة:

وَفِي مَقَابِلِ هَذِهِ الْقِيَادَاتِ التَّعِيسَةِ الْبَائِسَةِ يَذْكُرُ اللَّهُ ﷻ لَنَا الْقِيَادَاتِ الرَّاشِدَةَ الَّتِي تَنْشُرُ الْخَيْرَ فِي الْعَالَمِ، فَيَقُولُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وَجَعَلَ اللَّهُ ﷻ أَعْظَمَ مَهْمَاتِهِمْ نَشْرَ الْكِرَامَةِ، وَإِنْقَازَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ حَكَّى اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ الدُّعَاءَ الْمَتَضَرِّعَ بِأَنْ يَقْبِضَ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ هَذِهِ الْقِيَادَاتِ النَّاصِرَةَ فَقَالَ: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٤﴾

(١) مسلم (١٨٤٧).

(٢) أحمد (٢١٢٩٦)، وَقَالَ الْأَرْنَؤُوطُ: «صَحِيحٌ لَغَيْرِهِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ لَغَيْرِهِ. الصَّحِيحَةُ (١٩٨٩).

(٣) أحمد (٢٢٣٩٣)، وَقَالَ الْأَرْنَؤُوطُ: «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ»، التِّرْمِذِيُّ (٢٢٢٩)، وَقَالَ: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ

صَحِيحٌ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

[النساء: ٧٥]؛ وهنا يتحقق قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وهذه العزة لا تتحقق دون توفر مقاييس القيادة الرائدة على المستويات الثلاث:

مستويات القيادة الرائدة التي تحقق العزة المنشودة:



يُحِبُّونَ النَّسَاءَ إِذَا مُنِّبُوا إِلَى الْحَيَاةِ

المستوى الأول: مستوى الإمامة الفردية، التي تصنع العزة الفردية:



يَحْتَجِبُ السَّيِّئُ الْمُقْبِلُ بِالْجَيِّدِ

ولا بد أن تقوم على أربعة مقاييس:

المقياس الأول: الحفظ للمعلومات، والثروات المستودعة.

المقياس الثاني: العلم الذي ينمو بالخبرة، والإتقان عند مزاوله الصنعة.

وقد ذكر هذين المقياسين يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

[يوسف: ٥٥].

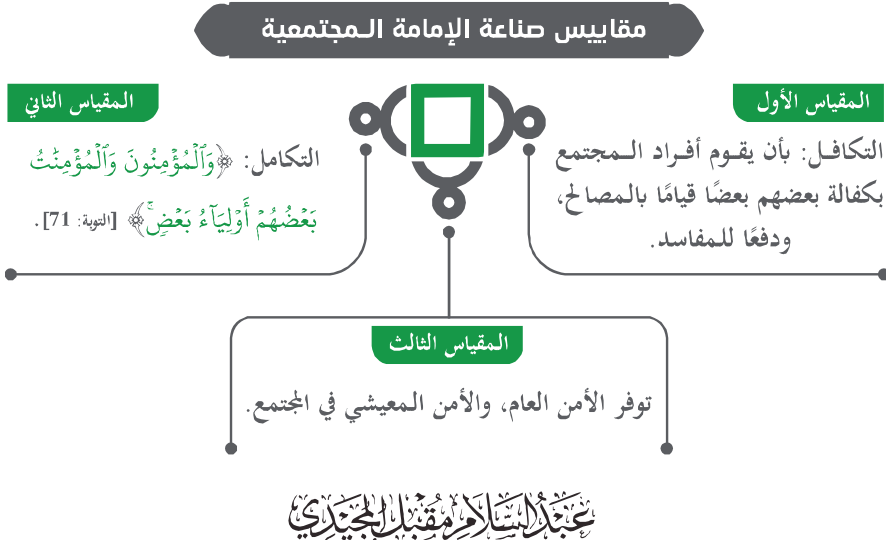
المقياس الثالث: القوة في التعامل مع التحديات المادية، والحياتية، ومن أبرز مظاهرها: الشجاعة.

المقياس الرابع: الأمانة في توزيع المسؤوليات، وتفويض الصلاحيات، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، وتوفر هذه الصفات الأربع يعني وجود الكفاءة.

وذكرت هذين المقياسين بنتُ الشَّيخ الصَّالِح عندما رأت أنهما متوافرتان في موسى عليه السلام فقالت: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَعْجَرَتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

إن اصطناع الكفاءات المجتمعية وفق المعايير المذكورة سيسلم إلى المرحلة التالية القاصدة لبناء المجتمع النموذجي، ورفع قواعده، وتعزيز روافده.

المستوى الثاني: مستوى الإمامة المجتمعية، فتصنع المجتمع الذي تجعله الشعوب المثل النموذجي، والحلم الذي يودون تقليده:



وهذه الإمامة للمجتمع تقوم على ثلاثة مقاييس:

المقياس الأول: التَّكَاوُل

بأن يقوم أفراد المجتمع بكفالة بعضهم بعضاً قِيَامًا بالمصالح، ودفعاً للمفاسد، والعمل على أن يُعِينَ السَّابِقُ اللَّاحِقَ، وَيُسَاعِدَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ، وَيُعَلِّمَ الْخَبِيرُ الْمُبْتَدِئَ، وتجد البناء

القوي الهائل لهذه السُّنة في القرآن الكريم والسُّنة النبوية بكثافة مدهشة، مثل قوله تعالى جده:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، ويقول تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

أفلم يهد للذين يتقون في كنوز النظام الإسلامي أن يكون الركن الثالث هو الزكاة؟ إنها عبادة متعدية، هدفها الأعظم التكافل المجتمعي، وتقوية الجوانب الضعيفة في المجتمعات لترتقي وتقرب من القوية.

وهذا التكافل يصوره النبي ﷺ بصورة مدهشة، فيما رواه الثَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(١).

(١) مسلم (٢٥٨٦).

لا تذهب بعيداً فإنَّ هذا التَّكافل لا يقتصر على المسلمين ضمن المجتمع الواحد، بل يشمل غير المسلمين ضمن مجتمعهم، أو خارج مجتمعهم، حيث يقول الله ﷻ في بيان مدهشٍ عن غير المسلمين: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وأنزل الله ﷻ آية تحث المسلمين على إعانة فقراء الأديان الأخرى هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فإن قلت فأين وجه الدلالة في هذه الآية؟

الجواب: تجده في السياق، فالآيات السابقة لهذه الآية حضت بصورة مشوقة على الصدقة السريّة والعلنيّة، ثم جاءت هذه الآية العظيمة في موقعها المناسب البديع لتخبرنا بشمول التَّكافل لغير المسلمين، وأما موضوع الهداية فمسألة بينهم وبين ربهم ﷻ، ويخبرنا ابن عباس رضي الله عنهما عن هذا الاتصال، فيقول: كانوا يكرهون أن يرَضخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَى أَهْلِ الْأَدْيَانِ»^(١)، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٢).

المقياس الثاني: التَّكامل

وترى في البصائر القرآنيّة تأسيس التَّكامل بين أفراد المجتمع بصورة مدهشة، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ثم يوسّع نطاق التَّكامل ليشمل غير المسلمين، وغير المقيمين في المجتمع

(١) رواه موقوفاً النسائي في الكبرى (١٠٩٣٦)، المستدرک (٣١٢٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، والبراز (٢١٩٣)، وصحّحه الوادعي في الصحيح المسند برقم (٦٣٢)، والمرفوع رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣ / ١٧٧)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٦٦).

(٢) البخاري (٢٣٦٣).

۱۸۹

كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ ﴿٤﴾ [قريش: ٣، ٤].

المستوى الثالث: مستوى إمامة الدولة (ريادة الدولة بين دول العالم):



دولة التمكين لا بد أن تتسم بسمات حضارية، تقوم على العلم الصادق والإيمان الراسخ، وتجمع بين جانب القيم وجانب المادّة، وتشيع الحرية والعدالة^(١)، وذلك في سبيل تحقيق الريادة بين دول العالم.

ولا تتحقّق هذه الرّيادة دون ثلاثة مقاييس:

(١) مراحل التمكين: دراسة قرآنية (ص: ٦٧).

المقياس الأول: الولاء

هل أتاكَ نبأ منافسة الدُّول المعاصرة في تزعم الرِّيادة العالميَّة والحصول على مراكز متقدِّمة ضمن الدُّول التي يشار إليها بالبنان؟ إنَّه البحث عن العزَّة في الواقع الدَّوليِّ، ولا يمكن أن تتحقَّق الدَّولة العزيزة دون أن يكون عند أهلها ولاء حقيقيٍّ لها، والدَّولة تتكوَّن من الدُّستور، والشَّعب، والأرض، وقد ذكر الله ﷻ هذا الولاء بهذا المعنى في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، فتولَّى الله ﷻ ورسوله ﷺ يقتضي أن يكون محور ولاء الدَّولة الأوَّل: الكتاب، والسُّنة، وفي المنظور الإسلاميَّ يتَّسع أفق المسلم لمفهوم الولاء للوطن، ولا تقيِّده الحدود الجغرافيَّة المصطنعة بنظر من الاستعمار ووكلائه، ولذا لا تعجب إن سمعت حذاء حبِّ الوطن بمعناه الممتد العريض في قول الشَّاعر الصَّادق:

أنا الحجازُ أنا نجدُ أنا يمنُ أنا الجنوبُ بها دمعي وأشجاني
بالشَّام أهلي وبغدادُ الهوى وأنا بالرقمَّتين وبالفُسطاط جيراني
وفي رُبى مكَّةَ تاريخُ ملحمةٍ على ثراها بنينا العالمَ الفاني
دمي تصبَّبَ في كابولٍ مُنسكبًا ودمعتي سُفِحتْ في سَفْحِ لبنانِ
فأينما ذُكِرَ اسمُ الله في بلدٍ عدَدْتُ ذاكَ الحمى من صُلبِ أوطاني

المقياس الثاني: المنعة

والمنعة تعني حماية كلِّ الأفراد الذين ينتمون لهذه الدَّولة، وحشد المؤسَّسات العسكريَّة، والأمنيَّة، والإعلاميَّة، والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة من أجل ذلك، فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ عَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظْمِهِمْ أُولَٰئَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣]، ومن أجل ذلك انتفض المعتصم عليه السلام لنداء امرأة مسلمة استغاثت، ولحماية المسلمين الذين تمّ الاعتداء عليهم في قلعة زِبْطَرَة، وغيرها، واستعد استعداد من لا يرجع إلى داره؛ حمايةً لأُمَّته، ولما أراد الخروج حذّره المنجمون أن يخرج في ذلك التوقيت، وأنه شؤم، فلم يلتفت لتخرّصاتهم، فأنزل الله تعالى عليه نصره، وفي ذلك أنشأ أبو تمام عليه السلام قصيدته السائرة التي قال فيها:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إنبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
يُبْضُ الصَّفَائِحُ لَا سُودَ الصَّحَائِفِ فِي مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
وفيها:

أَيْنَ الرَّوَايَةُ أَمْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مَلْفَقَةً لَيْسَتْ بِنَبْذٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرْبِ (١)

وفي مقابل ذلك يقول البردوني عليه السلام متلهفًا على ضعف المنعة في العصر الحاضر:

مَا أَصْدَقَ السَّيْفِ! إِن لَّمْ يُنْضِهِ الْكَذِبُ وَأَكْذَبَ السَّيْفِ إِن لَّمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ
يُبْضُ الصَّفَائِحُ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا أَيُّدٍ إِذَا غَلَبَتْ يَسْعَلُو بِهَا الْغَلَبُ
وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الْأَقْوِيَاءِ بِلا فَهْمٍ سِوَى فَهْمِ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا
أَذْهَى مِنَ الْجَهْلِ عِلْمٌ يَطْمَئِنُّ إِلَى أَنْصَافِ نَاسٍ طَغَوْا بِالْعِلْمِ وَاعْتَصَبُوا

(١) ديوان أبي تمام (ص: ٧).

ويقول عمر أبو ريشة رحمته الله وهو صاحبه في بوح الشكوى:

وعصر كالذي نعيشه يتوجَّب على الدَّولة الرَّامية لمراتب العزَّة، ودرجات الرِّفعة، أن تخرج من تحت وصاية قوى الاستكبار الدَّوليِّ، وأن تتحرَّر من الاندراج تحت عباءة (مجلس الخوف، وهيئة النِّقم)، وأن تبني لها مجدًّا مهابًا، ولا يكون لمثل هذه النُّظم عليها ولاية، أو لحمايتها منَّة أو وصاية، ومنذ متى جاء الأمن من عدوِّ كاشح متعولِّ؟

195

وَنَصَبَ الْخَنْطُ فِي أَقْدَاسِهَا حَكَمًا
مَنْ يَحْمِلُ السَّيْفَ لَا يُبْرِي بِهِ قَلَمًا^(١)

وما الموائيقُ إن فاه القويُّ بها
ما كان أغناهُ عن تزويرِ غايتهِ

المقياس الثالث: الكفاية

فكلُّ مالٍ تتأثله الدولة ينبغي أن يتحوَّل تلقائيًّا للتقسيم بين أفراد الأمة، وهذا يقتضي العمل على زيادة موارد الدولة، وتنمية العدالة الحقيقية في واقعها، ونلاحظ هذا السبق التنظيمي العظيم في قوله تعالى جده:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

ما القصة العُمرية العظيمة التي تدلُّ على عبقرية عمر رضي الله عنه في توفير الكفاية لرعايا الأمة

المسلمة؟

الجواب: قسم الله جلَّ ذكره الواردات المالية (الفيء) بين ثلاث فئات: المهاجرين، والأنصار، والذين جاؤوا من بعدهم، وشمل ذلك: كل فرد صغيراً كان أم كبيراً، واستنبط

(١) ديوان عمر أبو ريشة، (ص: ٤٣٩).

عمر ابن الخطاب رضي الله عنه هذا البناء الحضاري الرائع من هذه الآيات، فقال عن الآية الأخيرة: فَاسْتَوْعَبَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ النَّاسَ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا لَهُ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ... وَلَكِنْ عِشْتُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- لِيَأْتِيَنَّ كُلُّ مُسْلِمٍ حَقَّهُ، أَوْ قَالَ: حِظَّهُ^(١)، وفي رواية: قال عمر رضي الله عنه: اجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ، فَانْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا لِهَذَا الْمَالِ، فَتَنْظُرُوا لِمَنْ تَرَوْنَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل، سَمِعْتُ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٨﴾، وَاللَّهُ مَا هُوَ لَهُوْلَاءِ وَحَدَهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، وَاللَّهُ مَا هُوَ لَهُوْلَاءِ وَحَدَهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وَاللَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا لَهُ حَقٌّ فِي هَذَا الْمَالِ أُعْطِيَ مِنْهُ، أَوْ مُنِعَ، حَتَّى رَاعِ بَعْدَنَ^(٢).

(١) النسائي (٤١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي (٦ / ٣٥١)، والحديث بألفاظ متقاربة رواه عبد الرزاق في مصنفه (٧٢٨٧)، وأبو داود (٢٩٦٦)، والنسائي (٤١٤٨). وذكر الأرنؤوط والألباني أن رجاله ثقات، إلا أنه منقطع؛ فإن الزهري لم يدرك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وذكر الألباني أن ذلك لا يضر؛ لأنه قد ذكر الذي بينهما وهو مالك بن أوس، كما في مسند الشافعي، وعنه البيهقي من طريق عمرو بن دينار عن الزهري عن مالك بن أوس، وإسناده صحيح. صحيح سنن أبي داود (٨ / ٣١٦).

من أهم الواجبات توفير الكفاية لمن له مسؤولية عامة أو خاصة :

هل يوجد ما يدلُّ على وجوب أن يُعطى أصحاب الوظائف الخاصة أو العامة كفاياتهم؟ وما دورها في شيوع النزاهة وأداء الأمانة؟

الجواب: نعم، هناك ما يدلُّ على ذلك، ويزداد التأكيد لتوفير الكفاية التامة للموظفين، حتى لا يلجئوا إلى خيانة الأمانة، أو العمالة، والارتهان، فعن المستورد بن شداد رحمته الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْرُلٌ، فَلْيَتَّخِذْ مَنْرَلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ»^(١).

وقد يقول قائل: فإين الغذاء والكساء والدواء؟

الجواب: إن كان قد أمر له بهذه الضروريات والحاجيات، فإنَّ الغذاء والكساء والدواء هي أقوى الضروريات، فالنَّصُّ على هذه الأربع نصُّ على تلك الثلاث من باب أولى. ستقول: وما المتوقع إذا لم توجد الشروط الأساسية في الوظيفة العامة أو الخاصة، ولم تتوافر الكفاية لمن يقوم بهذه الوظيفة؟

الجواب: يتوقع أن تفسو الخيانة إما طبيعة أو بتأول، وخصوصًا مع تقادم الزَّمان، وقسوة القلب، فمن أهمِّ عوامل الخيانة: طول الزَّمان ووجود التأول الخاطيء، وعند ذلك يقسو القلب.

(١) أحمد (١٨٠١٧)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة.

القيادة الرَّاشدة تصنع العِزَّةَ للأُمَّة:

فلنسبر أغوار التاريخ لنرى تسلسلاً لصناعة عِزَّةِ الأُمَّة من خلال القيادة الرَّاشدة، التي مهَّدت لإخراج المسلمين من ظلمات الوهن والخزي إلى عِزَّةِ النُّهوض مجدِّداً، فقد سقطت القدس في أيدي وحوش الصَّليبيين، وغرق المسلمون في براثن الوهن والذل، وانتشر الظُّلم، وساروا بغير هدى على سُنَنِ الخسارة الحضاريَّة من المُكوس، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وخيانة أمانة المسؤوليَّات.

هنا -وعلى غرار قصَّة الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام - نهض الأمير الشُّجاع: مودود بن أَلْتُونَتِكِينَ رحمته الله ليعمل بسُنَنِ النُّهوض الحضاري، وأولها: إيجاد القيادة الرَّاشدة، والبيئة الصَّامدة، فحرَّر الموصل من يد حاكمها الخائن جاولي، وأقام الشَّريعة، وعمل بسُنَنِ العدل، فنظَّم الصَّدقات، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فاجتمع حوله النَّاس، فجمع المسلمين لقتال الصَّليبيين بالشام بعد سقوط بيت المقدس، وأجرى الله تعالى على يديه الانتصارات على الصَّليبيين، ولما حاصر ملك الصَّليبيين (بَغْدُويْن) دِمَشْقَ أَوَاخِرَ سَنَةِ (٥٠٦هـ)، وَانْقَطَعَتِ المَوَادُّ عَنْ دِمَشْقَ، فَغَلَّتِ الْأَسْعَارُ فِيهَا، وَقَلَّتِ الْأَقْوَاتُ، أَرْسَلَ طُغْتَكِينَ صَاحِبَهَا إِلَى الْأَمِيرِ مَوْدُودٍ يَشْرَحُ لَهُ الْحَالَ، وَيَسْتَنْجِدُهُ، وَيَحْتُمُّهُ عَلَى سُرْعَةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَجَمَعَ عَسْكَرًا، وَسَارَ، فَعَبَّرَ الْفُرَاتَ آخِرَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ (٥٠٦هـ)، فَأَقْنَعَ مودود أمير سنجار وأمير دمشق بالاتحاد في جيش واحد، حقَّق به الانتصار على الصَّليبيين في ١٣ محرم سنة (٥٠٧هـ) في معركة الصَّنْبَرَةِ^(١) الشهيرة، وهكذا أعاد للمسلمين الشعور بالعِزَّة.. لقد رأى مودود هزائم المسلمين في تلك الأيام الكالحات، ومُني هو ببعضها، لكنه استوعب

(١) بالكسر ثمَّ الفتح والتشديد ثمَّ سكون الباء الموحدة، وراء: موضع بالأردنّ مقابل لعقبة أفيق. معجم البلدان (٣/ ٤٢٥).

الأمير مودود، يقول فيها: إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها، وفي بيت معبودها لتحقيق على الله ﻋَﻠَﻴْكَ أن يبيدها^(١).

لم يطل انتظار المسلمين لصناعة البطولة، وقيام قيادة راشدة بعد مودود ﷺ، فقد جاء عماد الدين زنكي ﷺ، الذي خلفه ابنه نور الدين محمود ﷺ، الذي أعقبه صلاح الدين يوسف ﷺ، ولنكتف هنا بلمحة لمقدار صناعة العزة عند القيادة الراشدة لنور الدين الشهيد، فقد حكى أبو شامة ﷺ عنه قائلاً: «وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربّما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت: يا ربّ، انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر؟».

قال: فبهتُ، ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بَعْلَس، ولا يزال يتركّع فيه حتى يصلي الصُّبح، قال: فتعرّضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة: الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلّها، وألح عليّ في ذلك، فقلتها، فبكى ﷺ وصدق الرؤيا، فأرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة^(٢).

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٩-٢٦/٣٥).

(٢) ينظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١٨٢/١).

هذا هو الإيمان الذي شَعَّتْ أنواره في حنايا نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي رحمه الله؛ ليمهّد الطريق لصنع النهضة الصّلاحية، التي قادها صلاح الدّين رحمه الله.. إن «الإيمان صلة بالقوة الكبرى، التي لا تضعف، ولا تفنى.. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة، وانعزال عنها.. ولن تملك قوّة محدودة مقطوعة منعزلة فانية، أن تغلب قوّة موصولة بمصدر القوّة في هذا الكون جميعاً».

ألا هل من وثبة زنيّة، وشعلة نُوريّة، ونجدة صلاحية، تزيل الظّلامه عن القدس الأسير، وترسّم البسمة وضّاء على الوجه الكسير؟

يا رَوَّابي القدسِ يا مَعْجَلِي السَّنا
يا رُؤْيى عيسى على جفنِ النَّبيِّ
دُونَ عَلَيَّاكِ في الرَّحْبِ المَدَى
صَهْلَةُ الخيلِ وَوَهْجُ القُضْبِ^(١)
اللَّهُمَّ نصرْكَ.. اللَّهُمَّ آمين، آمين.

(١) ديوان عمر أبو ريشة، (ص: ٤٣٨).

الأنموذج الحادي عشر

سُنَّةُ التَّرَبُّصِ والانتظار^(١)

هذه السُّنَّةُ سرُّ الانتصار في (تداول الأيام)، ومعرفتها يُسبِّغُ الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ على المرء أمام الأحداث العاتية، كما يجلب السَّعَادَةَ واليقين بتغير الواقع، ويلبس القلق الحائر من المؤمنين لباسَ الصَّبْرِ المطمئن إلى التَّغْيِيرِ القريب القادم ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، فالتَّرَبُّصُ يعني الانتظار المترقِّب لتغيُّر الأحداث، على أن يقوم المرء بالمستطاع صابراً لحكم ربِّه ﷻ القَدَرِيُّ في غير تنازلٍ أو مداهنة، دون تضجُّرٍ، أو جزعٍ، أو يأسٍ، وفي غير تهوُّرٍ يفقده الإنجازات المرحليَّة المتحقِّقة حتى يصل الإيمان إلى قلوب الظَّالِمِينَ، أو يتحقَّق الانتصار للمستضعفين.

(١) وقد أفردت هذه السُّنَّةُ ببحثٍ محكمٍ مستقل، بعنوان: سُنَّةُ التَّرَبُّصِ: معالمها القرآنية، وأثرها في تحقيق التمكين (دراسة موضوعية)، منشور في مجلة عليكرة للدراسات القرآنية، الجامعة الإسلامية، الهند، المجلد (٧)، العدد (١)، مارس ٢٠٢٤م، وهو يختلف في طريقة العرض وفي استيفاء دراسة حيثيات هذه السُّنَّةِ عما كتب هنا، ومن أراد الاطلاع عليه فليراجع موقع بصائر المعرفة القرآنية على هذا الرابط:

<https://quranok.com/books/10754>

أهمُّ معالم سُنَّة التَّربُّص والانتظار في القرآن الكريم:

أهم معالم سُنَّة التَّربُّص والانتظار في القرآن الكريم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعلم الأول: التَّربية على الصَّبْر والذِّكْر في غير تحلٍّ عن المبادئ الحقَّة:

وهنا ترى الاهتمام التَّربويِّ البالغَ بالإنسانيَّة؛ إذ يرَبِّي القرآن النَّبيَّ ﷺ على الانتظار الذي يعني الصَّبْر على الواقع القَدريِّ دون تنازلٍ أو مدهانةٍ أو تعجُّلٍ، فيقول الله ﷻ له: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨﴾ [القلم: ٤٨]، ويقول الله ﷻ لنبيه ﷺ مبشِّراً له بالعاقبة الحميدة ما دام مقيماً أمر الله ﷻ في نفسه غير متعجِّلٍ لتغيير كلِّ في غير وقته، وهو يضرب له الأمثال بنوح ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٥١﴾ [هود: ٤٩]، ومع الصَّبْر الذي لا يتعجَّل النتائج التَّغييريَّة الحاسمة ينبغي أن يبقى الإنسان قائماً بأمر الله ﷻ فيما يمكنه القيام به، ويجعل الذِّكْر مدرسته الكبرى؛ ليملأ الذِّكْر قلبه بالاطمئنان والإشراق، ويقول الله ﷻ له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ٣٠﴾ [طه: ١٣٠]، وترى تعدُّ الهيئات الآمرة بالصَّبْر والذِّكْر مع اشتداد ضغوط القوى المعتدية على الصَّالحين؛ إذ يقول الله -جلَّ ذكره-: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٣١﴾ [ق: ٣٩]، ويقول سبحانه في تربية متواصلة على المبدأ ذاته: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٥٥﴾ [غافر: ٥٥]، ويقول الله ﷻ له: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥٦﴾ [المعارج: ٥٦].

التَّربية على الصَّبْر أمر إلهيٍّ ومبدأ نبويٍّ:

بل كان من أوائل المبادئ التي رُبِّي عليها البشير النذير ﷺ قول الله تعالى جده: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧﴾ [المدثر: ٧]، وترى ذلك دأب الأنبياء ﷺ المقتدى بهداهم، فهاهو شعيب ﷺ

يقول: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، ويعمم الله ﷻ الأمر بذلك فيقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].. ولكن الله ﷻ يؤكد أن الصبر ينبغي أن يكون إيجابياً، لا مدهائناً، ولا مديئاً لمبادئ الحق الواضحة، فيقول الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].. ويبلغ الإعجاب بالتذكير القرآني مبلغه عندما ترى أن الله ﷻ يقصُّ عليك أنباء الأمم السابقة وهم يكذبون رسلهم ﷺ، ثم يختصر القصة بذكر هلاكهم على طول التدافع الذي حدث بين الطرفين، فكان قَدَ (أي: كأن ذلك قد وقع وتحقق) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [١٢] وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [١٣] إن كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ [ص: ١٢ - ١٤]، ثم لا تبرح حتى تجده يبيِّن لك أن القوى المجرمة المعاصرة لك تسارع إلى سلوك نفس السبيل، ويقصُّ عليك نبأهم وهم يسخرون ويرجون نزول العذاب عليهم ليستهزئوا بك أمام الرأي العام الذي يشاهدكم جميعاً ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [١٥] وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٥، ١٦]، وأمام هذا الكم الهائل المتكرر صباح مساء من لعبهم وقهقهاتهم وسخريتهم يأمرك بالصبر، وتذكر سير الصابرين السابقين ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]..

لقد كان الرسول ﷺ في لحظات بعثته الأولى وبداية تنزل القرآن عليه بحاجة إلى الإيمان بنفسه أولاً، ولذا خوطب بقوله: (اقرأ)، وكان مما قال لخديجة ؓ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ

۲۰۵

اليقين وعد الله ﷻ القادم: إمَّا عقوبة الظالمين، وإمَّا انتصار المؤمنين، وإمَّا وصول الإيمان إلى قلوب المستكبرين، وإمَّا الموت في غير تبديل للحق المبين.

وانظر كيف يبصّرنا الله ﷻ بذلك في قوله -تعالى مجده-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، بل يعوّدنا على أن نجعل ذلك خطاباً حوارياً بينا وبين من يستفزّنا من القوى المعتدية في الزمان والمكان المناسبين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْتُنْ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، وإنما أكدت على الزمان والمكان المناسبين؛ لأنّ سورة التوبة نزلت متأخرة حيث كانت عزة الإسلام وقوّته، وقد لا يناسب هذا الخطاب مجال الدّعوة الهادئة في زمن تغطرس البغي الظالم، بل يناسبهم مثل قول شعيب الخليل لقومه، وهو يدافع صولتهم الباغية المستكبرة، شاعراً بالضعف الذي يحيط به وأتباعه: ﴿قَالَ أَلَمَّا لَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَخُذِجَتَكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ [٨٨] قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

تربُّصٌ مقرون بعمل دائب وثبات راسخ:

فهذا تربُّصٌ وانتظارٌ لا يمنع العمل الدائب والثبات الذي يدعو للإعجاب، حيث التمسك بأغصان الإيمان في زمن الأشواك المبتوثة في كلّ مكان، ويرشدنا الله ﷻ إلى أن نجعل هذا خطاباً إعلامياً تعليمياً فيقول: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [١٢١]



وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٣].

شَدَائِدُ يَجْلُوهَا إِلَهُهُ بِدَلِّطِهِ فَلَا تَأْسَ إِنَّ الدَّهْرَ جَمُّ الْمَصَاقِي
فَمُعِقْبُ سَوْءِ الْحَالِ حَسَنِي وَفَرَحُهُ وَتَالِي رَخَاءِ الْعَيْشِ إِحْدَى الْبَوَائِي
وَرُبَّ أَسِيرٍ فِي يَدِ الْهَوْلِ مَطْلُوقٌ وَمِنْطَلُوقٌ وَالدَّهْرُ أَسْوَقُ سَائِقٍ^(١)
إنه الانتظار ليوم لا ريب فيه ترى فيه مصارع المجرمين، فعندما تدعو على الظالمين في بعض الأحيان المؤلمة، كما دعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه، لا يعني ذلك أن ينزل النصر المبين فوراً، أو أن ينتقم الله جل جلاله من الظالمين فوراً، ويقول الله جل جلاله لك: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾^(٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ [الروم: ٥٨ - ٦٠].

الثبات على الدين نصر عظيم فلا تتعجل قطف الثمار:

وتكرّر الأمر بالصبر وتأکید وعد الله جل جلاله الحقّ يدلّ على كثرة الزلزلة التي تعتري المستعجلين لقطف الثمر في غير أوانه، كما يدلّ على شدة استهزاء المستهزئين، والله جل جلاله يبين لنبیه صلی الله علیه وآله وأُمّته أنّ مجرد الثبات نصر عظيم، وانتظار ما في الغيب لا يعني إهدار قانون السببية، والإعداد والتخطيط والعمل، والله جل جلاله يذكّرنا بالتغيير القادم لا محالة، لكن دون الالتفات إلى استفزازات الشاكرين غير الموقنين، فيقول سبحانه: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾^(٧٧) [غافر: ٧٧]، فقد تنوّفّى وأنت لم

(١) الأبيات لابن حزم الأندلسي. ينظر: جذوة المقتبس (ص: ١٣٤).

تر ما يُذهب غيظ قلبك من عقوبتهم أو من هدايتهم، وبعد هذه الآية في سورة غافر تجد الله تعالى يبين عدم قدرة الرُّسل ﷺ على إبراز آيات النَّصر على المجرمين إلا أن يشاء الله ﷻ فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨]، ولكن انتظار الغيب، والصبر لا يكون إلا على أعمالٍ بذلها الصَّالِحون تُوَدِّي إلى تحقيق النَّصر الدُّنيويِّ قبل الآخرويِّ، ومن أعظم الآيات التي يتشَوَّف لها الإنسان أن يبيِّن لعموم العالمين أن هؤلاء الذين يصلون مستكبرين قد خسف بهم، انظر إلى هذا الجمع المدهش الرَّهيب المجرم الموجود ضدَّ العُزَل في بقاع الأرض، انظر لما حدث للمحاصرين والمستضعفين ممَّن تُسرق ثرواتهم، وتُخطف بناتهم، ويُلعب بذريَّاتهم في مصانع الإذلال الإنسانيِّ الدَّوليِّ.. ومع سُنَّة التَّربُّص والانتظار والصبر تأتي سنة الارتقاب، والله ﷻ يريِّبنا على ذلك فيقول: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨، ٥٩]، ﴿فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [الفر: ٢٧]، والشُّعور بالمراقبة الإلهية ظلَّ باقيًا عند الحنفاء من العرب قبل الإسلام، فهذا زهير بن أبي سلمى يقول:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمُ^(١)

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص: ١٠٧).

المعلم الثالث: تحطيم صنم الذاتية البشرية؛ إذ يتشوق المظلوم للانتصار على الظالم، ويبالغ في ذلك حتى ينسى معالم إيمانه، وتوحيده، ويعمى عن كون الحكم الكوني بيد الله ﷻ، وأن تداول الأيام هو قانون الدنيا، وأن الابتلاء محورٌ للأحداث الحياتية القائمة، وأن الحق لا يكون منتصرًا دائمًا، كما أن الباطل لا يستمر على علوه:

ماذا يعني هذا الكلام؟

هذا كلام مركّز مكثّف محوره أنّ بعض المظلومين الذين يحملون لواء الحقّ يظنّون أنّهم لا بدّ أن ينتصروا لمجرّد حملهم للحقّ، ووقوع الظلم عليهم، والأمر ليس بهذا اليسر، فإنّ هناك عوامل متعدّدة تتعلّق بتداول الأيام، ومن هذه العوامل: ألاّ يحوّل المظلوم المحقّ نفسه إلى صنمٍ يعبد نفسه، ويظنّ أن الكون لا بدّ أن يتحرّك وفقّ أمره أو مظلوميّته، فالإنسان ليس له من الأمر شيء في الأمر الكونيّ.

ينسى المرء مع تطاول المدى مكانه، وقوّته، وقدرته.. ينسى أنه عبدٌ لله يخضع لاختبارٍ دنيويّ يصل به إلى مرتبة الفوز في الآخرة، وعند ذلك ربّما تعاظم في نفسه؛ إذ يرى نفسه منكسرًا غير منتصر، فيحدوه ذلك إلى أن يراجع منهجه لا بحثًا عن الأَرْضِى ﷻ والأصوب في هدي رسول الله ﷺ، بل بحثًا عن الأقرب لرضى القوى المهيمنة، والأنسب لتبوء منصبٍ محفوفٍ بالمداينة وسط الظلم العالميّ، وليكتسب الشرعيّة المناسبة لذلك يُغيّر على معالم دينه تغييرًا وتبديلًا في سبيل تحقيق طموحاته الدّائيّة، والتّغيير لمعالم دينه يأخذ درجات من التّغيير الجزئيّ إلى التّغيير الكلّيّ، فقد يدفعه الضّيق من الأوضاع القائمة إلى الإلحاد، فهذا أنموذجٌ للتّغيير الباطل بسبب التّعجّل وعدم التّربّص، ويقابل ذلك أن يضيق المرء ذرعًا بعدم نزول النّصر الذي يتوقّعه فيدفعه ذلك إلى الانتحار.

وقد تسأل: ما الفوز الحقيقي الكبير؟

الجواب: ليس الفوز الكبير بالمداهنة، ولا بتضخم الذاتية حتى يجعل المرء نفسه محوراً لتغيير الحياة لتوافق طموحاته الشخصية.. الفوز الكبير يتحقق بالثبات في المبادئ، وإن اكتسبت الوسائل المرنة المشروعة.. ولتنظر إلى قصة أصحاب الأخدود، حيث يموت الأبرياء حرقاً أمام ضحكات وحوش البشر، فيذكر الله ﷻ فوز المظلومين، ويرغب الظالمين في تغيير مواقفهم، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾ [البروج: ١٠، ١١].

تلاحظ أن المؤمنين من أصحاب الأخدود أحرقوا ولم يتمكنوا في الدنيا.. فهل هذه هزيمة؟ لا بد من تصحيح معيار الانتصار.

لقد قرّر الله ﷻ هذا القانون الخطير الذي يبين لك طبيعة أحداث الدنيا، فيقول —جلّ مجده—: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والعربي يفهم معنى كلمة (يعلم) هنا بأن المراد بها حسب سياقها، فالمراد بها علم ظهور ووقوع، وإلا فإن الله ﷻ يعلم ما كان وما يكون.

كما بين الله ﷻ علو الكافرين وتقلّبهم في البلاد في خضمّ التجاذبات الهائلة لهم مع أهل الحق، وفي خضمّ حملتهم المستعرة لاضطهاد الصادقين، فيقول سبحانه: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

كما يَبَيِّنُ ﷺ تعدُّد مظاهر الإيذاء الذي تجتمع عليه القوى المعتدية على الأبرياء فقال: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والآن أخبرني يا صديقي:

ماذا تقول عندما ترى خبراً تنشره الغارديان حسب موقع TR بتاريخ ٣١ / ١ / ٢٠١٦م أن عشرة آلاف من أطفال اللاجئين مفقودون في أوروبا! وَفَقَ ما أعلن جهاز الشرطة في الاتحاد الأوروبي (اليوروبول)، مبدئياً تخوفه من وقوع هؤلاء الأطفال في براثن عصابات تجار البشر، ويذكر أنهم عثروا على أدلة تشير إلى تعرض بعض الأطفال اللاجئين الذين لا ترافقهم عائلاتهم للاستغلال الجنسي؟

ماذا تقول وأنت ترى عشرات الآلاف من الأطفال والنساء يقتلون وتهدم عليهم البيوت بالصواريخ تحت إشراف المجالس الدوليّة التي تبدي قلقها الشديد زيادة في السُخريّة؟! ماذا تقول وأنت ترى من يسجنون الصغار والكبار لتكمل لهم صفقات السلاح بالمليارات، ويرحب بهم في المنتديات الدوليّة، ثم يخرج العالم المتقدّم ليعبر عن سُخريّته من عالم الدكتاتوريات الذين يستقبلونهم زعماءه؟!

ماذا تقول وأنت ترى الفساد في الأرض ينتشر بإشراف من يزعم نصره حقوق الإنسان؟! ماذا تقول وأنت ترى العدالة تتحكّم بها عنصريّة بشعة تسمّى الفيتو؟! ألا يتمنّى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً أن يروا آية في هؤلاء المجرمين الظّالّمين؟ ألا يردّدون قول لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]؟

فَهْدَى مِنْ خَوَاطِرِكَ قَلِيلًا حَتَّى لَا تَصْبِحَ الْعَاطِفَةُ الْعَاصِفَةُ الصَّادِقَةُ الْمَطْلُوبَةُ بِأَسَا.. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدَّرَ تَدَاوُلَ الْأَيَّامِ.

اعْلَمْ أَنَّ أَعْمَارَ الْأُمَمِ لَا تَبْنَى عَلَى الْأَعْمَارِ الْفَرْدِيَّةِ، فَقَدْ مَاتَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَلَمْ تَكْتَحِلْ أَعْيُنُهُمْ بِفَتْحِ مَكَّةَ.

المعلم الرابع: تَذَكُّرُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي حَدَّدَتْ الْأَجَالَ ضَمْنَ أَوْقَاتٍ لَا يُمْكِنُ تَقْدِيمُهَا وَلَا تَأْخِيرُهَا، سَوْءَ أَكَانَتْ أَجَالُ نَزُولِ الْغَيْثِ، أَمْ أَجَالُ الْإِنْتِصَارِ، أَمْ أَجَالُ نَزُولِ الْعَذَابِ:

فَاللَّهُ -تَعَالَى- مَجْدُهُ- يَقُولُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وَمَهْمَا كَانَتْ مَكَانَةُ الْمَصْلَحِ أَوْ عِبَادَتُهُ فَإِنَّ الْحُكْمَ الْكُونِيَّ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٨] قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩]، وَتَصَوُّرُ حَصُولِ خِلَافِ ذَلِكَ «يَقْتَضِي تَعْطِيلَ دَوَالِبِ كَثِيرَةٍ مِنْ دَوَالِبِ النَّظَامِ الْفَطْرِيِّ الْعَامِّ، وَذَلِكَ لَا يَرِيدُ اللَّهُ ﷻ تَعْطِيلَهُ لِمَا يَسْتَتَبِعُ تَعْطِيلَهُ مِنْ تَعْطِيلِ مَصَالِحِ عَظِيمَةٍ^(١)، وَهَنَا يَذْكُرُكَ اللَّهُ ﷻ بِأَنَّ كُلَّ ظَالِمٍ لَوْ كَانَ يَعَاقِبُ بِمَجَرَّدِ ظُلْمِهِ لِبَادٍ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، فَاللَّهُ ﷻ بَصِيرٌ بِمَا يَحْدُثُ عَلَى الْأَرْضِ، إِلَّا أَنَّ شَأْنَ الظَّالِمِينَ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّوْا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

(١) التحرير والتنوير (١٤ / ١٩٠).

[فاطمہ : ۴۵].

لقد لفت إلى هذا القانون الكليّ المحققون السابقون، فهاهو الشاطبي رحمه الله يقرّر -على طريقته- أن «المصالح المجتلبة شرعاً، والمفاسد المستدعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدُّنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية، والدليل على ذلك أن الشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من دواعي أهوائهم حتى يكونوا عباداً لله ﷻ، وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وَفْق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربُّنا سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ أَحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»^(١).

الآن فلاكن صريحاً معك: هل تعلم ما الذي يولِّده الإصرار على ضرورة الانتقام من الظَّالِمين حالاً؟ هل تعلم ما الذي ينتج عن الاعتقاد بحتمية أنك لا بدَّ أن ترى النصرة للمستضعفين فوراً؟

سؤالِي: هل تعلم ما الذي يحدث إذا لم يتحقَّق ذلك الاعتقاد؟
توقَّع أحد أمرين:

إمَّا اليأس الذي قد يدفع الإنسان إلى الانتحار، وإمَّا اليأس الذي قد يدفعه إلى الإلحاد.

هل تدري لماذا؟

عندما لا ترى الانتصار الفوريَّ على الظَّالِمين، وأنت تظنُّ أنه لا بدَّ أن يحدث.. وترى أنين المظلومين يشقُّ أرجاء الفضاء، ويتعالى حيث تحجزه الجدران القاسية، ويذهب هباءً مع التَّعذيب المستمرِّ.. عندما تشعر بذلك ربما قذف الشَّيْطان في قلبك أنه ليس هناك ربُّ يسمع هذه الصَّرخات.. وعندها يتدرَّج بك الشَّيْطان إلى الإلحاد، وربما نازعتك فطرتك السَّليمة

(١) الموافقات، للشاطبي (٢/ ٦٣).

هناك فيحدث لك زلزالٌ نفسيّ رهيب نتيجة الانتحار إن لم يكن الإنكار لقوة الواحد القهار.. أكتب ذلك ودمعي في المآقي وأنا أسمع عددًا من القصص التي حدثت لشباب كانوا يعدّون من خيرة الناس ذكاءً ودينًا.

المعلم السادس: عدم انتظار الخوارق:

التربص يقتضي اليقين بملك الله ﷻ للسموات والأرض.. فالآن تعال لتذوق خطاب ربك ﷻ لك يذكر هذه الحقيقة العظيمة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

بعد أن أثبت الله ﷻ لنفسه صفة القدرة المطلقة، وصفة الملك الشامل، وصفة الفعل المطلق، فلا يمكن للبشر أن يصنعوا شيئًا إن أراد بهم ضرًا هنا قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٨].

إن أسوأ ما في انتظار الخوارق تعطيل الطاقات، والبقاء دون حراك، إنه أخو الموت، إن لم يكن الموت ذاته.

وتساءل: ما الحكمة من مجيء هذه الآية في هذا الموضع بعد تلك الصفات؟

الجواب: من أسباب مجيء هذه الآية: بيان أن موسى ﷺ اعترض عليه في الأمور التشريعية ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وطلب منه المعجزات الخارقة ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾، وكل ذلك لم يفعله من عند نفسه وإنما بأمر ربّه ﷻ في الوقت الذي يشاؤه ربّه ﷻ، فلا تنتظر الخوارق؛ لأن الله ﷻ لم يأمرك بذلك.

وتصوّر الأمر والله ﷻ يقول لك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]، والجمال كلُّ الجمال هنا أن يذكركَ الله ﷻ بهذه الحقيقة التي تملأ قلبك بالسكينة، ثم يهون عليك بعد ذاك أن يسارع المسارعون في الكفر فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ومثل ذلك في عظمة الآيات وتلاؤها قول ربِّك تعالى جدّه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] هنا ترى الآيات تضمُّك بحنانها وحقائقها، فبعد أن تتيقن من حكم الله ﷻ وملكه وعلمه ينبغي أن تتذكَّر أنه يعلم بعبادتهم الوثنيَّة، وطاغوتيتهم المفرطة، وتعلم أيضًا بشدَّة عدوانهم على من يتلو الآيات ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١) وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٠ - ٧٢].

التَّربُّص يقتضي ألا تنتظر الخوارق، بل أن تعمل بما يجب عليك من الواجبات البوارق.

﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].
أيها الموفق: أفق أفق...!! لِمَ الإصرار على الفوز العابر الصَّغير في الدُّنيا، وجعله دليلًا على أن المبدأ الذي تسير عليه هو الحقُّ؟

أولم تر أن الأنبياء ﷺ صفوة الخلق قد قتلوا في سبيل الثَّبات على الحقِّ حتى وصف الله ﷻ أفعال المجرمين معهم فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ [البقرة: ٨٧].. فلماذا عَلَّقْتَ الثَّقَّةَ بالمبدأ الذي أنت عليه بالانتصار العاجل الصغير في الدنيا؟

قانون صارم: الانتقام من الظالمين في الدنيا ليس أمرًا حتميًا:

وهنا تسترجع القانون الصَّارم الذي قرَّره الله ﷻ في عاقبة الظَّالِمِينَ.. إِنَّهُ يَذْكُرْكَ عَزَّ جَارُهُ بأنه غير غافلٍ عن أفعالهم، وسيأتي الانتقام منهم في الدُّنْيَا، بيد أن ذلك لا يكون حتمًا؛ إذ الانتقام الحقيقي إنما يكون في الآخرة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وهل هناك خير من شعورنا بالمعاناة المتطاولة التي وقعت للصَّحابة رضي الله عنهم وهم يستمدُّون النِّصْرَ من أعظم الخلق وخليل الحقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ويطلبون منه أن يدعو للفصل بينهم وبين البطش القرشيِّ المستمرِّ؟ فَبِمَ أجابهم؟

اسمع إلى خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ رضي الله عنه يقول: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشقُّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم، أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله كَيِّمٌ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ؛ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنْ كُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

هنا يبيِّن الله ﷻ لك أنَّ الدُّنْيَا مهما رأيت فيها لا تساوي شيئًا أمام الإرادة الإنسانيَّة التي تصرُّ على أن تثبت على الحقِّ حتى تلاقي ربَّها.. فهديَّ من إصرارك على ضرورة التَّغْيِيرِ السَّريع،

(١) البخاري (٣٦١٢).

وقل كما قال شعيب عليه السلام من قبل: ﴿وَيَقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

وأعد التأمل والنظر في سورة هود عليه السلام لتعرّف إلى وجه من أوجه جلالتها، وسبب من الأسباب التي دعت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يقول: «شِئْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»^(١).

تجد الله تعالى يقول فيها: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿وَأَنْتُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]، ثم يقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]، فالله تعالى بيده الأمر وله الحكم، ولذا لا ينبغي أن يشتغل المرء بالدعاء على الظالمين وإن فعل ذلك أحياناً—، بل ينبغي أن يحرك قلبه وعقله بفعل الواجب عليه، كما قال تعالى ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] يتوب عليهم أو يعذبهم في الوقت المناسب، وهنا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] ليس بيدك أنت ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

واسمع إلى الله تعالى يقرّر لك حقيقة الدنيا في سورة الزخرف، ثم يربط ذلك كله بمسألة الانتقام من الظالمين فيقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] كأنه يقول: لولا أن ستنّي جرت بالتفاوت بين الناس، وإلا لجعلت كل كافر يملك البيوت المشيّدة من الذهب والفضّة، ولكن جرت ستنّي أنّه لا بدّ من تفاوت في الطبقات بين الأغنياء والفقراء من أجل

(١) الترمذي (٣٢٩٧)، وقال: «حسن غريب»، وصحّحه الألباني.

الاختبار والابتلاء، ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿وَرُحُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، ثم قال بعدها بآيات: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ [١] أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢] أي: قد ترى الانتصار للمظلومين، وتقر عينك بعقاب الظالمين، وقد لا ترى ذلك، وكم مات من الصحابة و هم لم تكتحل أعينهم بانتصار المسلمين، لكن الله ﷻ أقر أعينهم بشتاتهم على الدين، فحمزة رضي الله عنه رأى ما تقر به عينه في بدر.. فكيف تراه أحس عندما رأى بدايات ما حدث للمسلمين في أحد مع أنه ينبغي أن تقر عينه رضي الله عنه عندما وجد مسَّ الشهادة.. ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ [١] أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢] قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [٣] فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ - ٣٠] ﴿الْفَتْحُ﴾: قيل: بأنه فتح مكة^(١)، وقيل: هو الفصل بين المسلمين وأولئك المجرمين يوم القيامة^(٢)، حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقد يطلق على وقت نزول العذاب فوراً كما حصل لفرعون، وهذا السؤال المستفز: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) ذكر هذا القول الإمام الطبري رحمه الله، واعترض عليه بقوله: «ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله ﷻ لهم التوبة قبل فتح مكة وبعده، ولو كان معنى قوله: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ على ما قاله من قال: يعني به فتح مكة، لكان لا توبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة، ولا شك أن الله ﷻ قد تاب على بشر كثير من المشركين بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمان به وبرسوله»، ورجح أن يكون المعنى: متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم، يعنون العذاب. ينظر: تفسير الطبري (٢٠/١٩٨)، وضعف ابن عطية - أيضاً - القول بأنه فتح مكة، بنحو ما قاله الطبري، ثم قال: «فلم يبق إلا أن يكون الْفَتْحُ إمَّا حكم الآخرة، وهذا قول مجاهد 6، وإمَّا فصل في الدنيا كبر ونحوها». المحرر الوجيز (٤/ ٣٦٦)، واعترض أبو حيَّان على أن يكون المراد به يوم بدر، بأنه لا يطابق ما بعده، فقد آمن بعضهم ونفعهم الإيمان. ينظر البحر المحيط في التفسير (٨/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: الكشف (٣/ ٥١٧).



[السجدة: ٢٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١﴾ [النمل: ٧١] يَهْدِي اللَّهُ لِرُوحَاتِ بَنَاتِنَا الْجَوَابِ عَلَيْهِ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴿[الإسراء: ٥٢، ٥١]، فجعل الفتح الحقيقي يوم القيامة، بمعنى أنه قد لا يحصل في الدنيا، إنها سنة التريص المطمئنة للنفوس المعالجة لأزمات القلوب في القرآن الكريم، حين يقول الله ﷻ عن ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [الأنبياء: ٣٨ - ٤٠]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿[النمل: ٧٠ - ٧٢]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [سبا: ٢٩، ٣٠]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿[الملك: ٢٥، ٢٦].

ولذا لا عجب في أن يردَّ النبي ﷺ على من يستفزه من المشركين بذكر يوم القيامة مطمئناً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿[يس: ٤٨ - ٥٠] فموعدهم يوم يأتيهم الموت، لم يعدهم بأن يأتيهم العذاب الذي يزلزل غرورهم وكبريائهم وخيالاتهم.. نعم قد يأتي ذلك لكنه ليس مقصوداً في ذاته، وتأمل هذا المعنى المجيد في قول الله -جلَّ مجده- ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿[الرعد: ٣١].

أرح قلبك ولا تبخع نفسك ظاناً أنه يجب على الله ﷻ أن يقيم لك المجد
الدُّنيويَّ ودولة الكرامة الإنسانية في الدُّنيا لمجرد اتِّباعك للأسباب الماديَّة، أو
حتى لا تُتَّبعك لبعض الأسباب الشرعيَّة.. ألا ترى أن بعض الأنبياء مات وهو في
بلاء من عصيان قومه الفاسقين حيث يتيهون في الأرض، والله ﷻ يقول له:
﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

ألم تسمع أن نوحاً ﷺ لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو لم ير فجر الانتقام من
المجرمين إلا بعد هذه المدَّة المتطاولة؟ ألم تسمع دعاء موسى ﷺ بحرارة شديدة يقول
لربه ﷻ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]؟
فبيِّن الله ﷻ له أنه أجاب دعوته، ولكن ليس فوراً فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا
وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، فجعل الاستقامة هي عين الفوز وأعظم
المجد والكرامة.. لم يجعله في إجابة الدُّعاء بالانتصار الفوريِّ مع أن موسى ﷺ كان
صاحب معجزات ماديَّة مشهورة.. أمّا كان يمكن لعصاه أن تلقف فرعون كما لقفت ما يافك
سحرته؟ حتى ذكر بعض المفسِّرين أنه كان بين دعوة موسى ﷺ ووقوع ما دعا به مما أجاب
الله تعالى فيه دعوته في الواقع أربعون عاماً^(١).. وحسبك أن الله ﷻ وعد المظلوم بالنصر، لكن
ذلك قد يحدث فوراً، وقد يحدث بعد حين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/١٩٨٠)، تفسير الثعلبي (٥/١٤٥)، تفسير الماوردي (٢/٤٤٨)، تفسير الرازي (١٧/٢٩٤)،
تفسير ابن كثير (٤/٢٩١).

«ثلاثةٌ لا تردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصَّائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السَّماء، ويقول الرَّبُّ **يَكْفِكَ**». وعزتي لأُنصِرَنَّكَ ولو بعد حين^(١).

المعلم السابع: اقتران سُنَّة الانتظار والتَّرقُب والتَّريُّص بالتَّوَلَّى عن تُرْهات الفاسقين واستفزازاتهم:

والإعراض عن قبح أفعالهم ولؤمهم، والهجران لباطلهم.. وذلك كله لا يعني ترك مواعظهم وتذكيرهم مع جعل التَّركيز الأكبر تعاهد المؤمنين ليزدادوا ثباتًا، ولذا يأمرُ الله **يَكْفِكَ** أيُّها المحبُّ لهداية الخلق بالتَّوَلَّى عن ردود الفعل المتشنَّجة أمام مؤامراتهم وانفعالاتهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝﴾، ثم أمره بالتَّركيز على تذكير المؤمنين فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٥]، وأمره ألا يقتل نفسه غمًّا أمام عنادهم وتكذيبهم للحقِّ المبين، بل أن يتولَّى عنهم فقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۝﴾، ثم ذكره بالقيامة التي يكون فيها يوم الفصل، فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ۝﴾ [القمر: ٣ - ٦]، وذكره بأن الفصل الحقيقي بين الأنبياء **عليهم السلام** ومجرمي العالم من المكذَّبين إنما يكون إذا قامت السَّاعة فقال: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفُصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفُصْلِ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [المرسلات: ١١ - ١٥].

(١) أحمد (٨٠٤٣) وقال الأرنؤوط: «صحيح بطرقه وشواهد»، الترمذي (٢٥٢٦)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَلِكَ الْقَوِيِّ، وَلَيْسَ هُوَ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ» وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثُ بِإِسْنَادٍ آخَرَ عَنْ أَبِي مُدَلَّةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رضي الله عنه**، عَنْ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، وَصَحَّحَهُ الألباني، في صحيح سنن الترمذي.



مفهوم الإعراض والفئات التي أمر النبي ﷺ بالإعراض عنها:

وانظر كيف يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ عن أقوام شتى:

(١) فقد أمره بالإعراض عن المشركين، فقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٩١] إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

(٢) وبالإعراض عن الجاهلين، وهو وصف يشمل جفاة المسلمين أنفسهم، فقال ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [١٩١] [الأعراف: ١٩٩].

(٣) وكذلك أمره بالإعراض عن الدنيويين عبدة المصالح الضيقة، فقال ﷺ: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٢٦] [النجم: ٢٩].

(٤) وأمره بالإعراض عن المنافقين مع عدم إغفاله لاستمرار دعوتهم بالقول البليغ، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [٦٣] [النساء: ٦٣].

(٥) وأمره بالإعراض عن المتأمرين مع أخذ الحذر والتوكل على الله ﷻ، كما في سياق سورة النساء فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُتْ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٨١] [النساء: ٨١].

(٦) وأمره بالإعراض عن الخائضين في آيات الله ﷻ مع بقاء مخالطتهم عندما يتمكن من تذكيرهم بما ينفعهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [١٨] [الأنعام: ٦٨].

(٧) كما أمره الله ﷻ أن يهجر أقوالهم هجراً جميلاً، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [١٠] [المزمل: ١٠]، والهجـر الجميل هو الذي لا عتاب معه.. يتسامى فيه

السَّالِكِ فِي طَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ أَنْ يَرُدَّ عَلَى كُلِّ فِعْلٍ قِيَحٍ بِمَثَلِهِ، أَوْ يَرُدَّ عَلَى كُلِّ سُوءٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَلِذَا عَلَّمَ اللَّهُ -تعالى جُدَّهُ- نَبِيَّهٖ ﷺ الْإِعْرَاضَ، وَكَمَا أَنَّ الْإِعْرَاضَ لَا يَعْنِي عَدَمَ الْمَخَالَطَةِ، فَهُوَ أَيْضًا لَا يَعْنِي التَّنَازُلَ وَالْمَدَاهِنَةَ، فَقَالَ ﷺ: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وَأَنْتَ لَوْ تَدَبَّرْتَ مَا سَبَقَ لَمْ تَجِدِ الْإِعْرَاضَ مُوقِفًا سَلْبِيًّا انْسِحَابِيًّا هَرُوبِيًّا بِقَدْرِ مَا هُوَ تَعَامَلٌ إِيْجَابِيٌّ مُبَادِرٌ مَعَ أَصْنَافٍ وَظُرُوفٍ لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَنْسَبُ لِمُوَاجَهَتِهَا وَالتَّعَامُلَ مَعَهَا مِنَ الْإِعْرَاضِ الْمَوْجَّهَ سَبِيلًا.

لَقَدْ اسْتَقَرَّتْ سُنَّةُ الْإِنْتِظَارِ وَالتَّرَبُّصِ فِي إِدْرَاكِ الصَّالِحِينَ لِحَرَكَةِ الْكَوْنِ؛ وَلِذَا يَعْلَمُ اللَّهُ -تعالى ذِكْرَهُ- نَبِيَّهٖ ﷺ أَنَّ يَرُدُّ دَعَاءَ رَائِعًا يَضْمُنُهُ هَذِهِ السُّنَّةُ، فَيَقُولُ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيتَنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ [١٣] رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [المؤمنون: ٩٣ - ٩٤]. فَتَرَاهُ يَبَيِّنُ فِي دَعَائِهِ أَنَّهُ قَدْ يَرَى مَا يُوعَدُ بِهِ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ، وَلَكِنْ رُؤْيَا مُصِيرِهِمْ مِنْ عَدَمِهِ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي لَا بَدَّ مِنْهَا، بَلِ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ أَلَّا يَكُونَ الْإِنْسَانُ جِزْءًا مِنْ بَرَامِجِهِمُ الْمُجْرِمَةِ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٤]، وَيَذْكُرُ اللَّهُ ﷻ عَبْدَهُ الْمُنِيبَ ﷺ بِالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ فَيَقُولُ: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، ثُمَّ يَبَيِّنُ لَهُ كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ الْأَمْثَلِ أَمَامَ الظَّالِمِينَ لِاسْتِيعَابِ الْمَرْحَلَةِ ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وَلِنَخْتِمَ هَذِهِ التَّأْمُّلَاتِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمَدْهَشَةِ فِي تَقْرِيرِ هَذِهِ السُّنَّةِ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ [١٧٢] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [١٧٣] [الصَّافَّاتِ: ١٧١ - ١٧٣]، لَكِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ [١٧٥] أَفْبَعَادُنَا يَسْتَعْجِلُونَ [١٧٦] فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ [١٧٧] وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ [١٧٨] وَأَبْصَرِ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ [١٧٩] [الصَّافَّاتِ: ١٧٤ - ١٧٩].

الأنموذج الثاني عشر

أنموذج لعواقب الاستسلام لسُنِّي الغفلة والكبر (عُفْدَة قَبِيلَة إِيَاد)

من أهمَّ سُنَنِ التَّحَوُّلات المدمِّرة التي يجب الإنذار منها: الوضع الذي يجمع الشَّائِي المتن: الكبر المعجون بالغفلة، وكما تجد أنَّ المتكبرين لا يُمْكِنُهم كِبَرُهم من أن يقرؤوا الأحداث القراءات الصَّائبة، فإنَّ الغافلين لا يهتدون سبيلاً للسَّداد في التَّعامل مع تغيُّرات الحياة المتتابة، ويقرن هذا الشَّائِي غالباً، فلا تراه ينفكُّ في الصِّفات الإنسانيَّة غير السَّويَّة، واسمع لذلك في قوله -تعالى- مجده: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فلماذا يصرون على التَّغافل المذموم؟ بل لماذا يختارون البرامج السَّياسيَّة والثقافيَّة التي تصنع الغفلة في المجتمعات؟ أما يشعرون بالحساب القريب؟ ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

والقلوب اللّاهية تتفنن في اصطناع برامج الغفلة الترفيحية التي تدمر القلوب والعقول، وتأخذ بالأفكار بعيداً عن واجبات الحياة، وتبعات صنع الأمجاد، وحتى يطمثوا لعدم وجود أناسٍ يتطهَّرون في صفوفهم تراهم بعد ذلك يعتقدون مجالس التَّأمر لصدِّ المصلحين عن إحداث أدنى تغييرٍ نحو الأحسن في واقع المجتمعات الغافلة.

وهذا ما توضّحه الآيات متتابعة في صورةٍ مذهشة فيقول الله -تعالى مجده-: ﴿وَأَسْرُوا
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]
يتآمرون على المصلحين ليقبوا غافلين يعيشون في الأرض مسرفين.. فماذا تكون النتيجة إلا
الدمار ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

وبيّن قتادة رحمته الله كيف كانت هذه الآية عند سماعها توقظ القلوب الغافلة.. لكنهم ما
يلبثون أن جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا على برامج غفلتهم،
واستكبروا استكباراً.. فيخبر رحمته الله أنه لما نزل قوله تعالى ذكره ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ
فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] قال ناس من أهل الضلالة: يزعم صاحبكم محمد أن
الحساب قد اقترب، فتناهوا قليلاً، ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء، فلما أنزل الله تعالى
﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] قال ناس من أهل الضلالة: يزعم صاحبكم هذا أن أمر
الله ﷻ قد أتى، فتناهى القوم قليلاً، ثم عادوا إلى عكرهم عكر السوء (أي: إلى أصلهم)، ثم
أنزل: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ﴾ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً
عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزون ﴿٨﴾ [هود: ٨] (١).

الغفلة تُنتِجُ أبشع النتائج التي لا تنبئ عن الفشل ووقف التّقدّم الحياتيّ للفرد
والأمة والدولة فحسب، بل تُنذر بوقوع الكوارث الكبيرة، وقد عالج القرآن داء
الغفلة ضمن الأساليب التربويّة القرآنيّة المميّزة من جهات متعدّدة، وعقد سوراً
بأكملها لعلاج هذه الداء المدمر.

(١) الفائق في غريب الحديث (٣ / ١٩).

الإندار أسلوب قرآني مؤثر لعلاج داء الكبر والغفلة:

كان من أهم أساليب معالجة هذين الداءين المدمرين الإنذار، فهو أحد أهم أوصاف الرسالة الإلهية.. لماذا؟ لأنه يعني التحذير المشفق بأسلوب قوي حتى يستيقظ الغافلون ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، والإنذار إعلامٌ مشفقٌ من التبعات المستقبلية إذا لم يحذر المنذرون، ويحصنوا أنفسهم، ويتركوا جوانب الإفساد التي تحمل في طياتها بذور الفناء لمجدهم، ودولتهم، ولذا قالوا: عليك بمن ينذر الإبسال والإبلاس، وإياك ومن يقول: لا بأس ولا تأس.

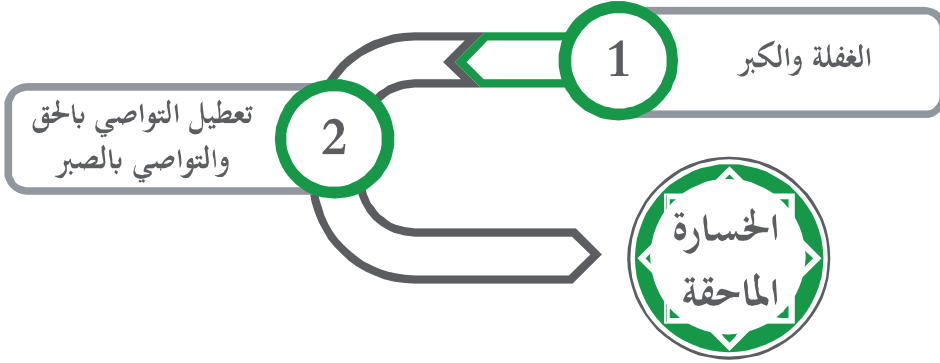
الاغترار بالنجاح، والتّمكين مصدر الغفلة والكبر، والنتيجة: الانهيار العاجل المرعب:

إن رجعت إلى البصائر القرآنية رأيت أن الله ﷻ يذكر الانهيار والتغيّر المدمر عقب التّمكين المطمئن غالباً، فتأمل ذلك في قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

حالة الفقر تثير التحدي لمحاولة التخلّص من حصار الاحتياج إلى الآخرين، وحالة الاضطهاد تستفز المضطهد لبحث عن الحلول للخروج من واقع الاضطهاد، بينما تُنتج حالة الاغترار بالتّمكين نوعاً من سكرة النشوة، تجعل صاحبها غافلاً عن الاجتياح القادم من رحم الغيب.. تأتيه دواهي الزمان بينما هو غافلٌ في سكرة الفرحة، وغمرة الطرب بما وصل إليه من إنجازات ونجاح، ويزداد الشعور باقتراب الخطر إن صاحب الغفلة الاستكبار عن سماع النصائح.

۲۲۸

الوقوع في الغفلة المقترنة بالكبر، ينتج الخسارة الماحقة وفق المعادلة الآتية:



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وما زالت الأمم التي تهيمن لفترةٍ طويلةٍ على عرش القيادة في الأرض تحذر من الآثار المدمّرة للنجاح، ففي نصح فريد زكريا رحمه الله للعالم الأميركي المستعلي على الأرض يذكر لهم خطورة الغفلة بعد أن تهيأت لهم القدرة على صنع القرار في الأرض، فيقول: «التركيز على الهموم الباعثة على الكآبة صرفنا عن الاهتمام بالكثير من المشاكل الكبيرة التي نواجهها اليوم، وهي ليست ناتجة عن الإخفاق، بل عن النجاح»^(١).

فحالتنا الفقر والاستضعاف غالباً ما توجدان حالة التّحدي في النفوس العزيزة، وفي المقابلة توجدان ليس القابلية للاستعباد فقط، بل المحبة للعبودية في النفوس الذليلة، بخلاف حالة الرّخاء المطمئن فإنه يصنع الغفلة المقترنة بالكبر في الجهتين إلا لمن أبقى حالة الطوارئ قائمة في نفسه، فحالة الفقر والاستضعاف قد تنتج حالتين متضادتين حسب التعامل معهما، حسب المعادلات الآتية:

(١) عالم ما بعد أمريكا (ص: ٤٤).



تَجَنَّبُوا الشَّيْءَ الَّذِي فَبِذَاكَ

تفاوت الأثمان التي يدفعها الغافلون حسب مقدار المسؤوليات:

تصبح الأثمان التي تدفعها البشرية أعلى عندما تزداد مسؤوليَّة الغافل، ومن الغفلة الكثيفة والكبر المستتر أن يتخوَّف المسؤول من نبوغ من دونه في المسؤوليَّات، وفي العالم الذي ينتمي إلى الإسلام ظاهراً اليوم من هذا شيء كثير إلى حدِّ التَّفَرُّز.

إن كثيراً من رؤوس الدول يتخوفون من نبوغ حقيقيٍّ لمن دونهم، بل ترى الواحد منهم يخاف أن يبرز من يقوم هو بتوليته على وزارة أو إدارة، وترى في هذا العالم تخوُّف بعض من قادة العمل الإسلامي من بروز من تحتهم، وما زال الشيطان يلقي على أياديهم سياط البغي على أصحابهم بدلاً من استيعاب الطاقات وتحريكها لتمارس دورها في قيادة الحياة.. وكم يؤخّر ذلك في تغيير الحياة نحو واقع أفضل.. فاقصص القصص الواقعية لعلهم يتفكرون.

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الاكتشاف الثمين الذي ارتبط بالقائد الصليبي (كريستوفر كولومبوس) كان يمكن أن يكون من نصيب الأدميرال الصيني (زينغ هي) الذي بدأ رحلاته قبله بأكثر من خمسين عاماً، حيث استهلّ رحلاته منذ عام ١٤٠٥م نحو سواحل أفريقيا بواسطة أساطيل من السفن الضخمة وصلت إلى ٣٠٠ سفينة، وكان على متنها نحو ٣٠ ألف بحار، وكان يستولي على الخيرات والثقائس النواذر ويجلبها إلى الصين، وهناك بعثات صينية تحاول استخراج آثار لهذه الرحلات في كينيا.. لم تكن بعثة (كولومبوس) بالضخامة ذاتها التي كانت عليها السفن الصينية، بل كان مع (كولومبوس) فيما يذكرون ٤ سفن، ومائة وخمسون بحاراً - مع أن عندي نظراً في ذلك - وقد ذكروا أن سفينة واحدة ذات تسع صواري ضمن الأسطول الصيني أكبر أربع مرّات من سفينة (كولومبوس) الرئيسة (سانتا ماريا)، فكيف حازت الأمبراطورية الأسبانية قصب السبق؟!

تولّى إمبراطورٌ صينيٌّ جديد الحكم، وأصدر قراراً غريباً بمنع بناء أيّ سفينة تحوي أكثر من صاريتين، ثم منع الإبحار إلى مدى بعيد، بل تم إحراق كثير من الإنجازات السابقة في البناء المتطوّر للسفن.. هناك فاز بالغنائم من بذل أسبابها، ومشى على سُننها.

ولخص فريد زكريا ﷺ سبب تقدّم أوروبا على الصّين بما يعادل ثلاثة قرون فقال: «هذه مأساة آسيا: لم يكن هناك تعلّم بالرّغم من وجود المعرفة!»^(١).

كيف يكون هناك تعلّم؛ إذا كانت الغفلة جاثمة على رؤوس البلد، والكبر يسيطر عليهم؟ هل يسمعون نصحاً أو يجذبهم ابتكار؟

الذي أغفله فريد زكريا ﷺ في تعليقه النّهائي هو ما ركّز عليه أولاً وهو الامبراطور الصّيني الذي كان حاجزاً دون التّوسّع في التّعلّم والاستكشاف، وكم يقف رؤوس الدّول والأمم حائلاً دون كرامة دولهم وأممهم!

إن غفلةً صغيرة في مشوار النّجاح تعني الكثير من الأثمان الفادحة.

كما قال محمد إقبال ﷺ:

حينما تدري الحياة المطلبيا تجعل الكون إليه سبباً
لحظةً يا صاحبي إن تغفل ألف ميل زاد بُعد المنزل
رام نقش الشوك حيناً رجل فاخترى عن ناظره المحمل^(٢)

والمشكلة أنّ هذه الأثمان قد لا تكون منظورة بصورة واضحة في بداية المشوار لكنها ستكون أساس الكارثة الكبرى المختبئة في حجب الغيب، فانظر حوايك في آثار الاضطرابات التي وقعت في ٢٠١١م، وما بعدها.. إنها الغفلة عن المآلات الفظيعة للأفعال المتسرّعة.

إن المتبّع لمسيرة الحركات الإسلاميّة المعاصرة، المتأمّل في الثمن الفادح الذي تدفعه، والتّعثر الواضح في مسيرتها -رغم تعاظم الصّحة المستمرّ- يدرك بسهولة أنها تعاني من أزمة

(١) عالم ما بعد أمريكا (ص: ٧٥).

(٢) ديوان محمد إقبال (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

۲۳۳

وَإِذَا كَانَتِ الْغَفْلَةُ سُنَّةَ الدَّامَارِ فَإِنَّ الْيَقْظَةَ سُنَّةَ الْإِعْمَارِ وَالِاتِّصَارِ، وَالْيَقْظَةُ: «انْزِعَاجُ الْقَلْبِ لِرُوعَةِ الْإِتْبَاهِ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَلِلَّهِ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الرُّوعَةَ، وَمَا أَعْظَمَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ إِعَانَتَهَا عَلَى السُّلُوكِ! فَمَنْ أَحَسَّ بِهَا، فَقَدْ أَحَسَّ -وَاللَّهِ- بِالْفَلَاحِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي سَكْرَاتِ الْغَفْلَةِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ أَوْجَبَتْ لَهُ الْيَقْظَةُ الْفِكْرَةَ، وَهِيَ تَحْدِيقُ الْقَلْبِ نَحْوَ الْمَطْلُوبِ الَّذِي قَدْ اسْتَعَدَّ لَهُ، فَإِذَا صَحَّتْ فِكْرَتُهُ أَوْجَبَتْ لَهُ الْبَصِيرَةَ، فَهِيَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُبْصِرُ بِهِ... فَالْبَصِيرَةُ مَا خَلَّصَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، إِمَّا بِإِيمَانٍ وَإِمَّا بِعِيَانٍ»^(١).



عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ مُقْبِلِ الْمُجِيدِ

ألا إنه ليؤلم القلب المعلق بالقرآن حال الذين اقترب حسابهم وهم في غفلة معرضون، يتأملون على مجموعاتهم، ثم لا يقومون بواجباتهم لحفظها وتنميتها، فلا يحسبون حساب المخاطر المستقبلية، ولا يبنون البلدان، ولا يخشون حساب الدَّيَّان.. وأفعالهم ستأتي عاجلاً أم آجلاً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

قبيلة إباد وغفلة سوق النقاد:

ولئن كانت غفلة الأندلسيين دفعت بهم إلى أسفل سافلين، فتلك سُنَّةٌ لا تتخلف في عالم الوقائع الاجتماعية.. فتذكر حال الجاهليين من قبيلة إباد عندما انشغلوا بسوق النقاد (وهو

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٤٢).

من الأسواق التَّجَارِيَّة الحَضْرِيَّة التي تباع فيها الأنعام)، وأصبح علامة على الغفلة عمَّا حولهم من أخطار، بينما كان كسرى يعدُّ لهم العَدَد والعُدَد، وقد نصَّحهم لقيط بن يعمر الإياديُّ مستغلًّا موقعه في بلاد كسرى، فأرسل إليهم:

سلامٌ في الصَّحيفة من لَقيطٍ	إلى مَنْ بالجزيرة من إيادٍ
بأنَّ اللَّيْثَ كسرى قد أَتاكم	فلا يَشْغَلْكُمْ سُوْقُ النَّقَادِ
أَتَاكُمْ مِنْهُمْ سِتُّونَ أَلْفًا	يزْجُونُ الكَتَائِبَ كالْجَرَادِ

عَلَى حَسَنَاتِكُمْ فِي هَذَا
إِلَّا أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَلْتَفِتُوا، فَلَمْ يَأْسَ، وَأَعَادَ الْإِرْسَالَ كَرَّةً أُخْرَى فِي قَصِيدَةٍ مِنْ عِيُونِ قَصَائِدِ
التَّبْلِغِ الْعَالَمِيَّةِ، وَتَمَثَّلَ خُطَّةً مُتَكَامِلَةً لِلنُّهُوضِ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَمُوَاجَهَةِ الْأَخْطَارِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ الَّتِي
تَهْدِدُ الْأَمْنَ الْقَوْمِيَّ، وَلَأَهْمِيَّتِهَا وَلَاسْتِحْقَاقِهَا أَنْ تَكُونَ دَرَسَةً مُسْتَقْلَةً نُورِدُهَا كَامِلَةً كَمَا
رَوَوْهَا، فَقَدْ قَالَ فِيهَا:

بَلْ أَتَيْهَا الرَّاكِبُ الْمَرْجِي عَلَى عَجَلٍ
أَبْلَغَ إِيَادًا وَخَلَّلَ فِي سَرَائِهِمْ
يَا لَهْفَ نَفْسِي أَنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ
أَلَّا تَخَافُونَ قَوْمًا لَا أَبَا لَكُمْ
أَبْنَاءُ قَوْمٍ تَأَوُّوْكُمْ عَلَى حَقِّ
أَحْرَارٍ فَارِسَ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ لَهُمْ
فَهُمْ سِرَاعُ إِلَيْكُمْ بَيْنَ مُلْتَقِطٍ
لَوْ أَنَّ جَمْعَهُمْ رَأَمُوا بِهَدَّتِهِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَسْنُونُ الْحِرَابَ لَكُمْ
لَا الْحَرْثُ يَشْغَلُهُمْ بَلْ لَا يَرَوْنَ لَهُمْ
وَأَنْتُمْ تَحْرُثُونَ الْأَرْضَ عَنْ عَرَضٍ
نَحْوَ الْجَزِيرَةِ مُرْتَادًا وَمُتَّجِعًا
إِنِّي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أُعْصَ قَدْ نَصَعَا
شَتَّى وَأُحْكِمَ أَمْرَ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
أَمْسُوا إِلَيْكُمْ كَأَمْثَالِ الدَّبَا سُرْعَا
لَا يَشْعُرُونَ أَضَرَّ اللَّهُ أَمْ نَفَعَا^(١)
مِنَ الْجُمُوعِ جُمُوعٌ تَزْدَهِي الْقَلْعَا^(٢)
شَوْكًا وَآخِرُ يَجْنِي الصَّابَ وَالسَّلْعَا
شَمَّ الشَّمَارِيخِ مِنْ نُهْلَانٍ لَانْصَدَعَا
لَا يَنْهَجِعُونَ إِذَا مَا غَافِلٌ هَجَعَا
مِنْ دُونِ بَيْضَتِكُمْ رِيًّا وَلَا شَبَعَا
فِي كُلِّ مُعْتَمَلٍ تَبْغُونَ مُزْدَرَعَا

(١) ديوان لقيط بن يعمر الأيادي، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، ووزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، (ص: ٢٨، ٢٩).

(٢) تأوى القوم: أوى بعضهم إلى بعضهم الآخر وانضموا.

(٣) وهي الصخرة المنفردة العظيمة تشبه بها السحابة العظيمة. ينظر: تاج العروس (٢٢/٦٤).

لَا تَفْزَعُونَ وَهَذَا اللَّيْثُ قَدْ جَمَعَ
هَوْلٌ لَهُ ظَلَمٌ تَغْشَاكُمْ قِطْعَا
وَقَدْ تَرَوْنَ شِهَابَ الْحَرْبِ قَدْ سَطَعََا
يُضْحِي فُؤَادِي لَهُ رِيَّانٌ قَدْ نَقَعََا
ثُمَّ افْزَعُوا قَدْ يَنَالُ الْأَمْرَ مَنْ فَزَعََا
وَجَدُّوا لِلْقَيْسِيِّ النَّبْلَ وَالشَّرْعَا
كَمَا تَرَكْتُمْ بِأَعْلَى بِيْشَةَ النَّحْعَا
فَقَدْ لَقِيتُمْ بِأَمْرِ حَازِمٍ فَزَعََا
يُرْجَى لِعَابِرِكُمْ إِنْ أَنْفَكُمْ جُدْعَا
إِنْ يَظْمُرُوا يَحْتَوُوكُمْ وَالتَّلَادَ مَعََا
لِأَهْلِهَا إِنْ أُصِيبُوا مَرَّةً تَبْعَا
عَلَى نِسَائِكُمْ كِسْرَى وَمَا جَمَعََا
إِنْ طَارَ طَائِرُكُمْ يَوْمًا وَإِنْ وَقَعََا
فَشَمِّرُوا وَاسْتَعِدُّوا لِلْحُرُوبِ مَعََا
رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلْعَا
وَلَا إِذَا عَصَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعَا
هَمْ يَكَادُ أَذَاهُ يَحْطِمُ الضَّلْعَا
يَوْمٌ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلَعَا

وَتَلْبَسُونَ ثِيَابَ الْأَمْنِ صَاحِيَةً
وَقَدْ أَظْلَكْتُمْ مِنْ شَطْرِ نَعْرِكُمْ
مَا لِي أَرَاكُمْ نِيَامًا فِي بُلْهَنِيَةٍ
فَاشْفُوا غَلِيلِي بِرَأْيٍ مِنْكُمْ حَسَنِ
قُومُوا قِيَامًا عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ
صُونُوا خِيُولَكُمْ وَاجْلُوا سُيُوفَكُمْ
وَلَا يَدَعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لِنَائِبَةِ
فَإِنْ غَلِبْتُمْ عَلَى ضِمٍّ بِدَارِكُمْ
هَيْهَاتَ لَا مَالَ مِنْ زَرْعٍ وَلَا إِبِلٍ
لَا تُثْمِرُوا السَّمَالَ لِلْأَعْدَاءِ إِنَّهُمْ
وَاللَّهِ مَا أَنْفَكْتَ الْأَمْوَالَ مُذْ أَبَدٍ
يَا قَوْمَ لَا تَأْمَنُوا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا
هُوَ الْجَلَاءُ الَّذِي تَبْقَى مَذَلَّتُهُ
هُوَ الْفَنَاءُ الَّذِي يَجْتَثُّ أَصْلَكُمْ
وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ
لَا مُتَرَفًّا إِنْ رَحَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ
لَا يَطْعُمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ

مَا زَالَ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ
وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُثْمَرُهُ
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ
هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ
لَقَدْ بَدَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلا دَخَلٍ
يَكُونُ مُتَّبِعًا يَوْمًا وَمُتَّبِعًا
عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْغِي لَهُ الرِّفْعَا
مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لَا فَحْمًا وَلَا ضَرْعًا^(١)
فَمَنْ رَأَى مِثْلَ ذَا رَأْيًا وَمَنْ سَمِعَا
فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَا^(٢)

(١) الفَحْمُ: الكَبِيرُ السِّنُّ جِدًّا، وَالضَّرْعُ: الصَّغِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَوِ الصَّغِيرُ السِّنُّ، وَقِيلَ: هُوَ الضَّعِيفُ النَّحِيفُ الضَّاوِي الْجِسْمِ.
يَنْظُرُ عَلَى التَّرْتِيبِ: تَاجُ الْعُرُوسِ (٢٣٣/٢٣١)، (٤٠٨/٢١).
(٢) دِيوَانُ لَقِيطِ بْنِ يَعْمَرَ الْأَيَادِي (ص: ٣٣-٥٠).

الأنموذج الثالث عشر

سُنَّة (ليس لهم أن يعلنوا)

من السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ المعتمدة على المنهج التجريبي

نَصَّ النَّبِيُّ ﷺ على هذه السُّنَّة لما أشرف المشركون على المسلمين من أعلى الجبل في غزوة أُحُد فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعلُنَا»^(١)، أي: ما كان أن تتحقَّقَ لهم سُنَّةُ العلُوِّ على المسلمين؛ إنه ﷺ يعبِّر عن خرق السُّنَّةِ الإِلَهِيَّةِ القطعيَّة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

تغلَّبُ المنافقين مع أوليائهم^(٢)، يعتمد على رخاوة المؤمنين في إيمانهم، ويصِّرنَا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

فلا يمكنهم أن يستولوا على المؤمنين إن استمسك المؤمنون بإيمانهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿غَافِر: ٥١، ٥٢﴾، والاستمسك بالإيمان يعني القيام بمقتضيات الإيمان، سواء منها ما تعلَّق بالعبادات القلبية، أو العبادات الشعائريَّة، أو العبادات المعاملاتيَّة، وشرط لذلك أن يكون المؤمنون مؤمنين، وأن يحقِّقوا حقيقة الإيمان لا صورة الإيمان، وهذا الوصف لا يتحقَّق لهم إلا ببذل السَّبب الماديِّ والشَّرعيِّ، فالإيمان يقتضي التَّمسُّك بالشَّرع،

(١) أحمد (٢٦٠٩)، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن».

(٢) الكلام في الآية مستقى من كتابي "بصائر المعرفة القرآنية - التفسير المفصل لسورة النساء" (٣/ ١٣٤٧-١٣٤٩).

ومن الإخلال بمقتضيات الإيمان مDAHنة هؤلاء الخونة، وتولييتهم المناصب، وائتمانهم على تجاراتهم، ومعاملاتهم، والإيمان يقتضي الاستفادة من سُنن الحياة الدنيا، وإعداد ما استطاع المسلمون من قوة، «فَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُنْشِئُوا الْبُورَاجَ الْمُدْرَعَةَ، وَالْمَدَافِعَ الْمُدْمَرَةَ، وَيَتَعَلَّمُوا مَا يَلْزَمُ لَهَا وَلِلْحَرْبِ مِنَ الْعُلُومِ الرَّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَالْمِيكَانِيكِيَّةِ، وَهِيَ فَرَضٌ عَلَيْهِمْ بِمُقْتَضَى قَوَاعِدِ دِينِهِمْ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَقَدْ تَرَكُوا كُلَّ ذَلِكَ، بَلْ صَارَ أَذْعِيَاءُ الْعِلْمِ فِيهِمْ يُحَرِّمُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ».

وختام الآية بمثل هذا القانون يدلُّ على الإحكام المتقن في القرآن، فمع هذا المكر الهائل الجامع بين العتاة من المنافقين والكافرين يطرح السؤال نفسه: هل يتأتَّى لهم التَّمكُّن من السَّيطرة على المسلمين أو تدميرهم؟

فيأتي الجواب:

أولاً: نعم إذا غفل المسلمون عنهم، ولم يكن الانتباه لخطورتهم ضمن أولويات الأمن القومي، فإذا غفل المسلمون تسلَّط هؤلاء المجرمون، ولا يعني ذلك أن الله ﷻ لن يعاقبهم، لكن عقابهم يكون في الآخرة لغفلة المسلمين؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

الكافرون يكون لهم سبيل إذا دَمَرُوا معنى الإيمان وحقيقته، ومن ذلك ألا ينتبه المؤمنون إلى أن الإيمان ليس مجرد تدبُّن شخصيٍّ، بل هو أساس في عملية الأمن القومي.

ثانياً: إذا لم يغفل المسلمون فلن يستطيع هؤلاء المجرمون التَّسلُّط عليهم ولا الفوز في مكائدهم، بشرط أن يثبت المؤمنون على شروط الإيمان: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٤١﴾، وبذلك ينصر الله ﷻ المؤمنين على هذا الصَّنَفِ المجرم من المنافقين المخادعين.

وبذا «يطمئن الذين آمنوا بوعده من الله ﷻ قاطع أن هذا الكيد الخفي الماكر، وهذا التآمر مع الكافرين، لن يغيّر ميزان الأمور، ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

إنَّ الإيمان صلة بالقوَّة الكبرى، التي لا تضعف ولا تفنى.. وإنَّ الكفر انقطاع عن تلك القوَّة وانعزال عنها.. ولن تملك قوَّة محدودة مقطوعة منعزلة فانية، أن تغلب قوَّة موصولة بمصدر القوَّة في هذا الكون جميعاً.

غير أنه يجب أن نفرّق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان، إنَّ حقيقة الإيمان قوَّة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونيَّة، ذات أثر في النَّفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل، وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها.. ولكن حين يتحوّل الإيمان إلى مظهر فإنَّ (حقيقة) الكفر تغلبه، إذا هي صدقت مع طبيعتها، وعملت في مجالها.. لأنَّ حقيقة أيِّ شيء أقوى من (مظهر) أيِّ شيء».

حسبك هذه السُّنَّة لتجد أنَّ دراستها غابت عن الواقع الإسلاميّ مع تجدد تدافع أصحاب الصُّراط المستقيم مع المغضوب عليهم والضَّالِّين إلا أنَّ استحضار ما يتعلّق بها كان حاضراً بقوة في زمن الرُّشد الإسلاميّ، ومن أمثلة استحضار متعلّقاتها عدم قدرة الكافرين من مجوس الفرس أن يكون لهم سبيل على المسلمين مع تعدّد نقضهم للعهود وإخلافهم للوعود، وانظر ذلك في هذا المشهد:

الهَرْمُزَان ينقض العهد، والأسود له بالمرصاد:

أعطى الهَرْمُزَان عهدًا للنَّبِيِّ ﷺ، ثم نقض العهد في القادسيّة، ثم عاهد المسلمين ألاّ يقاتلهم على أن يدفع الجزية، ثم نقض العهد مرّة أخرى، ودخل مع المسلمين في معركة في "سوق الأهواز"، وانتصر عليه الصّحابيُّ حُرْقُوص بن زهير السّعديّ ﷺ، ثم طلب العهد الثالث، فقبل منه سيدنا عمر بن الخطّاب ﷺ على ألاّ يقاتل المسلمين، ويبقى في مكانه، وبعد أن استنصر ملكهم يَزْدَجَرْد كُلّ الفرس، نقض الهَرْمُزَان العهد للمرّة الثالثة، وغدر بالمسلمين، واجتمع الفرس لقتال المسلمين في معركة فاصلة كبيرة في تُسْتَرّ أحصن المناطق الفارسيّة.

عمر بن الخطّاب ﷺ يعدّ العدّة لمواجهة الهَرْمُزَان في موقعة تُسْتَرّ:

فأمر عمر ﷺ بخروج جيش كثيف من الكوفة، يرأسه النّعمان بن مُقَرّن ﷺ إلى الأهواز ليقاتل الهَرْمُزَان وفرقته، ثم أتبع جيش النّعمان بن مُقَرّن بجيشين: على أحدهما: سويد بن مُقَرّن ﷺ، وعلى الآخر: جرير بن عبد الله البجليّ ﷺ، وأمر بأن يخرج جيش كثيف من البصرة القريبة من الأهواز، على رأسه: سهل بن عديّ ﷺ، وأوصى عمر بن الخطّاب ﷺ سهل بن عديّ ﷺ بأن يصطحب معه خمسة من فرسان المسلمين في جيشه، منهم: البراء بن مالك، ومَجْرَزَة بن ثور ﷺ، ومن التّابعين: كعب بن سُور قاضي البصرة الفقيه الجليل ﷺ، فتحرّكت جيوش البصرة والكوفة إلى تُسْتَرّ، ورأس الجيوش كلها أبو سَبْرَة بنُ أَبِي رُهم ﷺ، ثم أمر عمر أبا موسى الأشعريّ ﷺ أن يخرج بنفسه على رأس جيش من البصرة مددًا للمسلمين في تُسْتَرّ، وهي أقدم مدينة في بلاد فارس، وبها أول سُور بُنيّ على وجه الأرض فيما يقال، وُبُنِيَتِ المدينةُ في منطقة عالية، وعلى السُّور أبراج عالية؛ ليستطيع الفرس رمي

المسلمين بالسَّهام من فوق الأبراج ولا تصل سهام المسلمين إلى أعلى البرج، وحولها خندق مائي، فدام الحصار قرابة ثمانية عشر شهرًا...

البراء بن مالك رضي الله عنه يُقسِم على ربه ﷻ بهلاك الأعداء واللَّحاق بسَيِّدِ الأنبياء ﷺ:

ثم تذكَّر المسلمون أنَّ معهم رجلًا قال عنه النَّبِيُّ ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طُمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ، مِنْهُمْ: الْبِرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»^(١) فذهب المسلمون إلى البراء بن مالك رضي الله عنه قائلين له: يا بَرَاء، ألا ترى ما نحن فيه؟! أَقْسِمَ على ربِّك. فيقول: أقسمت عليك يا ربَّ أن تمنحنا أكتافهم، وتملِّكنا رقابهم، وتلحقني بنبِيِّك.

ذِكْرُ حِيلَةِ الْهَرْمُزَانِ حَتَّى أَمَنَهُ عُمَرُ رضي الله عنه:

ويحكى أنس بن مالك رضي الله عنه بقيَّةَ القصة المشيرة، فيقول: حاصرنا تُسْتَر، فنزل الهَرْمُزَان على حكم عمر رضي الله عنه، فبعث به أبو موسى رضي الله عنه معي، فلما قدمنا على عمر رضي الله عنه سكت الهَرْمُزَان^(٢)، فلم يتكلَّم، فقال عمر رضي الله عنه: تكلم، فقال: كلام حيٍّ، أو كلام ميت؟ قال: فتكلَّم، فلا بأس، فقال: إِنَّا وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ مَا خَلَى اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، كُنَّا نَقْتَلِكُمْ وَنَقْصِيكُمْ، فَأَمَّا إِذْ كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ، لَمْ يَكُنْ لَنَا بَكُمْ يَدَانِ. قال: فقال عمر رضي الله عنه: ما تقول يا أنس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، تركت خلفي شوكة شديدة، وعددًا كثيرًا، إن قتلته أيس القوم من الحياة، وكان أشدَّ لشوكتهم، وإن استحييته، طمع القوم. فقال: «يا أنس، أستحيي قاتل البراء بن مالك رضي الله عنه، ومَجْرَأَةَ بن ثور

(١) الترمذي (٣٨٥٤)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وصحَّحه الألباني.

(٢) وعند ابن مسكويه: أن عمر رضي الله عنه لما رآه تأمله، وتأمل ما عليه، ثم قال: «أعوذ بالله من النار، الحمد لله الذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعه. يا معشر المسلمين! تمسَّكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدى نبيِّكم، ولا تبطروكم الدنيا، فإنَّها غَرَارَةٌ». تجارب الأمم وتعاقب الهمم (١/ ٣٧٣).

ﷺ؟» فلما خشيت أن يسط عليه، قلت له: ليس لك إلى قتله سبيل، فقال عمرؓ: «لم؟ أعطاك؟ أصبت منه؟» قلت: ما فعلت، ولكنك قلت له: تكلم فلا بأس، فقال: «لتجيش بمن يشهد معك، أو لأبدأن بعقوبتك»، قال: فخرجت من عنده، فإذا بالزبير بن العوامؓ قد حفظ ما حفظت، فشهد عنده فتركه، وأسلم الهُرْمُزَان، وفرض له^(١).

فانظر لكلام الهُرْمُزَان، وقد ذاق الهزائم المتتالية على يد المسلمين: فأما إذ كان الله معكم، لم يكن لنا بكم يدان.. إنه يعبر تعبيراً واقعياً عن السُّنَّة الإلهية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

أدرك الصَّحابةؓ أنهم لا يظفرون بالنجاح في التخطيط العسكري، ولا يغمون الفوز في التدافع السياسي ما لم يقرن ذلك كله بالنجاح في المحافظة الإيمانية في المجالات الأخرى. ولذا فلا عجب أن الله ﷻ يذكر الرِّبَا والاخلاق الاجتماعية في سورة آل عمران أثناء الكلام عن الانتكاسة التي واجهت المسلمين في معركة أحد؟

لقد كان بحث السُّنَن الاجتماعية، والكونية وفق المنهج التجريبي حاضراً بقوة عندما سيطرت الأنظمة السياسية الرأشدة، ويُعبّر عن شيء من متعلقات تلك السُّنَّة ما حكاه طارق بن شهاب قال: لما قَدِم عمرؓ أرض الشام، أُتِيَ ببرذون، فركبه فهزّه فكرهه، فنزل عنه، وركب بعيره، فعرضت له مخاضة^(٢)، فنزل عن بعيره، ونزع مُوقِيَه [الخف]، فأخذها بيده، وخاض الماء وهو ممسك بعيره بخطامه، أو قال: بزمامه، فقال له أبو عبيدة بن الجراحؓ: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض! قال: -فصك في صدره- ثم قال: «أوه -

(١) مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق عوامة برقم (٣٤٠٨٤)، و(٣٤٥٠٦)، وأخرجه ابن زنجويه في الأموال (٤٦٨)، وقال المحقق: «إسناده صحيح».

(٢) والخوض: المشي في الماء، والموضع (مخاضة)، وهي ما جاز الناس فيها مشاة وركباً. لسان العرب (٧/ ١٤٧).



يمد بها صوته - لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذلَّ النَّاسِ، وأقلَّ النَّاسِ، وأحقَر النَّاسِ، فأعزَّكم الله ﷻ بالإسلام، فمهما تطلبوا العزَّ بغيره، يذلَّكم الله ﷻ»^(١).

إِنَّهُ التَّمَسُّكُ الْإِيمَانِيُّ، وَالتَّمَسُّكُ الْقُرْآنِيُّ، وَالتَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

واسمع لهذا الاستحضار لسنن الإهلاك، وكيفية مواجهتها بسنن الحماية للأمن القومي في قصص العهد الراشد:

عمرؓ يحذّر من الغفلة عن آثار الترف السليبية:

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: لَمَّا أَتَيْ عُمَرُؓ بِكُنُوزِ كِسْرَى، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيُّ: أَلَا تَجْعَلُهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى تَقْسِمَهَا؟ قَالَ: «لَا يَظْلِمُهَا سَقْفٌ حَتَّى أَمْضِيَهَا»، فَأَمَرَ بِهَا، فَوُضِعَتْ فِي صَرْحِ الْمَسْجِدِ، فَبَاتُوا يَحْرُسُونَهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمَرَ بِهَا، فَكُشِفَ عَنْهَا، فَرَأَى فِيهَا مِنَ الْحُمْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ مَا يَكَادُ يَتَلَأُّ مِنْهُ الْبَصَرُ، قَالَ: فَبَكَى عُمَرُؓ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍؓ: «مَا يُبْكِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ هَذَا لَيَوْمَ شُكْرِ، وَيَوْمَ سُرُورٍ، وَيَوْمَ فَرَحٍ»، فَقَالَ عُمَرُؓ: «كَلَّا، إِنْ هَذَا لَمْ يُعْطَهُ قَوْمٌ، إِلَّا أَلْقَيْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ، وَالْبَغْضَاءَ، - ثُمَّ قَالَ -: أَنْكِيلَ لَهُمْ بِالصَّاعِ، أَمْ نَحْنُو؟»، فَقَالَ عَلِيٌّؓ: «بَلِ احْتُ لَّهُمْ»، ثُمَّ دَعَا حَسَنَ بْنَ عَلِيٍّؓ أَوَّلَ النَّاسِ، فَحَثَّ لَهُ، ثُمَّ دَعَا حُسَيْنًاؓ، ثُمَّ أَعْطَى النَّاسَ، وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ، وَفَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: خَمْسَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَلِلْأَنْصَارِ لِكُلِّ رَجُلٍ

(١) الزهد لابن المبارك برقم (٥٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٤٧)، وقال المحقق: «رجاله موثقون».

مِنْهُمْ: أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَفَرَضَ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ: اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، إِلَّا صَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ، فَارَضَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا سِتَّةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ^(١).

انظر لهذه البقطة العمرية تجاه التحوُّلات التي طرأت على المسلمين، وما فتح عليهم من زينة الدنيا ومتاعها ممَّا يفرح به العالم بظاهر من الحياة الدنيا، وهو عن المآلات، وتقلُّبات الأيام، وسريان الأيام في غفلة وغرور.

لقد بينَ عمر ﷺ خطورة الغفلة عن الآثار السلبية لسُنَّة التَّرف في قوله: «كَلاَّ، إِنَّ هَذَا لَم يُعْطَهُ قَوْمٌ، إِلَّا أُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ، وَالْبَغْضَاءُ»، فقلِّب الطَّرْف في البلاد لترى كيف يلعب المترفون من المسلمين بأموالهم، ووصل بهم الأمر إلى أن يكون المال أداة تدمير لبعضهم، بدلاً من أن يكون وسيلة إعانة وتكامل، والله المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

بين أنموذجين إسرائيليين قديم وحديث، وتحقيق العلو الكبير:

انظر كيف صار للأمم الوثنية العلو على من انتسب إلى الملة الإبراهيمية من الإسرائيليين لما أبى الإسرائيليون أن يقوموا بتبعات الميثاق الإيمانيِّ المأخوذ عليهم.. ألا يأخذك العجب من هذه النفوس المستسلمة إلى عنادها وصلفها ومرضها النفسي، وأهوائها السَّقيمة؟ انظر إليهم، وتأمل في تفكيرهم، واكتشف مكانم أمراضهم التي سببت لهم الأزمات.. ثم أطل التَّفكير فينا.. أليست هذه أجوبة عدد من المسلمين في التَّعامل مع التَّكليفات القرآنية أو النبوية؟

(١) جامع معمر بن راشد (٢٠٣٦)، والزهد للمعافى بن عمران برقم (٧)، وفي شرح السنة للبغوي (٢٧٤٢) وقال المحققان (شعيب الأرنؤوط والشاويش): «إسناده صحيح».

موسى عليه السلام يأمرهم أمراً واضحاً، فيقول: ﴿يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، فجاء جوابهم على الأمر الإلهي والتوجيه النبويّ بجمل الأزمات العقلية والنفسية التي تعاني منها الأمم المهانة باختلاف الزمان والمكان:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] إنهم يرفضون القيام بتبعات الميثاق، وحتى يرضوا ضمائرهم المريضة، وجماهيرهم العريضة بحثوا عن وسيلةٍ لتحريف التأويل بإظهار العذر الدائم عن مواجهة قوم أقوى منهم ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].. فأبان هذا القول همهم السافلة، وضعف الإرادة عندهم، فقاموا يرودون الشائعات الكاذبة لتبرير خنوعهم وذلتهم، وتعوّدهم على جفاء القلوب، فلم ينادوا نبيهم عليه السلام بوصف الرسالة بل نادوه باسمه.. وهل موسى عليه السلام الذي يأتيه الوحي من السماء كان جاهلاً بالواقع الدنيويّ لأرض المعركة والقوى الضخمة التي يتميَّز بها أعداؤه؟ هل كان متغافلاً عن ذلك عندما أمر بدخول الأرض المقدسة؟ فما معنى نبوّته ومجيء خير الغيب إليه؟ قدّموا لتهرّبهم بمقدّمة يظهره بمظهر عدم الفهم في قولهم: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.. فكأنهم قالوا بعد ذلك: فالمواجهة لا يمكن أن تتمّ من حيث الأصل، ربّما لأنّها تعني في عرفهم أن الجبّارين سيستأصلونهم، والحكمة عندهم بذلك تقتضي عدم المواجهة حتى يُخرج الله تعالى أعداءهم بأسلوبٍ معجز لا يقدّمون فيه التّضحيات، ولا يصبرون فيه على التّبعات.. وأمام هؤلاء الجبّارين أفلا يذكرون جبروت الله تعالى الذي هو على كلّ شيء قدير؟ أليس هذا خلافاً إيمانياً فظيحاً؟!

ولعلك تسأل: لماذا وصفوهم بالجبّارين؟

الجواب: وصفوهم بالجبّارين؛ لأنّهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم قد قهروا سائر الأمم غيرهم؛ فكانوا في غاية القوة وعظم الأجسام، وتعلّل قوم موسى عليه السلام بأنّ المعركة غير

لهم، وعتوا على ربِّه ﷻ (جبار)، والجبار: العاتي على ربِّه، القتال لرعيته، العظيم في نفسه الذي لا يقبل موعظة أحد، ولتصور القهر بالعلو على الأقران قيل: (نخلة جبارة) إذا كانت طويلة مرفعة لا تصل الأيدي إليها، وكذلك الجبار من الناس، لأن قلبه دخله الكبر؛ إذ يظن أنه يستطيع فعل ما يريد على كراهة من الناس، فشبه نفسه بالله ﷻ، وبين الراغب رحمه الله رداء هذه الصفة بالنسبة للإنسان فقال: «والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من العالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم»^(١)، كقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ [هود: ٥٩]، فأضاف للكبر الإكراه، خلاف صفة النبي ﷺ، حيث قال الله ﷻ عنه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥]، وقال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم: ١٤]، وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: ٣٣].

فهؤلاء القوم كانوا جبارين؛ لقوتهم الجسدية، وعدتهم العسكرية، فتعظّموا في أنفسهم، لكن القوة وعظم الخلق لم تصلا إلى الحد الخرافي الذي حاولت الروايات المضللة أن تروجه لتبرير نقضهم لميثاق النقاء، حيث زعموا أن طليعة الإسرائيليين وجدوا الكنعانيين عمالقة عظاما يدخل في كُفٍّ أحدهم اثنان من الإسرائيليين، ولا يحمل عنقود عنهم إلا خمسة أنفس بينهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس، أو أربعة، ورووا أساطير أخرى أن الواحد من الإسرائيليين لا يصل إلى عقب هؤلاء الجبارين.. فمن أين للإنسان أن يقول مثل ذلك رجما بالغيب؟! وإنما وصفهم بنو إسرائيل بأنهم قوم جبارون، وذلك يتحقق بمن يسمّى جبارا في عرف بني الإنسان دون الحاجة إلى ذكر أساطير لم يدل عليها دليل.

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٣).

دائمًا يروّج الجبناء ما قد يبرّر لهم جنهم أمام الآخرين، وهاهم المسلمون يعتذرون أمام الآخرين بأنه لا طاقة لهم بالجبارين المستكبرين الإسرائيليين هذه الأيام لأنّ وراءهم صنّاع القرار في أميركا وبقية العالم.

مع أنّ بعض سفهاء العرب ذاتهم يتباهون اليوم بأنهم يستطيعون التلاعب في قرارات الدول العظمى لصالح تدمير العرب في اليمن والعراق وسوريا، ومحاصرة بعضهم بعضًا.. ثم يزعم هؤلاء أمام العلماء أنه لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

الإسرائيليون يتهرّبون من المواجهة وينتظرون المعجزات:

ثم أردف الإسرائيليون فقالوا مبينين عدم تطرّق فكرة مدافعة الوثنيين إلى أذهانهم: ﴿وَأَنَّا لَنَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] فأبانت هذه الجملة أنهم اعتادوا حياة الدّل والمعجزات فيريدون ألا يقوموا بأدنى جهد لتحقيق المجد.. ولم يبينوا كيف يتوقّعون خروج عدوّهم منها؛ لأنّ ذلك لا يهمّهم.. الذي يهمّ عندهم أن يخرجوا منها، وحسب السّياق فذلك لا يمكن أن يكون بفعلهم، بل بمعجزة ما أو بفعل غيرهم.. ربّما بفعل مبعوثين دوليين يكونون وسطاء بينهم وبين هؤلاء الجبارين المسيطيرين على الأرض! وينقل ابن إسحاق رحمه الله بعض الحوار الذي دار بين المرجفين، وبين الصّالحين، فبيّن أنّ كالب بن يافنا، أسكت الشّعْبَ عن موسى عليه السلام فقال لهم: إنا سنعلو الأرض ونرثها، وإنّ لنا بهم قوّة! وأما الذين كانوا معه فقالوا: لا نستطيع أن نصل إلى ذلك الشّعْب، من أجل أنهم أجراً منا! ثم إنّ أولئك الجواسيس أخبروا بني إسرائيل الخبر، وقالوا: إنّنا مررنا في أرض وحسناها، فإذا هي تأكل ساكنها، ورأينا رجالها جسامًا، ورأينا الجبابرة بني الجبابرة، وكنا في أعينهم مثل الجراد! فأرجفت الجماعة من بني إسرائيل، فرفعوا أصواتهم بالبكاء. فبكى

الشَّعْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَوَسَّوْهُمَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﷺ، فَقَالُوا لَهُمَا: يَا لَيْتَنَا مِتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ! وَلَيْتَنَا نَمُوتُ فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ، وَلَمْ يَدْخُلْنَا اللَّهَ ﷻ هَذِهِ الْأَرْضَ لِنَقَعَ فِي الْحَرْبِ، فَتَكُونَ نَسَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا وَأَثْقَالُنَا غَنِيمَةً! وَلَوْ كُنَّا قَعُودًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، كَانَ خَيْرًا لَنَا، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: تَعَالَوْا نَجْعَلْ عَلَيْنَا رَأْسًا، وَنَنْصَرِفَ إِلَى مِصْرَ^(١).

فَهَلْ رَأَيْتَ مَرَضًا نَفْسِيًّا، وَعَفْنًا عَقْلِيًّا مِثْلَ هَذَا؟ إِنَّهُ الْوَهْنُ الَّذِي يَجْتَاحُ الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ، وَالْخُنُوعَ الَّذِي يَدْمُرُ كُلَّ رَغْبَةٍ فِي الْقِيَامِ بِفِعْلٍ إِيْجَابِيٍّ صَادِقٍ، وَالْمَبْرَرَاتِ جَاهِزَةٍ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وَالْجَبَّارُونَ تَقِفُ مُوَازِينَ الْقَوَى الدَّوْلِيَّةِ فِي جَانِبِهِمْ، فَأَعْظَمَ حُلًّا يَنْبَغُ عَنْ الْحِكْمَةِ وَالذِّكَاةِ فِي تَصَوُّرِ السُّفَهَاءِ هُوَ الْإِنْسِحَابُ وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ عَلَى أَيِّ فِعْلٍ حَقِيقِيٍّ!، وَهَذَا دَاءُ الْأُمَمِ الرَّهِيْبِ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ نَبِيُّنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ أُمَّتَهُ، فَقَالَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلِيلٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(٢).

وَالْوَهْنُ الضَّعْفُ فِي الْعَمَلِ وَالْأَمْرِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعِظَمِ وَهْنُ الشَّيْءِ وَأَوْهَنُهُ وَالْوَهْنُ بِفَتْحِ الْهَاءِ: لُغَةٌ فِي الْوَهْنِ بِالتَّسْكِينِ، وَرَجُلٌ وَاهِنٌ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَمَلُ وَمُوهِنٌ فِي الْعِظَمِ وَالْبَدَنِ^(٣).

(١) تفسير الطبري (١٠ / ١٧٥).

(٢) أحمد (٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٤٢٩٧) واللفظ له، وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن»، وصححه الألباني في الصَّحِيحَةِ (٩٥٨) بمجموع طرقه.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٤ / ٤٩١).

سبحان الله! صدق الله، ومن أصدق من الله قيلاً! لقد حملت أمة الإسلام
أوزاراً من شيمة بني إسرائيل، يتهرَّبون من (الصَّبر والتَّقوى والمدافعة)،
ويتعلَّلون بجبروت عدوِّهم عن القيام بكلِّ مكرمة، ويتنظرون الإشفاق من
المبعوثين الدَّوليين والوسطاء المتربِّحين!

فانظر في هذا الأنموذج الإسرائيليِّ القديم كيف تحوَّل في صورته الحديثة إلى واقع العلوِّ
الكبير بعد أن ترك خصومهم مقتضيات الإيمان، وتفوق اليهود في الأخذ بالأسباب الماديَّة
وأربوا عليهم في النُّصرة الصُّوريَّة لكتابهم المقدَّس (التَّوراة وبقية التَّنخ) مقابل محاربة قادة
خصومهم من المسلمين للنشر الحقيقيِّ لمصادرهم الإسلاميَّة.. والنتيجة يصفها (بنيامين نتن
ياهو): «إسرائيل تغيَّر العالم في الهند، وفي آسيا، وفي أفريقيا، وفي أمريكا اللاتينيَّة، وفي كلِّ
مكان... إسرائيل هي التي تقود العالم حرفياً.. نحن ١٪ من سكان العالم، ونحصل على
٢٠٪ من الاستثمارات العالميَّة والخاصَّة في مجال الأمن الإلكتروني.. نحن ٢٠ ضعف
حجمنا، ليس مرَّتين، وليس عشر مرَّات، ٢٠ ضعف حجمنا.. هذا قويٌّ جداً»^(١).

ويشهد التاريخ اليهودي المعاصر تكرر است شراء الدَّاء ذاته في أوساطهم مع شيوع ما يُسمَّى
«لاهورت البقاء»، الذي يجعل الهدف الأساسيِّ من التَّاريخ اليهوديِّ بقاء اليهود، وقد لفت
إلى ذلك الحاخام (ريتشارد روبنشتاين) رؤية مفادها أنَّ القيادة الحاخاميَّة لليهود قيادة

(١) قال هذا الكلام ٦ مارس ٢٠١٨م، في مؤتمر لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية، التي تسمى اختصاراً (آيباك)، وهي

مجموعة ضغط تدافع عن السياسات المؤيدة لإسرائيل، رابط هذا الكلام:

<https://youtu.be/OdCEOGFS224?t=720>

فرضها الرُّومان على اليهود بعد إخمادهم التَّمُرَّدات اليهوديَّة، وأنَّ هذه القيادة هي التي علَّمت اليهود الخنوع والخضوع وتقبُّل العجز، وأنَّ هذا الوضع قد استمرَّ حتى الحرب العالميَّة الثانيَّة حين تعاونت المجالس اليهوديَّة مع القوَّات النَّازيَّة وسلَّمتهم أعضاء الجماعات اليهوديَّة ليرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال. ومن ثم، فإنَّ ظهور القيادة الصُّهيونيَّة (العسكريَّة) هو تصحيح لمسار التَّاريخ اليهوديِّ كتاريخ زمنيٍّ^(١)، وهي التي حملت على عاتقها تخليص جموع اليهود المعاصرين من عقدة الخنوع والدُّل، وآت جهودها ثمارها بتأسيس كيانه المزعوم، وباليهود ما بهم من الدُّلَّة والقِلَّة.

فأين هذا من حال أُمَّة الإسلام التي نافت على مليار ونصف المليار، وهي مع ذلك، تتحاشى مباشرة واجب المرحلة، وتنتظر الطَّير الأبايل تُقبل من رحم الغيب تنصرها، وتقاتل عنها، وتدرأ عن مقدَّساتها؟

أنموذج اليرموك: عدد قوَّات جيش المسلمين ٣٦ ألف مقاتل، وعدد قوَّات جيوش الرُّوم ٢٤٠ ألف مقاتل، وهنا ترى المحافظة الإيمانيَّة على قيم الإخاء والعدل والإخبات:

خروج النَّصارى بطرًا وكفرًا بالخالق، وظلمًا للخلق:

يحكي أحد نصارى تنوخ ممَّن كان مع باهان قائد الرُّوم زمن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عن أسباب انتصار المسلمين وهزيمة جنود الرُّوم مع كونهم كانوا كالسَّيل فيقول: كنت نصرانيًّا، فنصرت النَّصارى على العرب، فأقبلت مع الرُّوم، فإذا منْ نَمُرُّ به من أهل البلد أحسن شيء ثناء على العرب في سيرتهم وفي كلِّ شيء من أمرهم، وأقبلت الرُّوم فجعلوا يفسدون في الأرض ويسئون السَّيرة، ويعصون الأمراء، حتى ضجَّ منهم الناس، وشكاهم أهل القرى،

(١) الموسوعة اليهودية والصَّهيونية، عبد الوهاب المسيري، (١٠/١٤٩).

فلا تزال جماعة تجيء معها بالجارية قد افْتُضَّتْ، وجماعة يشكون أن أغنامهم ذُبِحت، وآخرون أنهم خربوا وسلبوا، فلما رأى ذلك باهان، قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر أهل هذا الدين، إِنَّ حجة الله ﷻ عليكم عظيمة، إذ بعث إليكم رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، وكان رسولكم لا يريد الدنيا، ويزهّدكم فيها، وأمركم أن لا تظلموا أحداً، فإن الله ﷻ لا يحب الظّالمين، وأنتم الآن تظلمون، فما عذرکم غداً عند خالقكم، وقد تركتم أمره وأمر نبيكم، وما أتاكم به من كتاب ربكم؟ وهذا عدوكم قد نزل بكم، يقتل مقاتليكم، ويسبي ذراريكم، وأنتم تعملون بالمعاصي، ولا ترعون منها خشية العقاب، فإن نزع الله ﷻ سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فمن الظّالم إلا أنتم، فاتقوا الله ﷻ وانزعوا عن ظلم الناس.

فقام إليه رجل من أهل البلد من أهل الدّمة يشكو مظلّمة، فتكلّم بلسانهم، وأنا أفقه كلامهم، فقال: أيها الملك، عشت الدّهر ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث، إني امرؤ من أهل البلد من أهل الدّمة وكانت لي غنم أظنّها مائة شاة تنقص قليلاً، وكان فيها ابن لي يرعاها، فمرّ به عظيم من عظماء أصحابك، فضرب بناءه إلى جنبها، وأخذ حاجته منها، وانتهب بقيتها أصحابه، فجاءته امرأتى تشكو إليه انتهاب أصحابه غنمي، وتقول له: أما ما أخذت أنت لنفسك فهو لك، ولكن ابعث إلى أصحابك يرثوا علينا غنمنا، فلما رآها أمر بها فأدخلت بناءه، وطال مكثها عنده، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء فاطلع فيه، فإذا هو بصاحبكم ينكح أمّه، وهي تبكي، فصاح الغلام، فأمر به فقتل، فأخبروني ذلك، فأقبلت إلى ابني، فأمر بعض أصحابه فشد عليّ بالسيف، ليضربني، فاتقيته بيدي فقطعها.

فقال له باهان: فهل تعرفه؟ قال: نعم، قال: وأين هو؟ قال: هو ذا، لعظيم حاضر عنده من عظمائهم، قال: فغضب ذلك العظيم، وغضب له ناس من أصحابه، وكان فيهم ذا شارةٍ وشرفٍ، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائة، فشدوا على المستعدي فضربوه بأسيا ففهم حتى

مات، ثم رجعوا، وباهان ينظر إلى ما صنعوا، فقال بلسانه: العجب كلُّ العجب، كيف لا تنهدُّ الجبال وتنفجر البحار وتزلزل الأرض وترعد السَّماء لهذه الخطيئة التي عملتموها وأنا أنظر، ولأعمالكم العظام التي تعملونها وأنا أرى وأسمع، إن كنتم تؤمنون أن لهؤلاء المستضعفين المظلومين إلهاً ينصف المظلوم من الظَّالم فأيقنوا بالقصاص، ومن الآن يعجل لكم الهلاك، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك، فأنتم والله عندي شرٌّ من الكلاب والحُمُر، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لا يؤمنون، ولقد سخط الله ﷻ أعمالكم، وليكلنكم إلى أنفسكم، فأما أنا فأشهد الله ﷻ أني بريء من أعمالكم، وسترون عاقبة الظُّلم إلّا مَ تؤدِّيكُم، وإلى أيِّ مصير تصيرُّكم، ثم نزل^(١).

كتيبة الإيمان تستمدُّ التَّوفيق من الله ﷻ، وتطلب المدد من الخليفة:

ترى في المقابل التَّعاطف والتَّألف والتَّراحم، ومبدأ الجسد الواحد مطبَّقاً في المسلمين، كما ترى استمداد الأمراء التَّوفيق من ربِّهم ﷻ قبل غيرهم، فهاهو معاذ بن جبل ؓ ورجال معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة ؓ حين سار من دمشق إلى اليرموك: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين ؓ تعلمه علم هذه الجيوش التي جاءتنا وتسأله المدد؟ قال: بلى، فكتب إليه: أما بعد، فإنَّ الرُّوم نفرت إلينا براً وبحراً، ولم يخلّفوا وراءهم أحداً يطيق حمل السَّلاح إلّا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيّسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرُّهبان من الصَّوامع، فاستجاشوا أهل أرمينية والجزيرة وجاؤونا، وهم نحو من أربعمئة ألف رجل، وإنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغرر المسلمين من أنفسهم، فكشفت لهم عن الخبر، وصرّحت لهم عن الأمر، وسألتهم عن الرّأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى جانبٍ من أرض الشام،

(١) الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٦٢).

ثم نضمّ إلينا قواصينا وننتظر المدد، فالعجل العجل علينا يا أمير المؤمنين بالمدد بعد المدد، والرّجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب نفوس المسلمين إن هم أقاموا، أو دينهم إن هم هربوا، فقد جاءهم ما لا قبّل لهم به، إلا أن يمدّهم الله ﷻ بملائكة، أو يأتيهم بغياث من عنده، والسّلام عليك.

عمر ﷺ يعقد مجلس الشورى والمسلمون على أهبة الاستعداد:

قال عبد الله بن قُزطٍ ﷺ: وبعثني بكتابه، فلما قدمت على عمر ﷺ دعا المهاجرين والأنصار فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة ﷺ، فبكى المسلمون بكاء شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله ﷻ أن ينصرهم، وأن يعافهم ويدفع عنهم، واشتدّت شفقتهم عليهم، وقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعثنا إلى إخواننا، وأمر علينا أميراً ترضاه لنا، أو سرّ أنت بنا إليهم، فو الله إن أصيبوا فما في العيش خير بعدهم، قال: ولم أر منهم أحداً كان أظهر جزعاً ولا أكثر شفقا من عبد الرحمن بن عوف ﷺ، ولا أكثر قولاً لعمر ﷺ: سرّ بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قدمت الشّام شدّ الله ﷻ قلوب المسلمين، ورعب قلوب الكافرين.

قال: واجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر ﷺ ويبعث المدد، ويكون رداءً للمسلمين. قال: فقال لي عمر ﷺ: كم كان بين الروم وبين المسلمين يوم خرج؟ فقلت: نحو من ثلاث ليال. فقال عمر ﷺ: هيهات! متى يأتي هؤلاء غياثنا؟!

عمر ﷺ يستشير الهمم ويشدّ العزائم:

ثم كتب معي إلى أبي عبيدة ﷺ: أما بعد، فقد قدم علينا أخو ثماله بكتابك، تخبر فيه بنفير الروم إلى المسلمين برّاً وبحراً، وبما جاشوا به عليكم من أسأفتهم ورهبانهم.. وإن ربّنا المحمود ذا الصُّنع العظيم والمنّ الدائم قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حين بعث محمداً ﷺ بالحقّ فنصره بالرُّعب وأعزه بالنّصر، وقال وهو لا يخلف الميعاد: ﴿هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ [الصف: ٩]، فلا يهولنك كثرة من جاءك منهم فإن الله ﷻ منهم بريء، ومن برئ الله ﷻ منه كان قميناً (أي: جديرًا) أن لا تنفعه كثرتة، وأن يكله الله ﷻ إلى نفسه ويخذه، ولا يوحشَنَّك قلة المسلمين في المشركين، فإن الله ﷻ معك، وليس قليلاً من كان الله ﷻ معه، فأقم بمكانك الذي أنت حتى تلقى عدوك وتناجزهم إن شاء الله، وستظهر بالله عليهم، وكفى بالله ظهيرًا ووليًا وناصرًا.

النَّصْرَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَلَا بِقُوَّةِ الْعُدَدِ:

وقد فهمت مقالتك: احتسب أنفس المسلمين إن أقاموا، أو دينهم إن هم هربوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدَّهم الله ﷻ بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله.. وإيَّم الله، لولا استثناءك هذا لقد كنت أسأت لعمرى، لئن أقام المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله ﷻ خير للأبرار، ولقد قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فطوبى للشهداء، ولمن عقل عن الله ﷻ ممن معك من المسلمين أسوة بالمصراعين حول رسول الله ﷺ في موطنه، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ﷻ، ولا هابوا لقاء الموت في جنب الله ﷻ، ولا وهن الذين بقوا من بعدهم ولا استكانوا لمصيبتهم، ولكن تأسوا بهم وجاهدوا في سبيل الله من خالفهم وفارق دينهم، ولقد أثنى الله ﷻ على قوم بصبرهم، فقال: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، فأما ثواب الدنيا فالفتح والغنيمة، وأما ثواب الآخرة، فالمغفرة والجنة.

واقرأ كتابي هذا على الناس، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله ﷻ، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ﷻ ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

وأما قولك: إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فلا يكن لهم به قبل، فإن الله تعالى بهم قبلاً، ولم يزل ربنا ﷻ عليهم مقتدرًا، ولو كنا إنما نقاتل عدونا بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيئات! لكننا قد بدنا وهلكنا، ولكنا نتوكل على الله ربنا، ونفوض إليه أمرنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا الله ﷻ نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، واصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، والسلام.

عمر ﷺ يهتّم بالقادة ويرفع المعنويات:

قال عبد الله بن قُرْطُبة ﷺ: فدفع إليّ عمر ﷺ الكتاب وأمرني أن أعجل السير، وقال لي: إذا قدمت على المسلمين فسر في صفهم، وقف على كل صاحب راية منهم، وأخبرهم أنك رسول إليهم، وقل لهم: إن عمر ﷺ يقرئكم السلام ويقول: يا أهل الإسلام، اصدقوا وشدوا على أعدائكم شدّ اللبث، وأعصوا هامهم السيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذرّ، لا تهلككم كثرتهم، ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم.

المسلمون يفرحون برسالة عمر ﷺ وبوصول المدد:

قال: فركبت راحتي وأقبلت مسرعًا، أتخوّف ألا آتي الناس حتى تكون الوقعة، فانتهيت إلى أبي عبيدة ﷺ يوم قدم عليه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي ﷺ في ألف رجل مددًا من قبل عمر ﷺ، فسّر بمقدمه المسلمون، وشجعهم ذلك على عدوهم، ودفعت إلى أبي عبيدة ﷺ كتاب عمر ﷺ، فقرأه على الناس، فاشتدّ سرورهم برأيه لهم، وبما أمرهم به من الصبر، وما رجا لهم في ذلك من الأجر.

أبو عبيدة ؓ يرتب للمعركة ويعين القادة:

وأمر أبو عبيدة ؓ خالد بن الوليد ؓ، فجعله قائداً عاماً للقوات الميدانية، وتولّى هو رئاسة المجلس الأعلى للقوّات العامّة، فخرج خالد ؓ في الناس وهم أحسن شيء دعة ورعة وهيئة، وأشدّهم في لقاء عدوّهم بصيرة، وأطيبهم أنفساً، فصنّفهم خالد ؓ ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة، ثم أتى أبا عبيدة ؓ، قال: من كنت تجعل على ميمتك؟ قال: معاذ بن جبل ؓ، قال: أهل ذلك، هو الرّضى الثّقة، فولّها إيّاه، فأمر أبو عبيدة ؓ معاذاً ؓ فوقف في الميمنة، ثم قال: من كنت تولّي الميسرة؟ قال: غير واحد، قال: فولّها إن رأيت قُبَاثَ بن أَشِيم ؓ، فأمره أبو عبيدة ؓ فوقف في الميسرة، وكان فيها كنانة وقيس، وكان قُبَاثُ ؓ كنانياً، وكان شجاعاً. قال خالد ؓ: وأنا على الخيل، وولّ على الرّجالة من شئت، قال: أوليها إن شاء الله من لا يخاف نكوله ولا صدوده عند البأس، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ؓ، قال: أصبت ووفّقت ورشدت. قال أبو عبيدة ؓ: انزل يا هاشم، فأنت على الرّجالة وأنا معك، وقال خالد ؓ لأبي عبيدة ؓ: أرسل إلى أهل كلّ راية فمرهم أن يطيعوني، فدعا أبو عبيدة ؓ الضّحّاك بن قيس ؓ، فأمره بذلك، فخرج الضّحّاك ؓ يسير في الناس ويقول لهم: إن أميركم أبا عبيدة ؓ يأمركم بطاعة خالد بن الوليد ؓ فيما أمركم به. فقال الناس: سمعنا وأطعنا، وقال ذلك أيضاً معاذ بن جبل ؓ لما أنهى إليه الضّحّاك ؓ أمر أبي عبيدة ؓ، ثم نظر معاذ ؓ إلى الناس فقال: أما إنكم إن أطعتموه لتطيعنّ مبارك الأمر، ميمون النّقيبة، عظيم الغناء، حسن الحسبة والنّيّة، قال الضّحّاك ؓ: فحدثت خالداً ؓ بذلك، فقال: رحم الله أخي معاذاً ؓ، أما والله إن أحبّني إني لأحبه في الله ﷻ، لقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا ندرکها فهنيئاً ما خصّهم الله ﷻ به من ذلك. قال الضّحّاك ؓ: فأخبرت معاذاً ؓ بما رد عليّ خالد ؓ، فقال: إني لأرجو أن يكون الله ﷻ قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين، وشدةً عليهم



مع بصيرته وحسن نيّته في إعزاز دينه أحسن الثّواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملاً، فقال خالد عليه السلام وقد لقيته بذلك: ما شيء على الله تعالى بعزير.

خالد عليه السلام سيف الله يرصّ الصُّفوف، ويدير المعركة بحنكة وشجاعة:

ثم تولّى خالد عليه السلام التّعبئة الإعلاميّة الخاصّة مع (القصاص)، فسار في الصُّفوف، يقف على أهل كلّ راية، ويقول: يا أهل الإسلام، إنّ الصّبر عزٌّ، وإنّ الفشل عجزٌ، وإنّ مع الصّبر تنصرون، والصّابرون هم الأعلون، وما زال يقف على أهل كلّ راية يعظهم ويحضّهم.

وخذ جانباً من الاستقامة الإيمانيّة؛ فإنّ باهان بعث رجلاً من خيارهم وعظمائهم يقال له جرجة إلى أبي عبيدة عليه السلام، فقال له: إني رسول باهان عامل ملك الروم على الشّام، وعلى هذه الجنود، وهو يقول لك: أرسل إليّ الرّجل الذي كان قبلك أميراً، فإنه ذكّر لي أنّه رجل ذو عقل، وله فيكم حسب، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم، فنخبره بما نريد ونسأله عما تريدون، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضى أخذنا به، وحمدنا الله عليه، وإن لم يتفق ذلك كان القتال من ورائنا هنالك.

فدعا أبو عبيدة عليه السلام خالدًا عليه السلام فأخبره بالذي جاء فيه الرّومي، وقال لخالد عليه السلام: القهم فادعهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فهو حظّهم، وكانوا قومًا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية، أن يؤدّوها عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فأعلمهم أنا نناجزهم ونستعين الله تعالى عليهم، حتى يحكم الله تعالى بيننا وهو خير الحاكمين.

رسول الرّوم يعجب من صلاة المسلمين:

قال: وجاء رسولهم هذا الرّوميّ عند غروب الشمس، فلم يمكث إلا يسيراً حتى حضرت الصّلاة، فقام المسلمون يصلّون صلاتهم، فلما قضوها قال ذلك الرّوميّ: هذا اللّيل قد غشينّا، ولكن إذا أصبحت غدوت إلى صاحبنا إن شاء الله، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين

يصلُّون وهم يدعون الله ﷻ ويتضرَّعون إليه، وجعل ما يفيق وما يصرف بصره عنهم، فقال عمرو ؓ: إنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فقال أبو عبيدة ؓ: كلا والله، إني لأرجو أن يكون الله ﷻ قد قذف في قلبه الإيمان وحَبَّه إليه، وعَرَفَه فضله، أوَّما تنظر إلى نظره إلى المصلِّين؟

حوار بين أبي عبيدة ؓ والرُّومي:

ولبت الرُّوميُّ بذلك قليلاً ثم أقبل على أبي عبيدة ؓ، فقال: أيُّها الرجل، أخبرني متى دخلتم في هذا الدِّين؟ ومتى دعوتم الناس إليه؟

فقال أبو عبيدة ؓ: دُعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة، فمَنَّا من أسلم حين أتاه الرسول ﷺ، ومَنَّا من أسلم بعد ذلك، فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول؟ قال: لا، ولكنه أخبرنا أنه لا نبيَّ بعده، وأخبرنا أنَّ عيسى بن مريم ؑ قد بشر به قومه، قال الرُّوميُّ: وأنا على ذلك من الشَّاهدين، إن عيسى بن مريم ؑ قد بشرنا براكب الجمل، وما أظنُّه إلا صاحبكم. ثم قال: أخبرني عن قول صاحبكم في عيسى ؑ، فقال له أبو عبيدة ؓ: قول صاحبنا فيه قول الله تعالى فيه، وهو أصدق القائلين وأبرُّهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [٧١] إلى قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

فلما فسَّر له التَّرجمان ذلك وبلغ هذا المكان قال: أشهد أنَّ هذه صفة عيسى ؑ، وأشهد أنَّ نبيَّكم ﷺ صادق، وأنه الذي بشر به عيسى ؑ، وأنَّكم قوم صدق، وقال لأبي عبيدة ؓ: ادع لي رجلين من أوَّل أصحابك إسلامًا، وهما فيما ترى أفضل من معك، فدعا أبو عبيدة ؓ

معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ؓ، فقال له: هذان من أفضل المسلمين فضلاً، ومن أولهم إسلاماً، فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة ؓ: أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم؟ فقالوا له: نعم، إن أنت أسلمت، واستقمت، ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك، فإنك من أهل الجنة، قال: فإنني أشهدكم أني من المسلمين، فأسلم وفرح المسلمون بإسلامه، وصافحوه ودعوا له بخير، وقالوا له: إننا إن أرسلنا رسولنا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أننا حبسناك عنهم، فنتخوف أن يحبسوا صاحبنا، فإن شئت أن تأتيهم الليلة وتكتم إسلامك حتى نبعث إليهم رسولنا غداً وننظر علام ينصرم الأمر بيننا وبينهم، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك، فما أعزك علينا، وأرغبنا فيك، وأكرمك علينا، وما أنت الآن عند كل امرئ منا إلا بمنزلة أخيه لأبيه وأمه. قال: فإنكم نعم ما رأيتم، فخرج فبات في أصحابه، وقال لباهان: غداً يجيئكم رسول القوم الذي سألتهم، وانصرف إلى المسلمين لما رجع إليهم خالد ؓ، فأسلم وحسن إسلامه^(١).

قرب ساعة المواجهة بين كتيبة التوحيد القانته، وبين جيش الصليب:

ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، وصف لهم عشرين صفاً لا ترى أطرافها.. فأقبلوا نحو المسلمين كأنهم أعراض الجبال وقد ملؤوا الأرض، فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كلهم، نهضوا إلى راياتهم.

عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي، قال: صلى بنا أبو عبيدة ؓ يومئذ صلاة الغداة في عسكره في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة بالفجر وليال عشر، فلما مرّ بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ ﴿٦﴾ إِرْمَ دَاثِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

(١) انظر: الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٦٤)، وما بعدها.



الْبَلَدِ ۝ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَعَوْا فِي
الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرْصِدٌ ۝ ﴿١٤﴾
[الفجر: ٦- ١٤] قلت في نفسي: ظهرنا والله على القوم للذي أجرى الله على لسانه، وسررت
بذلك سرورًا شديدًا، وقلت: عدونا هذا والله نظير لهذه الأمم، في الكفر والكثرة والمعاصي،
قال: ثم قرأ في الركعة الثانية: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)، فلمَّا مر بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بَطْعُونَهَا﴾ [الشمس: ١١] إلى آخر السورة، قلت في نفسي: هذه والله أخرى، إن صدق الفأل
ليصبنَّ الله عليهم سوط عذاب، وليدمدمنَّ الله عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبلهم.

صفوف وسيوف وحتوف:

ثم إن باهان زحف يوم اليرموك إلى المسلمين في عشرين صفًا تضم نحوًا من أربعمئة ألف
مقاتل، وأصبح المسلمون طيبة أنفسهم لقتال المشركين، قد شرح الله ﷻ صدورهم وشجَّع
قلوبهم على لقاء عدوهم.. وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفون زفًا، ومعهم الصُّلبان،
وأقبلوا بالأساقفة والقسيسين والرهبان والبطارقة والفرسان، ولهم دويٌّ كدويِّ الرعد، وقد
تبايع عظمهم على الموت، ودخل منهم ثلاثون ألفًا في السَّلاسل، كلُّ عشرة في سلسلة لثلاث
يفرُّوا.

فلما نظر إليهم خالد بن الوليد ﷺ مقبلين، أقبل على نساء المسلمين وهن على تلٍّ مرتفع
في العسكر، فقال: يا نساء المسلمين، أيما رجل أدركتَّه منهزمًا فاقتلنه، فأخذن العناهر، وهي
عمد البيوت، ثم أقبلن نحو المسلمين فقلن: لستم بعولتنا إن لم تمنعونا اليوم.. واشتبكت
الصُّفوف، واصطكت السيوف، وأمكن الله ﷻ عباده المؤمنين من عبَاد الصَّليب يقتلونهم
ويشردون بهم.

وكان ممَّا يشدُّ به عزائم النَّاس يومها أن ينادي فيهم: يا أهل الإسلام، إنه لم يبق عند القوم من الجدِّ والقتال إلا ما قد رأيتم، فالشدَّة الشَّدَّة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظَّفَر السَّاعَة عليهم، فجعل لا يسمع هذا القول من خالد عليه السلام أحد من المسلمين إلا شجَّعه عليهم. ثم إن خالدًا عليه السلام اعترض الرُّوم وإلى جنبه منهم أكثر من مائة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا في نحو من ألف فارس، فوالله ما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله تعالى جمعهم.

خبر الهزيمة يصل إلى ملك الرُّوم:

ولما انتهت الهزيمة إلى ملك الرُّوم وهو بأنطاكية، قال: قد كنت أعلم أنَّهم سيهزمونكم، فقال له بعض جلسائه: ومن أين علمت ذلك أيُّها الملك؟ قال: من حيث إنهم يحبُّون الموت كما تحبُّون أُنتم الحياة، ويرغبون في الآخرة أشدَّ من رغبتكم في الدُّنيا، ولا يزالون ظاهرين ما كانوا هكذا، وليغيرنَّ كما غيرتم، ولينقضنَّ كما نقضتم.

الفصل الثاني

تقنينٌ إجماليٌّ لسُنَنِ النَّصْرِ فِي سَوْرَةِ الْأَنْفَالِ (قِصَّةُ بَدْر)

سُنَنُ صَنَاعَةِ النَّصْرِ فِي سَوْرَةِ الْأَنْفَالِ



نَجْمَةُ الْإِسْلَامِ مُقْبِلَةُ الْبُحَيْرَةِ

سورة الأنفال أو سورة بدر الكبرى - كما سمّاها ابن عباس رضي الله عنه ^(١) - سورة ترسم الشّسن الحقيقية لصناعة النّصر في حياة الأمة.. إنّها تبين كيف تمّت صناعة النّصر في يومٍ فاصلٍ من أيام الله ﷻ صار اسمه يوم الفرقان، وكيف يمكن أن تصنع الأمة مثله في كلّ زمان.. لكنّها تربط كلّ ذلك بمقدّماته.. فذلك اليوم لم يأت فجأة دون مقدّماتٍ أوصلت إليه.. أراد الله ﷻ أن نلتفت إلى هذا المعنى أفرادًا ونظامًا وأمة، فقال في وسط هذه السّورة ذات المزيّة الخاصّة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].. إن يوم الفرقان يتطابق في أوجه كثيرة مع يوم النصر الإسرائيلي المسلم عندما قاده طالوت ضد جالوت وجنوده.. يتطابق حتى في العدد.

لكأنك تتأمّل في كلمات هذه السّورة لترى فيها الحثّ الشديد لمراكز صنع القرار، وتشكيل الوعي في الأمة أن تبحث في الشّسن التي شكّلت معالم الفرقان عندما يتقابل الجمعان: جمع الباطل الظّالم، وجمع الحقّ البريء المسالم.

فلننظر في شّسن صناعة النّصر التي توضّحها هذه السّورة:

السّنة الأولى: الأخوة الإسلامية أساس التحالفات المركزية الاستراتيجية، وهي لا تلغي

أخوة الجنس والقبيلة والجنسيّة، ولكنها تحكمها وتضبطها:

ألا تتساءل -أيّدك الله ﷻ - عن سر هذا البدء المدهش لسورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]؟ فلم تبدأ السّورة بمقدمة تاريخيّة، ولا عسكريّة، ولا حتى مجرد إشارة

(١) مسلم (٧٦٦١).

أَمَّاهُ مَا سَفَحَتْ دُمُوعِي كَثْرَةَ الْأَعْدَاءِ إِنْ نَبَحْتَ عَلَيْكَ
أَوْ أَرْسَلْتَ جَنْدَ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَى مِنْهَا إِلَيْكَ
أَوْ أَعْلَنْتُ وَبِكُلِّ أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ وَنَفَذْتُ حَرْبًا عَلَيْكَ
لَكِنَّ مَا يَدْمِي ضَمِيرِي أَنْ يَقُومَ بَنُوكَ بِالتَّدْمِيرِ فِيكَ

القوانين المتعلقة بسنة الأخوة في سورة الأنفال:

لقد أظهرت البصائر القرآنية في سورة الأنفال عددًا من القوانين الأساسية المتعلقة بهذه السنة الغائبة حسب مواضعها في السورة، ومنها:

القوانين المتعلقة بسنة الأخوة في سورة الأنفال

القانون الأول

يجب إصلاح ذات اليمين دون تأخر أو إبطاء:

﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ يَمِينِكُمْ﴾ [الأنفال: 1]



القانون الثاني

بحرم التنافع بين الأفراد والأنظمة والشعوب:

﴿وَلَا تَزْعُمُوا فَتَفْسَلُوا وَتَذْهَبَ بِحُكْمِكُمْ﴾ [الأنفال: 46]



القانون الثالث

يجب على المسلمين أن يستوعب بعضهم بعضاً، يحققوا عوامل التآليف بين قلوبهم:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ...﴾ [الأنفال: 63]



القانون الرابع

يجب إقامة رابطة الموالاة الإسلامية التي تصل بين أفرادها بروابط غير قابلة للانفصام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 72]



القانون الخامس

يجب إدماج كل من انضم إلى بلد العدل ضمن مكوناته في جميع الفعاليات:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ نَعْمَ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: 75]

بِحُجَّتِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْيَوْمِ

القانون الأول: يجب إصلاح ذات البين دون تأخر أو إبطاء، ويبصّرنا بذلك قول ربنا جلّ

ذكره ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]:

إنّ البداية بإصلاح ذات البين في هذه السّورة (الأنفال) تقرّر وتؤكد أولوية هذا القانون وتقدمته على سواه من القضايا، وأن معالجة فساد ذات البين، ورتق الصدوع التي توهن من جسم الأمّة واجب لا يحتمل التّأجيل والتّسويف. لقد ارتبط جوّ يوم الفرقان بهذا القانون المصيريّ.

انظر كيف حاول أهل العلم فهم متعلّق الكاف في قوله تعالى ذكره: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنفال: ٥] على بضعة عشر قولاً، ومن أهمّها: أنّها تعلّق بأول الآية بإصلاح ذات البين قانون حتميّ كتحتّم قدره في إخراجك من بيتك. فهو تشبيه أمر قدريّ بأمر شرعيّ، أي: كما قدر عليك ربك أن تخرج من بيتك دون رغبة بعض المؤمنين حكم في الأنفال بأن تكون...

ويمكن القول بأنّ التّقدير:

فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله، فهذا الأمر الشرعي المطلوب منكم، ولتكن استجابتكم له شبيهة بالأمر القدري، الذي أخرج الله ﷻ فيه النّبي ﷺ لقتال المشركين في بدر، دون رغبة بعض المشاركين.

ومن أهمّ المهمّات أن تطبق قانون إصلاح ذات البين يقتضي إنشاء مؤسسات مستقلة عن الهيئات العالمية الأخرى، يكون لها نفوذ أشمل من أيّ هيئة أخرى.

وقبل أن نترك هذه الكلمات القرآنية التي تشيد لنا بنياناً متيناً من القوة الذاتية، والقوة التي تهابها وحوش الأرض المحبة للاعتداء، لا نبرح حتى ننظر في قول ربنا في ختام الآية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

هنا نجد التهيج العظيم لآصرة الإيمان التي تعمل عملها في إصلاح أحوالنا، وتدفعنا دفعاً إلى إصلاح ذات بيننا، وما أنت ترى كيف يعمل الشيطان وجنوده على توهين هذه الآصرة وجعلها للدعاية أكثر منها للعمل والتأثير والتنظيم وإقامة المؤسسات حولها والتفكير بها والتدبير، ولا يعمل الشيطان عمله في تدميرها إلا لِمَا تُمَثِّلُهُ من إظهار قوة الإسلام وعزة بنيهِ، ويقرّر ابن عاشور رحمته الله أن الأواصر التي بين البشر متفاوتة حسب سعة مرجعها وضيقه، ومقدار صلوحيتها للدوام والطول، والاضمحلال والقصّر.

فآصرة العائلة آصرة ضعيفة؛ لضيق انتشارها.

وآصرة الصهر أوسع انتشاراً وأوهن في الاعتبار.

وآصرة الشعب والأمة أوسعها، وفي خلالها أواصر تشبه هذه كالحبي والقبيلة، وغيرها، ولا يخفى طول بعضها وقصره.

ووراء هذه الأواصر آصرة تُمَثِّلُ إلى جانب الإنسانية، وهي واسعة جد الاتساع، ألا وهي آصرة الدين، فجعل الإسلام جامعةً الدين هي الجامعة الحقّ للمسلمين، وأبقى ما عداها فرعية تعتبر صالحة ما لم تُعَدَّ على الجامعة الكبرى بالانحلال.

فالجامعة الدينية لما كانت راجعة إلى الجانب العقلي المحض وهو الجانب الأقوى الذي به كان الإنسان إنساناً، كانت أولى الجوامع بالاعتبار، وكانت هي الأولى بأن يدعو لها دين جاء لعامة البشر، وجاء باقياً إلى منتهى العالم، وهي أيضاً الجامعة الفطرية؛ لأنها تعتري إلى

أن ينزع ما عند الآخر من رأي ويلقي به، أو من نزع إلى الشيء نزوعاً إذا مال إليه، فإنَّ كلَّ واحد من المتنازعين في الأمر يميل إلى غير ما يميل إليه الآخر، وهذا الذي رجَّحه محمد رشيد رضا رحمه الله (١).

والنَّهي عن التَّنازع يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتَّفاهم والتَّشاور، ومراجعة بعضهم بعضاً، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والنَّهي عن التَّنازع أعمُّ من الأمر بالطَّاعة لولاة الأمور؛ لأنَّهم إذا نهوا عن التَّنازع بينهم، فالتَّنازع مع ولي الأمر أولى بالنَّهي (٢).

فإن قلت: ما الأثر المترتب على التَّنازع؟

الجواب: ولَمَّا كان التَّنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه بيان سيئ آثاره، فجاء بالتَّفريع بالفاء في قوله: ﴿فَتَفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فحذَّره من أمرين معلوماً سوء مغبَّتَهما: وهما الفشل، وذهاب الرِّيح.

ولعلك تسأل: فما معنى الفشل؟

الجواب: الفشل: انحطاط القوَّة، وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصحُّ أن يكون تمثيلاً لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوَّته وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل.

(١) تفسير المنار (١٠/٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/٣٠، ٣١).

فإن قلت: ولم كان التنازع مفضيًّا إلى الفشل؟

الجواب: لأنه يثير التَّغاضب ويزيل التَّعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يترَبَّص بعضهم ببعض الدَّوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتِّقاء بعضهم بعضًا، وتوقُّع عدم إفاء النِّصير عند مآزق القتال، فيصرف الأُمَّة عن التَّوجُّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكَّن منهم العدوُّ.

ولعلك تسأل: فما المراد بالريِّح؟

الجواب: الرِّيح حقيقتها تحرك الهواء وتموُّجه، واستعيرت هنا للغلبة، ووجه الشَّبه في هذه الاستعارة هو أن الرِّيح لا يمانع جريها ولا عملها شيء فشبه بها الغلب والحكم، والمعنى: وتزول قوَّتكم ونفوذ أمركم؛ وذلك لأنَّ التَّنازع يفضي إلى التَّفَرُّق، وهو يوهن أمر الأُمَّة^(١).

القانون الثالث: يجب على المسلمين أن يستوعب بعضهم بعضًا، ويحقِّقوا عوامل التَّأليف بين قلوبهم حتى يكتسبوا تأثيرًا حقيقيًّا على المستوى المحلي والدَّولي، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى جدُّه: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وهذا يقتضي الدِّلة للمؤمنين، وخفض جناحهم لبعض؛ ولذا قال الله ﷻ في وصف الأُمَّة المنقذة من ظلمات الاستضعاف الحالكة: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فعُدِّي كلمة: ﴿أَذَلَّةٌ﴾ بـ(على)، مع أنَّ المعتاد أن تتعدَّى باللام، أو بنفسها، وإنَّما عدَّها بـ(على)؛ لأنَّه ضَمَّنْها معنى العطف، وكأنَّه يقول: أذلةٌ حال كونهم يعطفون على المؤمنين، فيتعاملون معهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٣١، ٣٢).

بنفسية الرّحمة والعطف، لا بنفسية الغضب. والذُّلُّ في هذه الآية ذُلُّ التّواضع، الذي يقتضيه الدّين وترك الاستكبار والنّخوة، لا ذُلُّ الهوان، فإنّه مذموم، فالمعنى أنّ «جَانِبَهُمْ لِيَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، ليس أنهم أذلاء مُهَانُونَ»^(١).

ومن حِسان خصال العرب المحمودّة تَمَدُّحُهُمْ بِمُطَاوَعَةِ الإِخْوَانِ، وخفض الجناح لهم تواضعًا، ومن ذلك قول بعضهم:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ صَحَابِي وَإِنِّي إِذْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
وَإِنِّي لَعَبْدُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ وَحَامِيَهُمْ بِالسَّيْفِ، وَالْدِّينِ قَابِسُ
وقال آخر:

عَبِيدُ إِخْوَانِهِمْ حَتَّى إِذَا رَكَبُوا يَوْمَ الْكُرِيْهِةِ فَالْأَسَادُ فِي الْأَجَمِ^(٢)
«والتّأليف بين قلوب المؤمنين مِنّةٌ أخرى على الرّسول ﷺ، إذ جعل أتباعه متحابّين، وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النّفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضّلون الجيش المؤلّف من قبيلة واحدة، لأنّ ذلك أبعد عن حصول التّنازع بينهم. وهو -أيضًا- مِنّةٌ على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحْن، التي كانت دأب النّاس في الجاهليّة، فكانت سبب التّقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة»^(٣).

(١) معاني القرآن وإعراجه، الزجاج (٢/ ١٨٣).

(٢) المذاكرة في ألقاب الشعراء، الشّاذلي الإربلي، (ص: ١٥١، ١٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٣)

القانون الرابع: يجب إقامة رابطة الموالاة الإسلامية التي تصل بين أفرادها بروابط غير قابلة للانقسام، ويصيرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فماذا تعني الموالاة - أعزك الله -؟

تعني: إنشاء التحالفات الإسلامية، والهيئات التنفيذية لمبادئ الأخوة بالنفسية العاطفية الصادقة لا بالصبغة الرسمية الوظيفية، وهذا التحالف من أخطر الأسس العملية في استحقاق النصر، وقد تستلزم هذه التحالفات الهجرة إلى الديار الإسلامية الخالصة؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فجعل الله - عزَّ جأزه - واجباً على أصحاب الدار والمنعة والعزة استقبال المهاجرين، وفتح الأبواب للاجئين، وموالاتهم بإدماجهم ليكونوا جزءاً من المجتمع والدولة، كما جعل واجباً على المهاجرين موالاة أنصارهم في الدين، ومنع الموالاة لمن لم يهاجر، إلا أن يستنصر فينصر، من غير نقض ميثاق، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: «فَأَمَّا إِذَا أَرَادَ الْعَدُوُّ الْهُجُومَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ دَفْعُهُ وَاجِباً عَلَى الْمُقْصُودِينَ كُلِّهِمْ، وَعَلَى غَيْرِ الْمُقْصُودِينَ؛ لِإِعَانَتِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وَكَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِ، وَسواء كان الرَّجُلُ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ لِلْقِتَالِ أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَهَذَا يَجِبُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، مَعَ الْقِلَّةِ

وَالْكَثْرَةَ، وَالْمَشْيَ وَالرُّكُوبَ، كَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَمَّا قَصَدَهُمُ الْعَدُوُّ عَامَ الْخَنْدَقِ لَمْ يَأْذَنَ اللَّهُ ﷻ فِي تَرْكِهِ لِأَحَدٍ، كَمَا أَدْنَى فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ابْتِدَاءً لَطَلَبِ الْعَدُوِّ، الَّذِي قَسَمَهُمْ فِيهِ إِلَى قَاعِدٍ وَخَارِجٍ، بَلْ دَمَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. فَهَذَا دَفْعٌ عَنِ الدِّينِ وَالْحُرْمَةِ وَالْأَنْفُسِ، وَهُوَ قِتَالٌ اضْطِرَّارٍ، وَذَلِكَ قِتَالٌ اخْتِيَارٍ، لِلزِّيَادَةِ فِي الدِّينِ وَإِعْلَائِهِ، وَلِإِزْهَابِ الْعَدُوِّ، كَغَزَاةِ تَبُوكَ، وَنَحْوِهَا^(١).

يَتَرْتَّبُ عَلَى عَدَمِ إِقَامَةِ الْمَوَالَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْفَسَادُ الْعَرِضُ فِي الْأَرْضِ الَّذِي لَا يَمَسُّ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ، بَلْ يُعْطِي صُورَةً مَشْوَهَةً عَنِ الْإِسْلَامِ أَمَامَ الْعَالَمِ؛ وَلِذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضُفِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وَهَذَا يَقْتَضِي دَعْمَ الْقِيَادَاتِ الرَّاشِدَةِ الَّتِي تُخْلِصُ لِهَذَا الْمَبْدَأِ.

وَالْآيَةُ تَبَيَّنَ بِوُضُوحٍ أَنَّ الْوَاقِعَ يَكْذِبُ مَزَاعِمَ عَدَمِ التَّحَالُفِ الدِّينِيِّ، فَالْكَفَرُ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ أَشْكَالُهُ لَكِنَّهُ يَعْقِدُ التَّحَالُفَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ بَيْنَ مَكُونَاتِهِ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى عَدَمِ التَّكْتُلِ الْقَائِمِ عَلَى الْأَسَاسِ الْإِيمَانِيِّ شُيُوعُ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ الْكَبِيرِ.

أَلَا تَرَى كَمْ دُمِّرَتْ مِنْ دُولٍ، وَأُبِيدَ مِنْ أَبْرِيَاءٍ، وَاغْتَضِبَتْ مِنْ نِسَاءٍ، وَأُحْرِقَ مِنْ أَطْفَالٍ، وَدُمِّرَتْ مِنْ مَسَاجِدَ، وَشَرِدَتْ مِنْ مَلَائِينَ؟ أَلَا تَرَى كَمْ أُجِيعَ مِنْ شُعُوبٍ، وَسُرِقَتْ مِنْ ثُرَوَاتٍ؟

(١) السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي إِصْلَاحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ (ص: ١٠٣).

لا يمكن لوصف أن يستوعب كلَّ هذا الظُّلم الذي ملأ الأرض؛ بسبب تخاذل المؤمنين عن إقامة الموالاة الإيمانيَّة بين مكُوناتهم، ثم ما زال كثير من المؤمنين يجادلونك في الحقِّ بعد ما تبَيَّن كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

المؤمنون المنصرون يقومون بالتعاضد والتناصر، فمنهم من يهاجر ويترك محابَّه وملذَّاته، ومنهم من يؤوي ويناصر، ويشارك في محابَّه وملذَّاته حسب المباح الشرعيِّ له، ويبيِّن الله ﷻ هذا التآزر الذي يفتقده المسلمون اليوم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

القانون الخامس: يجب إدماج كلِّ من انتهى هجرةً إلى بلد العدل ضمن مكُوناته في جميع الفعاليات، ويحرم إقامة مبادئ عنصريَّة ضده، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى مجده:
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فالولاء الإيمانيُّ يتجاوز الزَّمان، والمكان.. ألا يحذُر من يطعن فيما سبق بقوله وعمله أن ينقض حقيقة إيمانه بيده؟ «فعقد سبحانه الموالاة بين المهاجرين والأنصار، وبين من آمن بعدهم وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، والمهاجر: من هجر ما نهى الله ﷻ عنه»^(١).

«لقد اجتمع في المجتمع المسلم المتفوق: العربيُّ والفارسيُّ والشَّاميُّ والمصريُّ والمغربيُّ والتُّركيُّ والصِّينيُّ والهنديُّ والرُّومانيُّ والإغريقيُّ والاندونيسيُّ والإفريقيُّ... إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمَّعت خصائصهم كلُّها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ١٨٢).

المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولم تكن الحضارة الضخمة يوماً عربية، وإنما كانت دائماً إسلامية، ولم تكن يوماً ما قومية، إنما كانت دائماً عقيدية.

وحتى لا يفهم أن الولاء الإيماني يقضي مطلقاً على الآصرة الرحمية، ختم الله ﷻ السورة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

[٧٥].

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ: مشاورَة أهل الرّأي في القتال، وإدارة الخطّة قبل المعركة:

إن عدم التّنازع لا يعني عدم تداول الرّأي، ولا يدلُّ على منع تبادل الخبرات، ويدلُّ لذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فإن الآيات تدلُّ بوضوح على وجود تبادلٍ للرّأي، وتشاور قبل الالتقاء بالجيش المشرك، والآيات تدلُّ على مجادلة واضحة من بعض أصحاب النّبي ﷺ يطلبون عدم المواجهة للكفار.. الآن قلب الطّرف في الأحاديث والسّير لترى عدم ظهور تلك المجادلة في الحقّ.. بل ستجد الإذعان، وحبّ المواجهة قد غلبا على آراء أصحاب النّبي ﷺ، فعن ثابت، عن أنسٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلّم أبو بكرٍ رضي الله عنه، فأعرّض عنه، ثمّ تكلم عمرُ رضي الله عنه، فأعرّض عنه، فقام سعدُ بن عبادة رضي الله عنه، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا^(١).

(١) مسلم (١٧٧٩)، «أن نخيضها البحر لأخضناها»: يعني الخيل، أي: لو أمرتنا بإدخال خيولنا في البحر لفعلنا. «أن نضرب أكبادها»: كناية عن ركضها. «برك الغماد»: أما برك فهو بفتح الباء وإسكان الراء، وأما الغماد فبغين معجمة مكسورة ومضمومة لغتان مشهورتان، لكن الكسر أفصح وهو المشهور، وهو موضع من وراء مكة بخمس ليالٍ بناحية الساحل، وقيل ببلدتان، وقال القاضي وغيره: هو موضع بأقاصي هجر.

أفيعني ذلك أنهم لم يجادلوه في الحق بعد ما تبين؟

كلّا! فالآية تذكر ذلك، وأما الحديث فأكمل ما لم تذكره الآية، ومما يدل على المشاورة أيضاً قوله تعالى جده: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ ثَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]؛ إذ الآية تبين طريقة إدارة النبي ﷺ للحوار فيما لم يرد فيه نص، حتى جاء الوحي مصححاً للقرار، لا ناعياً على طريقة إدارة القرار، فالعتاب على نتيجة الشورى، لا على مبدأ الشورى، ويمكن الاستئناس له بما رواه ابن إسحاق رحمه الله أن الحُباب بن المنذر بن الجموح رحمه الله قال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمزلاً أنزلكه الله ﷻ ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛ فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى»^(١).

إن تداول الرأى وتقليب وجوهه وتثوير الأفكار واعتصار الفكر من ذوي التجربة وأرباب الخبرة والتخصص، ينبغي أن يكون منهجاً سالكاً، وطريقاً لاجباً.. وتالله إنك واجد في ميدان البطولة والشجاعة أبطالاً كثرًا، ولكن في ميدان استخراج الآراء الصائبة والأقوال السديدة لن

(١) وذكرها ابن حبان في أول كتاب الثقات (١/١٥٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٥)، وهي مضعفة عند أهل العلم من حيث السند، قال الذهبي: «منكر الحديث»، وتتبع المحقق طرق الحديث فوجدوا لا تخلو من علة، ثم قال: «الحديث باق على ضعفه». ينظر: مختصر استدارك الحافظ الذهبي (٥/٢١٣٩-٢١٤١)، وضعفه الألباني في دفاع عن الحديث النبوي والسيرة (ص: ٢٦).

۲۸۱

الهزيمة في صورتها الحسيّة، مع التّفيح والتّشيع، والتّعريض بإعطاء الأدبار للأعداء»، وقد أحسن الجاهليّ وأجمل حين قال:

فلسنا على الأعقابِ تَدْمَى كُلوْمُنَا ولكنْ على أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا^(١)
والمعنى: «أي فلا تولّوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم، وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعدداً، وإذا كان التّزاحف من الفريقين، أو كان الرّحف من المؤمنين فتحرّيم الفرار والهزيمة أولى، ولفظ: (لقيتموهم زحفاً) يصلح للأحوال الثلاثة، ورُجّح الأوّل هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية، وكون النّهي عن التّولي والفرار إنّما يليق بالمزحوف عليه؛ لأنّه مظنة له، ويليّه ما إذا كان التّزاحف من الفريقين، وأمّا الرّاحف المهاجم فليس مظنة للتّولي والانزهاز فيبدأ بالنّهي عنه، وهو منه أقبح»^(٢).

السّنة الرابعة: سُنّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تعني الحماية المجتمعيّة من الانهيار والدّمار، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، [الأنفال: ٢٥].

أحوج ما تكون صفوف المحقّين للأمر بالمعروفات، والتّناهي عن المنكرات في مواطن النّزال، وميادين المعارك؛ إذ هم إنّما يُنصرون بنصر الله إيّاهم، ودفعه عنهم، والله **عَلِيمٌ** إنّما ينزل نصره على من آمن، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فإذا توافقوا هم

(١) البيت للحصين بن الحمام. ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ٢٢٤).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥١٣).

وأعداؤهم في عصيان الديان، وخفت داعي التآمر بالخior والتناهي عن الشرور لم تبق لهم مزية يستحقون بها نصراً وعزاً على عدوهم.

«والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره، ولا تقف في وجه الظالمين ولا تأخذ الطريق على المفسدين.. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين.. فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع وهم ساكتون، ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله ﷻ من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون!«.

فعن ابن عباس رضي الله عنه: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»، قال: «أمر الله ﷻ المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله ﷻ بالعذاب»^(١).

ويذكر ابن عاشور رحمته الله أن «حاصل معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس... فعلى عقلاء الأقسام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا ديب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلَّ بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يُفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرّغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأنَّ أضرار

(١) تفسير الطبري (١٣ / ٤٧٤).

حلولها تصيب جميعهم. وبهذا تعلم أنَّ الفتنة قد تكون عقاباً من الله تعالى في الدنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيويَّة التي تصيب الأمم^(١).

السُّنَّة الخامسة: القيام بأمانة المسؤوليَّة، والحذر من التَّلَاعِب الشَّيْطَانِيَّ بِالنَّفْس
الإنسانيَّة فيما يتعلَّق بالتَّأْوِيل عند التَّحَوُّص في الأموال، أو المناصب، ويبصِّرنا بذلك
قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨]:

وقد تتعجَّب من إيراد هذه الآية في سورة تتكلَّم عن معركة عسكريَّة.. لا تعجب! هاهو العبقريُّ المحدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُدخِل ضمن مفهوم الخيانة العامَّة هنا: الخيانة العسكريَّة: ممَّا حدث لحاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- عن عمر وحاطب والصَّحابة أجمعين-، ويحدِّث عليّ رضي الله عنه عن تفصيل ذلك، فيقول: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبَا مَرْثِدٍ، وَالزُّبَيْرَ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ؛ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمَشْرِكِينَ، مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه، إِلَى الْمَشْرِكِينَ»، فَأَذَرَكْنَاهَا تَسِيرٌ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْنَا: الْكِتَابُ، فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ، فَأَنْخَنَاهَا، فَالْتَمَسْنَا، فَلَمْ نَرَ كِتَابًا. فَقُلْنَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكَ. فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهَوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ. فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ حَاطِبٌ رضي الله عنه: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٦، ٣١٧).

أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ، يَدْفَعُ اللَّهُ ﷻ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ ﷻ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا» فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَنِي فَلَا ضَرْبَ عُنُقِهِ! فَقَالَ: «أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟» فَقَالَ: «لَعَلَّ اللَّهَ ﷻ أَطْلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجِبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ، أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ ﷺ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^(١).

إنَّهَا التَّرْبِيَةُ النَّبَوِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الْفَضْلِ لِأَهْلِهِ، وَعَدَمِ نِسْبَةِ الْعَصْمَةِ لَهُمْ.. بَلْ تَبْقَى مُحَاسِبَتُهُمْ، وَإِعَانَتُهُمْ لَهُمْ عَلَى وَسْوَاسِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ..

وَلَا عَجَبُ أَنْ تَأْتِيَ الْآيَاتُ الْمَحْذَرَةُ مِنَ الْخِيَانَةِ بِسَبَبِ الْمَالِ أَثْنَاءَ الْكَلَامِ عَنِ الْحَالَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ! فَقَدْ خَلَّتِ الْأَيَّامُ، فَأَرْتُنَا مَقْدَارَ الْجَرَاءِ عَلَى الْمَنَاصِبِ، وَالْأَمْوَالِ بِسَبَبِ الْأَوْلَادِ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ خَاطَبَ صَفْوَةَ الْخَلْقِ، وَأَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أَفَلَا يَكُونُ سِوَاهُمْ أَوْلَى بِخُطَابِ كَهَذَا بَلْ وَأَشَدَّ؟

اسْمَعِ إِلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ يَحْدِثُنَا عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ مُصَحِّحًا لَظَنِّ كَانَ قَدْ وَقَرَ فِي نَفْسِهِ حِينَئِذٍ يَقُولُ: «لَوْ حَلَفْتُ يَوْمَئِذٍ رَجُوتُ أَنْ أُبَرَّ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِّنَّا يُرِيدُ الدُّنْيَا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]»^(٢).

لَقَدْ تَعَلَّمَتِ الْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ هَذِهِ السُّنَّةَ وَلَوْ أَمَّا وَمَالَاتِ التَّفْرِيطِ فِيهَا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، لَا بِالْكَلامِ وَلَا بِالْعِتَابِ، وَلَكِنْ تَعَلَّمَتُهَا مَعَ هَذَا بِالْدمَاءِ وَبِالْآلَامِ، وَدَفَعَتْ ثَمَنَهَا غَالِيًا: هَزِيمَةً بَعْدَ

(١) البخاري (٣٩٨٣).

(٢) مسند أحمد، (٤٤١٤)، وقال شاكر: إسناده صحيح.

نصر، وخسارة بعد غنم، وجراحاً لم تكد تدع أحداً معافى، وشهداء كراماً فيهم سيّد الشهداء حمزة عليه السلام، وأعلى من ذلك كله وأشدُّ وقعاً على الجماعة المسلمة كلّها جرحُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، وشجُّ وجهه الكريم، وكسرُ رباعيّته.

ولقد رأينا في سنن الأولين أن الله تعالى حرّم النصر على الإسرائيليين لما غلّوا شيئاً يسيراً من المال، ففي سفر يشوع الأصحاح السابع يذكر أن نفرًا قليلاً من الناس هزموا عدداً كبيراً من الإسرائيليين بسبب الغلول الذي غلّه أحدهم:

٢ وأرسل يشوع رجالاً من أريحا إلى عاي التي عند بيت آون شرقي بيت إيل، وكلمهم قائلاً: «اصعدوا تجسّسوا الأرض». فصعد الرجال وتجسّسوا عاي.

٣ ثم رجعوا إلى يشوع وقالوا له: «لا يصعد كلّ الشعب، بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عاي. لا تكلف كلّ الشعب إلى هناك لأنهم قليلون».

٤ فصعد من الشعب إلى هناك نحو ثلاثة آلاف رجل، وهربوا أمام أهل عاي.

٥ فضرب منهم أهل عاي نحو ستة وثلاثين رجلاً، ولحقوهم من أمام الباب إلى شباريم وضربوهم في المنحدر. فذاب قلب الشعب، وصار مثل الماء.

٦ فمزّق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرّب إلى المساء، هو وشيوخ إسرائيل، ووضعوا تراباً على رؤوسهم.

٧ وقال يشوع: «آه يا سيّد الرّب! لماذا عبّرت هذا الشعب الأردن تعبيراً لكي تدفعنا إلى يد الأموريين لبيدونا؟ ليتنا ارتضينا وسكنّا في عبّر الأردن».

٨ أسألك يا سيّد: ماذا أقول بعد ما حوّل إسرائيل قفاه أمام أعدائه؟

٩ فيسمع الكنعانيون وجميع سكّان الأرض ويحيطون بنا ويقرضون اسمنا من الأرض. وماذا تصنع لاسمك العظيم؟

١٠ فقال الرَّبُّ ليشوع: «قم! لماذا أنت ساقط على وجهك؟».

١١ قد أخطأ إسرائيل، بل تعدّوا عهدي الذي أمرتهم به، بل أخذوا من الحرام، بل سرقوا، بل أنكروا، بل وضعوا في أمتعتهم.

١٢ فلم يتمكن بنو إسرائيل للثبوت أمام أعدائهم. يديرون قفاهم أمام أعدائهم؛ لأنهم محرومون، ولا أعود أكون معكم إن لم تبيدوا الحرام من وسطكم^(١).

السُّنَّةُ السَّادِسَةُ: المحاسبة الدَّقيقة على المسؤوليّات الفرديّة المتعلّقة بالشَّأن

العَامّ، وعدم جعل حالة الطَّوارئ ستارًا لمنع تلك المحاسبة:

فهذه المعركة -معركة بدر- أعظم معركة في التَّاريخ الإسلامي؛ إذ نقلت المسلمين من مرحلة إلى مرحلة.. انتقلوا إلى القدرة على المواجهة العسكريّة للمخاطر، والتَّحدّيات الدَّوليّة أو الخارجيّة.. فهل أسقط شرف مشاركتهم في هذه المعركة مبدأ المحاسبة؟

هذا المبدأ الأساسي للوصول إلى صناعة النّصر نراه متجليًا في السُّورة، حيث يحاسب الله ﷻ البدريّين على مشاعر كان يمكنهم أن يجاهدوها، منها قوله تعالى جده: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ۖ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ۖ﴾

[الأنفال: ٥ - ٧].

(١) سفر يشوع، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣٦).

فهذه الآيات من أعجب الآيات التي تبني النفس الإسلامية المتزنة السوية،
فشرف المشاركة والأعمال لا تلغي محاسبة الرجال، والمحاسبة لا تعني نسيان
الفضائل.

ولاحظ أنه قال معاتباً لهم: ﴿يُجَدِّدُوكَ فِي الْحَقِّ﴾، فسمّاه حقاً لوضوحه، وهم ما زالوا
يجادلون فيه.. فقد يقول قائل لم يشهدهم: ربّما جادلوا في حقّ ملتبس، أو قبل أن يتبين، فقال
الله ﷻ منعاً لهذا الفهم: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.. وهذه معاتبّة شديدة، ومحاسبة تحمّر منها الوجوه
خجلاً.. وينقل الاعتراف بتبعاتها عبادة بن الصّامت ؓ فيقول: «فيما معشر أصحاب بدر،
نزلت حين اختلفنا في النّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله ﷻ من أيدينا، وجعله إلى رسول
الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بّواء، يقول: على السّواء»^(١).

ويظهر مبدأ المحاسبة في قصّة الأسرى، مع أنها مسألة اجتهديّة.. وسُنّة المحاسبة أهملت
في مراحل عديدة من التاريخ الإسلامي، وترى أنّ هذه الآيات جمعت بين معرفة الفضل
ومبدأ المحاسبة، وأن أحدها لا يلغي الآخر.

والمحاسبة مبدأ يتوجّب تلزمه بين العاملين لدين الله ﷻ في جميع المستويات والأطُر، وإنّ
الاستنكاف عنه لسبب أو آخر إنما يبشّر باستمرار مسلسل الهزائم والنكسات المؤلمة، وهو
عملية تبادلّة بين القيادة والقواعد، فكما أنه لا غنى للقاعدة عن محاسبة القيادة ومتابعتها
وتقييمها فإنه لا غنى للقيادة عن محاسبة القاعدة لأدائها، وفحص قراراتها، لا يكون البناء

(١) أحمد (٢٢٧٩٩)، وقال الأرنؤوط: «حسن لغيره»، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد (٢٦/٧).

الدَّعْوَى سَليماً إلا إذا كان باستطاعة القاعدة أن تتحكَّم في قيادتها، وتلجمها وقت الحاجة، وتستبدلها عند الصَّرورة^(١).

وإنَّ من أكثر الحواجز الحائلة دون المحاسبة الحقَّة المثمرة المصوبة المبالغة في ممارسة الدور الأبوي من جهة القيادة الدَّعويَّة، والإمعان في تقمص دور المريد لدى القواعد والجنود، وتغليب الإدارة بالـ(كاريزما) على مأسسة العمل وتنظيم أُطره، وضبط ديناميكيَّة إيقاعه، وانسيابية حراكه.

السُّنَّة السَّابعة: التَّشهير الإعلاميُّ المكافئ للإعلام المضلَّل بفضح مؤامرات العدو:

يجب تعريضها من ألبسة ثياب أعلام الزُّور، ودجاجة الكذب، فهي مؤامرات مجرمة معتدية، لكنها ذات بعد دينيٍّ لا يتخلف سواء انطلقت من دينٍ باطل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ ۝﴾ [الأنفال: ٣٠ - ٣٢].

أم نبتت من دين محرَّف: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٣ - ٣٥].

(١) ينظر: الحركة الإسلامية في السودان، محمد المختار الشنقيطي (ص: ٢٢٥).

وهنا ينبغي أن يشتغل الإعلام الرَّسميُّ والشَّعبيُّ على فضح المعتدين من أهل الكتاب، الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وما أكثر ما يشيعونه في العالم! في تاريخ مبكّر بعيد الحرب العالميّة، وتحديدًا في يوليو ١٩٤٧م أنشأت الحكومة الأمريكيّة الجهاز المعروف اصطلاحًا بالـ (CIA) ليتولّى الجانب الثّقافيّ في الحرب الباردة.. إنّ ما فعلته المخابرات الأمريكيّة في عالم الفنّ والأدب لإعادة بناء البنية الثّقافيّة.. يؤكّد سرعة الثّقافة في التّأثير على الوعي وعلى الوجدان، وفي قلب الحقائق، وتزوير الوقائع من خلال الرّواية الأدبيّة والدّراما في السّينما والتّلفزيون والمعارض الفنيّة والحفلات الموسيقيّة^(١)، فأخبرني برّبك: أين تجد تهويشات إعلام الأُمّة ووسائله المختلفة، وفي أيّ واد تهيم؟!

السُّنَّة الثامنة: فضح الضَّخّ المالي الهائل المنطلق من الأبعاد الدّينيّة الباطلة أو المحرّفة، وبيصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦]:

ذُكر هذا في القرآن المجيد، يعني ألا ينتظر أهل الحقّ ليهاجمهم الآخرون إعلاميًا وحسب.. بل يجب عليهم أن يُهرعوا إلى فضح التّمويل المجرم الذي يسبّب الفساد في الأرض، وهذا يقتضي سنّ القوانين المحاصرة لهذا الإمداد الماليّ، وليس العمل بالعكس بمحاصرة المال الذي ينشر الخير في العالم.

(١) من الذي دفع للزمار، ف. س. سوندرز، (ص: ١٦).

«والكفَّار في هذا الزَّمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصدِّ عن الإسلام وفتنة الضُّعفاء من العوام بجهادٍ سَلْمِيٍّ أعمَّ من الجهاد الحربيِّ، وهو الدَّعوة إلى أديانهم، والتَّوسُّل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم، والمسلمون مواتون يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون، ذلك بأنَّهم قوم لا يعقلون»^(١).

السُّنَّةُ التَّاسِعَةُ: المخاطبة الإعلامية السَّريَّة أو العلنيَّة المباشرة للعدوِّ المعتدي، بما يعني إمكانية التَّفَافُض المباشر معه إن ظهرت فيها المصلحة، مهما كان نوع الجرم الذي اقترفه:

ويطلب في هذه المخاطبة:

أولاً: الكفُّ عن الإجرام والتَّوقُّف عن الدَّسائس والمؤامرات، مع التذكير بالسُّنن الماضية في التَّاريخ في إهلاك المجرمين وتدمير المعتدين، وبيصُّرنا بذلك قوله تعالى جدُّه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ثانياً: دعوته إلى التَّوبة، والدُّخول في دين الله ﷻ، والانضمام لمعسكر الإسلام، وهذا العَمَر الله مكسب ونصر حقيق بأن يُفْرَح به أكثر من النَّصر العسكريِّ؛ إذ هو كسب قلوب ونجاة أرواح من عذاب الله ﷻ وعقابه الدُّنيويِّ والأخرويِّ، وتطميع لهم بالفلاح في الدَّارين ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وصناعة النَّصر على هذه الشَّكلة تكاد تكون سِمَة خاصَّة مسجلة لهذا الدِّين وأهله، فكم قصد أُمَّة الإسلام عدوُّ غاشم، وخصمٌ عاتٍ ظالمٌ فإذا به

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٥٠).

يستحيل تحت مطارق الدَّعوات الصَّادقة والمواعظ البالغة إلى ردِّ للإسلام مدافع عن حياضه، حامٍ لبيضته، وما ذلك على الله بعزيز.

السُّنَّة العاشرة: التَّعْبَةُ الرُّوحِيَّة، وتطبيق قوانين الانضباط عند الاضطرار إلى الاشتباك، وهي القوانين التي يترتب عليها النَّصْر غالبًا، ومن أهمها:

القانون الأول: رفع الرُّوح المعنويَّة، وعدم تهويل قوَّة العدو، ويصِّرنَا بذلك قوله تعالى مجده: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آَعِينِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آَعِينِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

التَّنْصِيصُ بذكر رؤيا النَّبِيِّ ﷺ في سياق الحديث عن شأن عسكريٍّ ومعركة مفصليَّة يشير إلى وجوب الاستفادة من كلِّ الوسائل، وتوظيف كلِّ البدائل في صناعة النَّصر ورفع المعنويَّات، والتَّعْبَةُ الرُّوحِيَّة للجنود.

وفي البداية: ظَنُّ (القائد) النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ الكافرين قليلٌ عددهم حسب ما رآه في منامه ليشجع المسلمين على المواجهة، وتقوى قلوبهم، فلا تغلبه شفقتة المعهودة على المؤمنين، وأمَّا في الآية: ٤٤ فقد بيَّن الله ﷻ أَنَّهُ جعل كلَّ طرفٍ يرى الطَّرْف الآخر قليلًا؛ ليتمَّ إغراء كلِّ طرف بالاشتباك، ثم ينزل التَّوْفِيق والنَّصر على المؤمنين.

قَلُّوا وَلَكِنَّهُمْ طَابُوا فَأَنْجَدَهُمْ
إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَآيَا عَارِضًا لَبَسُوا
نَآؤًا عَنِ الْمُصْرِخِ الْأَذْنَى، فَلَيْسَ لَهُمْ
قال السَّمَوَالُ بن عادياء:

وما ماتَ منا سيِّدٌ في فراشه
تسيلُ على حدِّ الطُّبَاتِ نُفُوسُنَا
ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتِيلُ
وليست على غير الطُّبَاتِ تسيلُ^(١)

القانون الثالث: الإكثار من ذكر الله ﷻ، فهو أعظم وسائل التعبئة النَّفسِيَّةِ، ويبيِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ولم يحدِّد ذلك بالفردية أو الجماعية، والجهريَّة أو السَّريَّة، والظاهر تنوع ذلك حسب إحداث الأثر المطلوب.

وذكر الله ﷻ شعار أهل محبَّته، فإذا ما أكثروا من ذكره في مواطن المواجهة كان ذلك أدعى لتعاظم وحضور المحبة في القلوب ولإرخاصهم النفوس في سبيله، والمحبُّون يفتخرون بذكر من يحبُّونه في هذه الحال، كما قال عنتره:

ولقد ذكرتُك والرِّمَاحُ كأنَّها
وقال الآخر:

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيَّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا
وقد نهلتُ منَّا الْمُتَقَفَّةُ السُّمُرُ^(٢)

(١) شرح ديوان أبي تمام (١/ ٢٤١).

(٢) ديوان السَّمَوَال (ص: ٧٢).

(٣) ديوان عنتره، (ص: ٢١٦).

(٤) البيت لأبي عطاء السندي، ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ص: ٤٤)، والمراد بـ(الخطي): رمح نفسه، أي: ذكرتُك بقلبي ورماح الخط تضطرب في الحرب بيننا، وقد رويت منا أي من دماننا.

۲۹۵

أَمَّا وَابْنُ الْخَطَّابِ ﷺ حَيٌّ فَلَا، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ النَّاسُ (بِذِي بَلْيٍّ، وَذِي بَلْيٍّ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَتَذَكَّرُ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا مِثْلَ الَّذِي يَفِرُّ إِلَيْهَا مِنْهُ فَلَا يَجِدُهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَظْهَرُ الْفِتْنُ) (١).
فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِعْفَاءِ عُمَرَ ﷺ لِخَالِدِ ﷺ فِي الْقِيَادَةِ إِلَّا أَنَّ خَالِدًا ﷺ لَمْ يَشْعُرْ أَنَّ الدَّهْرَ عَضُّ جَنَابِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ إِحْنَةً تَنْزِلُ مِنْ مَكَانَتِهِ.. إِنَّهُ يَقَرَّرُ أَنَّ الْفِتْنَةَ بَابُهَا مَغْلَقٌ مَا دَامَ ابْنُ الْخَطَّابِ ﷺ حَيًّا.

القانون السادس: الصَّبْرُ الْإِيجَابِيُّ، وَيَبْصُرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ: ﴿وَأَصْبِرُْوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَذَكَرَ الصَّبْرَ بَعْدَ الثَّبَاتِ لَتَحْقِيقِ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَكْرَهُهُ الْمَرْءُ، مِمَّا يُنْغِصُ تَفْكِيرَهُ، أَوْ نَفْسِيَّتَهُ مِنْ سُلُوكِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ، وَالْقِيَادَاتِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ الصَّبْرِ عَلَى مَكَارِهِ الْحَرْبِ وَمَشَاقِّهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ مُثَبِّتًا وَمَصْبِرًا عِبَادَهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣ / ٣٩)، الفتن للنعمان بن حماد (١ / ٥٢)، طبعة دار اللؤلؤة، وقال المحقق: «موقوف صحيح»، وفي غريب الحديث لابن سلام (٤ / ٢٩): «(ألقى الشام بوائيه) إنما هو مثل يقال للإنسان إذا اطمأن بالمكان، واجتمع له أمره.. وكذلك يقال: ألقى أرواقه، وألقى عصاه، قال الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ

وقوله: صار بئنيَّةً وعسلًا، فيه قولان: يقال: البئنيَّة: حنطة منسوبة... إلى بلاد معروفة بالشام من أرض دمشق، يقال لها: البئنيَّة، والقول الآخر: إنه أراد بالبئنيَّة اللبنيَّة، وذلك أن الرملة اللبنيَّة، يقال لها: بئنة، تصغيرها بئنيَّة، وبها سميت المرأة بئنيَّة. فأراد خالد ﷺ أَنَّ الشَّامَ لَمَّا اطمأنَّ وهدأ وذهبت شوكته، وسكنت الحرب منه، وصار ليئلاً لا مكروه فيه، فإنما هو خصبٌ، كالحنطة، والعسل عزلني، واستعمل غيري، قال: ذلك كله، أو عامته الأموي، وكان الكسائي، والأصمعي ﷺ يقولان نحو ذلك، وأما قوله: (وكان الناس بذي بليٍّ، وذو بليٍّ)؛ فإنه أراد تفرق الناس، وأن يكونوا طوائف مع غير إمام يجمعهم، وبُعْد بعضهم من بعض، وكذلك كل من بُعِدَ عنك حتى لا تعرف موضعه، فهو بذي بليٍّ، وفيه لغة أخرى: بذي بليان.

القانون السابع: اجتناب البطر، والتفاخر المرائي الفردي والجماعي، ويبصّرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأَنْفَال: ٤٧].

القانون الثامن: الحذر من إرجاف القوى المنافقة، والمريضة، والتذكير بإعلاء الروح المعنوية المتقدمة بالتوكل الإيماني، ويبصّرنا بذلك قوله ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ لَا دِينَ لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٤٩].

السُّنَّة الحادية عشرة: الاجترأ على المعاصي والأخطاء ليس أساساً وحيداً لنزول الهزيمة أو البأساء: فشدة العقوبة الإلهية للمذنبين تقترب باستقامة الطرف المقابل لئتم له النصر، فإن تساويا في الاجترأ على الذنوب - مهما تفاوتت ذنوبهم - يكن النصر حليف الطرف الأكثر احتياجاً ضمن الأسباب البشرية؛ فلم ينزل التوفيق الإلهي في جنب أحدهما:

فهنا طرفان: الوثنيون في مكة، والمسلمون في المدينة، وكثرة ذنوب الوثنيين، وظلمهم لا يعني أن المسلمين لا بد أن ينتصروا عليهم لمجرد كونهم مسلمين، بل إن وجدت الأخطاء الجماعية عند المسلمين، كان ذلك سبباً لتأخر الانتصار على الوثنيين، ولو كانت أخطاء المسلمين أقل من أخطاء المشركين وجرائمهم، ويبصّرنا بذلك الجمع بين ما حدث في بدر من نصر الله للمسلمين، وبين ما حدث في أحد حيث صرف الله المسلمين عن تحقيق كامل الانتصار بسبب أخطاء مؤثرة على الجماعية، وفرق بين المعاصي المؤثرة على المجتمع، وبين المعاصي الفردية التي تقع من الإنسان، لكنه يظل خائفاً مستتراً، فهذه الأخيرة لا تؤثر، فيوشك صاحبها أن يتوب إلى ربه سبحانه.

**السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: استنفار الحسّ الأُمِّيَّ إلى أعلى درجة حال وجود العداء الحربيّ،
فشريعة الرّحمة للعالمين لا تعني أن يتمّ فيها التّساهل مع المحاربين الماكرين؛ لأنّهم
يديرون معاركهم على مبدأ نقض العهود واستغلال الخيانات:**

ويصّرنا بذلك قوله عزّ جاره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ فَلَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ
فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٥٧].
وذا يصّرنا بسُنَّةٍ جديدة؛ إذ يجب عدم التّورّط في إبرام العهود مع من تظهر إشارات خيانتِهِ،
وإنذار من تمّ توقيع اتفاقات المهادنة معه بانتهاء المعاهدات إذا ظهرت نُذُرُ الغدر، ويصّرنا
بذلك قوله تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

**السُّنَّةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: الإعداد المقترن بسموّ الأهداف الحربيّة، والعمل على الإنتاج
الإبداعيّ والتصنيع المستقلّ في الميدان العسكريّ وَفَقَّ المستطاع:**

ويصّرنا بذلك قوله -عزّ جاره-: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَبْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ٦٠﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦١﴾ [الأنفال: ٦٠].
وأبرز مظاهر القوّة: الرّمي، فقد روى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله وهو على
المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا

إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ^(١)، لكن لا بدَّ من تنويع أسلحة المواجهة، وقد بيَّنت الآية نوعين أساسيين من الإعداد الحربي:

أسلحة القتال عن بُعد (الرَّمي)، وأسلحة الاشتباك المباشر والمرابطة (رباط الخيل)، كما أن معنى القوة يشمل مختلف أنواعها، ومعنى رباط الخيل يشمل آلات النقل الحربي.

أهداف الإعداد المذكور في الآية:

ثم بيَّن الله ﷻ أهمَّ أهداف الإعداد:

الأول: إنه إحداث توازن الرُّعب مع العدوِّ الظَّاهر والخفيِّ المتربِّص: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

الثاني: استحضار المكانة اللُّوجستية الخطيرة لمبدأ النَّفقة في الميدان العسكريّ.. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].. لماذا النَّفقة في الميدان العسكريّ؟ لأنَّ ذلك الذي يحفظ أمن الدُّول، ويجعل لها مكانتها المتميِّزة على المستوى العالميّ، ويحفظ العالم وفَّق مبدأ توازن الرُّعب، وتدافع القوى المتكافئة.

(١) مسلم (١٩١٧).



المهدف الأول: حماية الديار والأبناء:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاؤُنَا﴾ [البقرة: 246]

المهدف الثاني: إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان

وحماية حق الإنسان في الاختيار، وإنقاذ المستضعفين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ عَلَيْهَا﴾ [النساء: 75]

المهدف الثالث: رد الاعتداء، وردع قوى البغي والعدوان:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [البقرة: 139]

المهدف الرابع: القتال الرادع ضد الأهداف المظنون فيها الاعتداء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [البقرة: 123]

المهدف الخامس: الدفاع عن حقوق الإنسان

التي عبر عنها بأداء الأمانات إلى أهلها.

يَعْتَصِمُ إِلَّا الصَّالِحِينَ

أهداف القتال في الإسلام:

والقتال الذي شرعه الله ﷻ له خمسة أهداف:

فإذا قرأت القرآن المجيد وجدت التحديد الدقيق للقتال الذي يكون في سبيل الله ﷻ؛ إذ له

خمسة أهداف:

فالمهدف الأول: القتال لحماية الديار والأبناء، كما قال تعالى ذكره في قصة بني إسرائيل:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاؤُنَا﴾ [البقرة: 246].

والهدف الثاني: إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان، وحماية حق الإنسان في

الاختيار، وإنقاذ المستضعفين سواء كانوا مسلمين أم كفارًا، ويصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا

﴿٧٥﴾ [النساء: ٧٥].

ويدخل ضمن معاني الفتنة: التعذيب الذي يؤدي إلى اختيار عقيدة محدّدة نتيجة للقهر والضّغط الشّديد، فبعض المفسّرين فسروا كلمة (فتنة) بأنه الشّرك^(١)، وهذا تفسيرٌ بالنتيجة التي تنتج عن التعذيب.

التّعذيب الموجّه للشّعوب المستضعفة يجبرهم على اعتناق عقيدة محدّدة، وهنا لا بدّ من الهجوم الوقائي لإزالة قلاع الظلم، ودكّ معازل التعذيب والإجرام التي تسوم المستضعفين سوء العذاب، وبذلك يتحقّق أن يكون الدين لله ﷻ.

ما معنى ذلك؟ معناه أن يكون الدّين بين الإنسان وربّه ﷻ، فلا يكره أحدٌ على أن يدخل في هذا الدّين أو ذاك، فلا يكره على الشّرك كما لا يكره على الإيمان، فيختار المرء بينه وبين ربه ﷻ الدّين الذي يعتقده صواباً، ويبصّرنا بهذا الهدف قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوَلِّكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠].

الهدف الثالث: ردّ الاعتداء، وردع قوى البغي والعدوان، ويبصّرنا بذلك قول الله جل شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣/ ٥٦٧).

وذكر الله ﷻ في سورة البقرة ذلك في قوله جل شأنه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ولكنَّ اعتداءهم عليكم لا يحملنَّكم على الاعتداء عليهم بغير وجه حقٍّ، لذلك قال بعدها مباشرة: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

الهدف الرابع: القتال الرَّادع ضدَّ الأهداف المظنون فيها الاعتداء، وهي التي تسميها الدول المعاصرة اليوم: (الحرب الوقائيَّة، أو حرب الردِّع)، إلا أنَّ للمعارك العسكريَّة آدابها العظيمة في المنظور الإسلاميِّ، وبصَّرنا الله ﷻ بهذا الهدف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

الهدف الخامس: الدِّفاع عن حقوق الإنسان التي عبَّر عنها أداء الأمانات إلى أهلها، حيث تنال الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع حقوقها، والدِّفاع عن الحُكم بالعدل، وبصَّرنا بهذا أنَّ الله ﷻ أمر بأخذ الحذر بعد أن قرَّر جميع المبادئ الفاضلة في سورة النساء، وبينَّ الخطر الذي يتهدَّد هذا الرُّشد في إدارة الأمور الإنسانيَّة عندما ذكر لنا التَّحَاكُم إلى الطَّاغُوت، ثم قال بعد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ -إلى أن قال جلَّ مجده- ﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧١ - ٧٤].

الإسلام لا يعرف حربًا عسكريَّة للغنيمة ولا للسرقة ولا للسيطرة على خيرات الآخرين، ولا لبناء المجد الشَّخصيِّ، ولا لطموحات الاستعلاء في الأرض، ولا لتمجيد جنس على جنس... بل إنَّ من أهمِّ أهداف الحل العسكريِّ -عند تحمُّمه- تمكين البشر من نيل حقوقهم الفرديَّة والماديَّة بعدالة وإنصاف؛ ولذا يجب أن ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض، ولو كانوا كفَّارًا.

إِنَّ الحلَّ العسكريَّ إنما يُلجأ إليه لتمكين البشريَّة من التَّمَتُّع بخيرات الاستقامة على الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ.. الشَّرِيعَةُ التي تكفل لكلِّ ذي حَقٍّ حقَّه، حتى لو كان كافراً بل حتى لو لم يكن إنساناً بأن كان حيواناً أو بيته.. فمن أراد من المبْطُئِينَ كَفَّارَةً عن أفعاله المخْذَلَةِ، فكفَّارته الانضمام لمن يبذلون نفوسهم فدى للأبناء والديار والمستضعفين في الأرض، وليحترس من الطَّعن على من قدَّم حياته دفاعاً عن الحقِّ أمام الظُّلم والعدوان، (والأيدي القذرة ذات القفازات النظيفة).

السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: إعلان الجنوح إلى السَّلَم متى ما جنح العدوُّ إليه؛ إذ دين الرِّحمة للعالمين يعني أن يشمل السَّلَامُ الخلق أجمعين، وإعلان ذلك ابتداءً ضمن البيانات المُعْبَرَةِ عن الواقع الخير للكيان الإِسْلَامِيِّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ

لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال: ٦١]:

وهذا المبدأ من أهمِّ المبادئ الكاشفة لحقيقة العظمة الإنسانيَّة للدين الإِسْلَامِيِّ، ألا وهو تفضيل السَّلَم على الحرب إذا جنح العدوُّ له، بل هو الأصل، فالحرب ليست أصلاً في الإسلام ولا تقصد لذاتها، بل هي ضرورة من ضرورات الاجتماع تُقدَّرُ بقدرها^(١)، بخلاف ما يظهر من نبوءات العهد القديم.

وقد جانب الصَّواب من قال بأن آية: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ منسوخة، واشتدَّ نكير أبي جعفر الطَّبْرِيِّ على هذا الوجه فقال: «فأما ما قاله قتادة رحمته الله ومن قال مثل قوله، من أن هذه الآية منسوخة، فقولٌ لا دلالة عليه من كتاب، ولا سُنَّة، ولا فطرة عقل.

(١) تفسير المنار، (١٠/١٢٦).

وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أنَّ النَّاسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كلِّ وجه. فأما ما كان بخلاف ذلك، فغير كائنٍ ناسخاً^(١).

السنة الخامسة عشرة: الحذر من الخداع السياسي والعسكري والترص بالخداع الفاجر المتوحش من العدو سلماً وحرباً، لا يعني أن يتخلى المسلمون عن مبادئهم، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «لَمَّا كَانَ طَلَبُ السَّلَامِ وَالْهَدَنَةِ مِنَ الْعَدُوِّ قَدْ يَكُونُ خَدِيعَةً حَرِييَّةً، لِيَعْرِثُوا الْمُسْلِمِينَ بِالمَصَالِحَةِ ثُمَّ يَأْخُذُوهُمْ عَلَى غَرَّةٍ، أَيْقُظَ اللَّهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ لِهَذَا الاحْتِمَالِ فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْخُذَ الْأَعْدَاءَ عَلَى ظَاهِرِ حَالِهِمْ، وَيَحْمِلَهُمْ عَلَى الصَّدْقِ، لِأَنَّهُ الْخُلُقُ الْإِسْلَامِيُّ، وَشَأْنُ أَهْلِ الْمُرُوءَةِ، وَلَا تَكُونُ الْخَدِيعَةُ بِمِثْلِ نَكْتِ الْعَهْدِ، فَإِذَا بَعَثَ الْعَدُوُّ كُفْرَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ مِثْلِ هَذَا التَّسْفُلِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ تَكْفَلُ، لِلْوَفَى بِعَهْدِهِ، أَنْ يَقِيَهُ شَرَّ خِيَانَةِ الْخَائِنِينَ»^(٢).

السنة السادسة عشرة: التَّحْشِيدُ الْجَمَاعِيُّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَمْتِينُ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَعَدَمُ الْإِنْسِيَاقِ وَرَاءَ الْحَصُولِ عَلَى الْغَالِبِيَّةِ دَائِماً:

وبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، ومع وجوب التَّحْشِيدِ الْجَمَاعِيِّ الْكَمِّيِّ لِلْمُؤْمِنِينَ يَلْفِتُنَا النَّصُّ إِلَى ضَرُورَةِ

(١) تفسير الطبري (٤٢/١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦١/١٠).

۳.۵

مَرَّةً: أَنْ لَا يَفِرَّ عَشْرُونَ مِنْ مَائَتَيْنِ، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الْآيَةُ، فَكَتَبَ أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مَائَتَيْنِ. فَلَمَّا خَفَّفَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ. قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: وَأَرَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا^(١).
وَالنَّسْخَ هُنَا تَخْصِيصَ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ، وَلَيْسَ نَسْخًا لِلْحُكْمِ، كَمَا حَقَّقْتَهُ فِي كِتَابِي (الْأَسَاسُ وَالتَّنْوِيرُ فِي أَصُولِ التَّفْسِيرِ).

السُّنَّةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ:

من أهمِّ عوامل النَّصْرِ: فقه الدِّين، وفقه إدارة المدفاعة باستخدام الدُّول
للعامل العسكري، وباستخدام الشُّعوب والدُّول للعامل الثقافيِّ والعامل
السِّيَاسِي، وَبِصَّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فَبَيَّنَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَنَّ هَزِيمَةَ الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَحْجُبُونَ الْحَقَائِقَ عَنِ الْعَالَمِ سَبَبُهُ عَدَمُ فَهْمِهِمْ،
وَالْفَقْهُ يَعْنِي إِدْرَاكَ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ الدَّقِيقَةِ وَاسْتِنْبَاطَهَا مِنَ الْقَرَائِنِ الْوَاضِحَةِ.. هَذَا الْفَقْهُ الَّذِي
عَدَمَهُ الْكَفَّارُ الَّذِينَ عَاصَرُوا النَّبِيَّ ﷺ قَدْ يَتَجَرَّدُ مِنْهُ الْكَفَّارُ فِي عَصُورٍ أُخْرَى، وَرَبَّمَا يَصَابُ
الْمُسْلِمُونَ بِعَدَمِ الْفَقْهِ الْجَزْئِيِّ كَمَا تَرَاهُ الْآنَ.. فَمَاذَا يَقْتَضِي ذَلِكَ؟

إِنَّهُ يَسْتَدْعِي إِقَامَةَ الْمَرَكَزِ الْحَيَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْتِرَاطِيَّةِ، فَسَبَبُ الْفَقْهِ
الْمُسْتَوْعِبِ لِكَيْفِيَّةِ إِدَارَةِ الْحَيَاةِ، وَالْمَعَارَكَةِ مَعَ الْفُتَاتِ الْمَجْرَمَةِ، يُمْكِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ
يَتَفَوَّقُوا مَهْمَا قَلَّتْ أَعْدَادُهُمْ، حَتَّى لَوْ كَانُوا الْعُشْرُ؛ وَمِنَ الْفَقْهِ مَعْرِفَةُ أَنَّ الْآيَةَ (٦٦) مِنْ سُورَةِ

(١) البخاري (٤٦٥٢).

الأُنْفَال ليست ناسخة لما سبقها، بل هي رخصة مخففة، وإذا تمَّ شرط الأولى - وهو الصَّبْر والفقَه - نزل النَّصْر، وفي بيان ذلك يقول ابن عَبَّاس عليه السلام: وذلك أنه كان جعل على كلِّ رجل من المسلمين عشرة من العدوِّ، يُؤشِّبهم (يعني: يغريهم) بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على الغزو، وأنَّ الله ﷻ ناصرهم على العدوِّ، ولم يكن أمرًا عزمه الله ﷻ عليهم ولا أوجهه، ولكن كان تحريضًا ووصية، أمر الله ﷻ بها نبيَّه ﷺ، ثم خَفَّف عنهم، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فجعل على كلِّ رجلٍ رجلين بعد ذلك، تخفيفًا؛ ليعلم المؤمنون أنَّ الله ﷻ بهم رحيم، فتوكلوا على الله ﷻ، وصبروا، وصدقوا، ولو كان عليهم واجبًا كفروا إذن: كلَّ رجلٍ من المسلمين [نكل] عمَّن لقي من الكفار، إذا كانوا أكثر منهم فلم يقاتلوهم، فلا يغرنك قولُ رجالٍ! فإني قد سمعت رجالًا يقولون: إنه لا يصلح لرجلٍ من المسلمين أن يقاتل حتى يكون على كلِّ رجلٍ رجلان، وحتى يكون على كلِّ رجلين أربعة، ثم بحساب ذلك، وزعموا أنهم يعصون الله ﷻ إن قاتلوا حتى يبلغوا عدَّة ذلك، وأنه لا حرج عليهم أن لا يقاتلوا حتى يبلغوا عدَّة أن يكون على كلِّ رجلٍ رجلان، وعلى كلِّ رجلين أربعة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وقال الله ﷻ: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، فهو التَّحريض الذي أنزل الله ﷻ (١).

ومن مظاهر الفقه: التربية العسكرية لأبناء المجتمع، فهذا تطبيق مباشر لمفهوم التَّحريض الوارد في آيتي الأنفال والنِّسَاء، وهي التي تسمَّى اليوم (الخدمة الوطنيَّة)، ومن العجيب أن تجد أنَّ نسبة العسكريين للمدنيين في إسرائيل ١ إلى ٢٢، وهي تكاد تكون الأعلى في العالم،

(١) تفسير الطبري (١٤ / ٥٣).

وأبرز داعميها في الولايات المتحدة: (جيري فولويل) الذي يتزعم منظمة متوحشة سميت باسم تحريضي صريح، يسرق من الأكثرية الحقيقية آراءهم، وسمّاها: (الأكثرية المعنوية)، ومن تحريضه اللاهوتي الغريب قوله: «إذا لم يُظهر الأميركيون رغبة جازمة في تزويد إسرائيل بالمال والسلاح، فإن أميركا سوف تخسر ذلك كله»^(١).

السُّنَّة الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: إظهار القوَّة في موطنها مكافئ لإظهار الرِّحمة والسَّلام في

موطنيهما:

فقد أمر الله ﷻ بالجنوح إلى السَّلام، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون على هيئة يظنُّ العدوُّ المعتدي معها أنَّ السَّلام نشأ عن موقف ذلَّة واستجداء، ولذا كان الأمر بالسَّلام مقترناً بالأمر بإعداد أنواع القوَّة، وهنا يذكر الله ﷻ بأنَّ دين الرِّحمة للعالمين يعني معاقبة الذين يعتدون على الأبرياء بالعقوبة المغلظة الحازمة دون تردُّد، إن كان في ذلك ما يشكِّل ردعاً للذُّئاب البشريَّة المتربِّصة، وتظهر هذه السُّنَّة من خلال قصَّة الأسرى؛ فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٩﴾ [الأفال: ٦٧ - ٦٩]، وقد بيَّن ابن عبَّاسٍ ﷺ كيف بنى الله ﷻ العقليَّة المتَّزنة، الجامعة بين إظهار الرِّحمة والميل والسَّلام، وبين إظهار القوَّة الرَّادعة في سبب نزول هذه الآيات، وقد سبق ذكره^(٢).

(١) النبوءة والسَّياسة لجريس هالسيل (ص: ٦٠، ٦٧).

(٢) في الخاصَّة السَّابعة من خصائص السنن.

وإظهار القوة في مواطنها له أهميته الكبيرة في التأثير على قطاع كبير من الناس الذين لا يتأثرون إلا بها، وخذ هذا المثال الذي تذكره (جريس هالسيل): فقد قرّر (بيغن) أن يقدم ميدالية تحمل اسم: "(فلاديمير زيف جابوتنسكي) الأيديولوجي الصهيوني اليميني" أستاذ (بيغن) في حفل عشاء كبير عام ١٩٨٠م، ولـ (جابوتنسكي) هذه المكانة؛ لأنه يقول: إن القوة يجب أن تكون هي هدفك، و(فولويل) يفكر مثل (جابوتنسكي)^(١).

السُّنَّةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ: الانتصار قد يتحقق أحياناً بالليوننة لا بالخشونة: ولذا تميز التعامل الإسلامي مع الأسرى بالأصل وفق مبدأ الحق والانتقام:

إظهار القوة والحكم العسكري المغلظ على بعض الأسرى ليس القانون الدائم، بل هو قانون عارض لمصلحة الردع، أما القانون الدائم مع الأسرى فيعبر عنه القرآن المكّي الذي قال الله -جلّ ذكره- فيه: ﴿وَيُطْعَمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

نفسية الحق والانتقام لا تعبر عن الإسلام، بل رأينا أن الذي عبر عنها الهمجية الوثنية القديمة عند معظم الأمم، ثم محاكم التفتيش الكاثوليكية، وسجن أبي غريب، وجوانتانمو، والعروض المروعة للمليشيات المجرمة التي تعيث في الأرض فساداً هذه الأيام.

فالتعامل الإسلامي الراقي مع الأسرى يتم بمخاطبتهم بما يردّ لهم فطرتهم الإنسانية السوية، ويبعدهم عن همجية الوحشية المعتدية، فانظر لهذا الأمر الإلهي المدهش الذي

(١) النبوة والسياسة لجريس هالسيل (ص ٦٠، ٦٧)، ومما دعا إليه هذا الجابو: ألا يخضع اليهود للقوانين الوضعية، وقال: إن كلّ من يؤمن بالعدالة هو غبي، وهو منشئ ميليشيا الهاغاناه التي انبثق منها الجيش الإسرائيلي، وفي المقابل فإن (فولويل) يدعو إلى الإنجيلية العسكرية.

يوازن عقلية المسلم مع الآيات السابقة له مباشرة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرِى إِن يَعلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٧٠].

في الرؤية القرآنية ترى أن منطق إظهار القوة الرادعة والقدرة على الاستقلال في الأمور المالية، لا يعني البطش بالأسرى، ولا اليأس من عودتهم إلى فطرتهم، ولا المعاملة غير اللائقة بالكرامة الإنسانية، وعند التَّخَوُّف من خيانتهم وغدرهم، يتذكَّر العاملون في مجال إبعاد الفتنة عن بني الإنسان نصرة الله ﷻ وتوفيقه على أهل الغدر، مع الأخذ باحتياطات الحذر الأمني.

وهذا الذي أدَّت إليه الآية التالية: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٧١].

السُّنَّةُ الْعَشْرُونَ: سُنَّةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَأَثَرُهَا فِي تَحْقِيقِ التَّقَدُّمِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ، وَالنَّصْرِ

في الواقع الحياتي الدنيوي:

العامل الغيبيُّ له الأثر البالغ في إحداث النَّصْرِ، وهو من أعظم الأسس في فَهْمِ السُّنَنِ؛ حيث ينشأ عن الإيمان بالغيب زوال الرِّيب، وجميع العبادات القلبية:

فإن كان المرء مسلماً، فهو يقول أمام التَّحَدِّيَّاتِ، والمصائبِ، والمؤامراتِ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِمَّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَنَا فَنَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وإن كان غير مسلم -كأن يكون يهودياً مؤمناً بالمشيح، أو المسيا (المسيح) المنتظر-، فإنه يعمل لتلك الغاية، ويخاطر من أجلها حال الاعتقاد الحقيقي القوي^(١). وإن كان ملحداً، فإنه يُقَدِّم في جراءة معتمداً على حظِّه فيما يُقَدِّم عليه. والفرق أن المسلم لا يمكن أن يشعر بالخسارة في كلا الحالين: حال الفلاح، أو حال الخسارة الظَّاهِرة، فهو فائز على الحالين.

والإيمان بالغيب يولِّد العزم غير المتردِّد، ولا الخائف، ولا الوجَل؛ توَكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت.

(١) هو أحد مبادئ الإيمان اليهودي حسب "قائمة المبادئ الثلاثة عشر" التي ألفها موسى بن ميمون، في سفر الشنية (٣٠/٣-٥) «يردُّ الرَّبُّ إِلَهُكَ سَبِيكَ ويرحمك، ويعود فيجمعك من جميع الشُّعُوبِ الذين بدَّدك إليهم الرَّبُّ إِلَهُكَ، إن يكن قد بدَّدك إلى أقصاء السَّمَوَاتِ فمن هناك يجمعك الرَّبُّ إِلَهُكَ، ومن هناك يأخذك، ويأتي بك الرَّبُّ إِلَهُكَ إلى الأرض التي امتلكها آبَاؤُكَ، فتمتلكها ويحسن إليك، ويكثرك أكثر من آبائك»، وفي سفر صموئيل الثاني (٢/٨) يقول الكتاب: «سوف يقتلع جميع أبناء شيث، هذا هو المسيا الملك المعلن عنه هنا، ملكه سوف يسود من البحر إلى البحر».



وَيَطُوفُكَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنُّورِ الَّذِي يَعْلَمُكَ التَّلَذُّدُ عِنْدَ إِيمَانِكَ بِالْغَيْبِ، وَذَلِكَ فِي دَعَائِهِ حِينَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ بَعْلَمَكَ الْغَيْبِ، وَقَدَرْتَكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيَيْتَنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زِينًا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هِدَاةً مُهْدِينَ»^(١).

وَكَانَ ﷺ يَسْأَلُ رَبَّهُ ﷻ الثَّبَاتَ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحَسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرٍ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ»^(٢).

(١) أحمد (١٨٣٥١)، سنن النسائي الكبرى (١٣٠٥)، وصحَّحَه الأرنؤوط، والألباني.

(٢) النسائي (١٣٠٤)، واللفظ له. والترمذي (٣٤٠٧)، أحمد (١٧١٥٥)، وقال محقق (جامع الأصول) (٤/ ٢٥٩): ورواه

الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٤١٦).

أهم مظاهر الإيمان بالغيب في سورة الأنفال

مظهر [1]	تقوى الله عز وجل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: 1].
مظهر [2]	الطاعة المطلقة لله عز وجل والرسول دون تردد ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1].
مظهر [3]	الإيمان الذي يحدث الإخبات، والوجل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].
مظهر [4]	التوكل مع إعداد الميسور، وعدم المبالاة بالمواجهة عند نفاد الحلول الأخرى.
مظهر [5]	الاستجابة الفورية من المؤمنين للمواجهة التي لم يكونوا مستعدين لها.
مظهر [6]	الاستغاثة المستمرة للإمداد الإلهي، والشعور بتحقيقه.
مظهر [7]	الجرأة في الاشتباك مع اختلال معايير توازن الرعب من الناحية المادية.
مظهر [8]	الجرأة في الاشتباك بعد بذل الاستعداد بالمتاح.
مظهر [9]	التطبيق الدقيق للنظم القرآنية في إدارة العلاقات الدولية سلمًا وحرًا مع الإيمان.
مظهر [10]	اتباع النظام الإسلامي فيما ظهر وغاب في المواضيع المالية، وريط ذلك بالإيمان بالغيب.
مظهر [11]	الإيمان بالقدر الإلهي عند تحتم المواجهة، وعدم الانسحاب إلا لأمر متيقن، أو شبهه.
مظهر [12]	تذكر التحريك الشيطاني الخفي لحشود الجيوش الكافرة.
مظهر [13]	استشعار البعد الأخروي، واستحضار الغيب في مصير القوى الكافرة.
مظهر [14]	الحذر من الوقوع في سنن التغيير السلبي مما وقع للأمم السالفة.
مظهر [15]	الشعور الإيماني بالإحاطة الإلهية التي لا يعجزها شيء.

يَعْتَذِرُ السَّالِمُ مُقْبِلُ الْجَنَّةِ

أهم مظاهر الإيمان بالغيب في سورة الأنفال:

ومن أهم مظاهر الإيمان التي ذكرها الله ﷻ في سورة الأنفال ما يأتي:

المظهر الأول: تقوى الله ﷻ:

إِنَّ التَّقْوَى تعني اتخاذ الوقاية التي تقي من الحساب بين يدي الله ﷻ، والإعداد لجميل لقائه، وهي تحمّل معنى التخويف، والإنذار، وانظر كيف بدأ بالأمر بها ليحذّر من حركة النفوس الزائغة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ١]، ثم بيّن مزاياها الثلاث مبتدئاً بالمزية الدنيوية العاجلة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

المظهر الثاني: الطاعة المطلقة لله ﷻ والرسول ﷺ دون تردد:

ألا ترى كم تردد ذلك في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٤٦].

المظهر الثالث: الإيمان الذي يُحدث الإخبات، والوجل:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقد اشتملت هذه الآية ثلاثة من أعمال الباطن السنية: الوجل وزيادة الإيمان والتوكل، وأردفت في الآية التالية بعملين من أعمال الظاهر فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣، ٤]، ولا



يخفأك ما في الإكثار من أعمال الباطن وتقديمها على أعمال الظاهر مع تقليل هذه الثانية من تقرير لأهميّة تربية البواطن وإعدادها للثبات في المواطن.

المظهر الرابع: التَّوَكُّل الذي يصحب أمرين: إعداد الميسور، وعدم المبالاة بالمواجهة

عند نفاذ الحلول الأخرى:

فإنَّ الله ﷻ جعل لقاء العدو -مع كثرته- قائمًا على الإيمان بالغيب، وبارك في العدة والاستعداد على يسرهما وقتلتهما أمام إمكانات العدو.

ذكر الله ﷻ عددًا من سُنَن (قوانين) الفوز والظفر وتحقيق الإنجازات والوصول إلى النَّصر، ممَّا ينبغي أن يُدرس بصورة أكثر وعيًا ضمن الاستراتيجيات العسكرية في الدُّول الإسلاميّة.

إلا أنَّ هذه السُّنَن والعوامل ترجع إلى السُّنَّة الكلّيّة (الإيمان بالغيب) في أن الله ﷻ كما قال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

المظهر الخامس: الاستجابة الفوريّة من المؤمنين للمواجهة التي لم يكونوا مستعدين

لها بما أنها قد تحتمت، معتمدين على قوّة الله ﷻ بعد الاستعداد بالمتيسّر:

فقد قال المقداد بن عمرو رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ: إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن

اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون^(١)، وَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَجَلٌ». فَقَالَ: قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَاْمْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ ﷻ بِهِ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ، لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوْنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبِيرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ ﷻ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ ﷻ. فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٢).

فهذا الوعد الغيبي ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] جعل العباس رضي الله عنه يتدخل تصديقاً له رغم أنه محسوب على الكفار، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، قيل له: عليك العير، ليس دونها شيء، قال: فناداه العباس رضي الله عنه وهو في وثاقه: لا يصلح، وقال: لَأَنَّ اللَّهَ ﷻ وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك، قال: «صدقت»^(٣).

(١) أحمد (١٨٨٢٧)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه ابن كثير من طريق ابن إسحاق بسند صحيح. السيرة النبوية لابن كثير (٣٩١ / ٢ - ٣٩٢)، وسبق أن الذي ردَّ بمثل هذا الردَّ سعد بن عباد، فلعل كلا الرجلين أجاب إجابة مقاربة للآخر رضي الله عنه.

(٣) الترمذي (٢٦٩ / ٥)، وقال: حسن صحيح، وجوَّد ابن كثير إسناده. تفسير ابن كثير (١٦ / ٤).

المظهر السادس: الاستغاثة بالله تستمطر الإمداد الإلهي، وينبغي أن يشعر المستغيث بتحقيقه الإجابة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ...﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]:

فلم يقل ربنا -جل مجده- إذ تدعون بل إذ تستغيثون، والاستغاثة تدل على شدة الدعاء والنداء، والإلحاح عليهما ليتحقق الغوث، وجاء الفعل المضارع ليصور ذلك كأنه يقع أمامنا.

المظهر السابع: الجرأة في الاشتباك مع اختلال معايير توازن الرُعب من الناحية الماديّة:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

وهنا يتضافر ويتضابر البعد الغيبي مع البعد المادي؛ ليكونا معاً، غير بعيدٍ أحدهما من الآخر، فالإعداد مطلوب إلا أنه لا يكلف الله ﷻ نفساً إلا وسعها؛ فلما حدث الرمي بالمتاح نزلت البركة المسددة للرامي، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ [الأنفال: ١٧]، فإن لم تنزل بركة الإمداد للفتح القريب جاءت الحسنى الثانية.

المظهر الثامن: الجرأة في الاشتباك بعد بذل الاستعداد بالمتاح:

وذلك يُحدث البركة، وينزل النصر الذي يوهن الكيد الكبار من الجهات المعادية: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ ذَلِكَم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٧، ١٨].

المظهر التاسع: التّطبيق الدّقيق للنّظم القرآنيّة في إدارة العلاقات الدّوليّة سلماً وحرّاً

مع الإيمان:

﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠]، فَإِنْ أَنْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ إِنْ كَانُوا ضَمِنَ دَائِرَةَ جَزِيرَةِ الْإِسْلَامِ، أَوْ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ أَيَّامًا كَانُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَطْمَئِنُّوا، فَمَهْمَا بَيَّتُوا مِنْ غَدَرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ، فاعلموا أَنَّ اللَّهَ ﷻ مولاكم، نعم المولى ونعم النصير.

وتعال إلى تطبيق عظيم للنظم القرآني في إدارة الصحابة ﷺ، فقد روى زياد بن جبير بن حيّة قال: أخبرني أبي: أَنَّ عمر بن الخطّاب -رضوان الله عليه- قال للهُرْمُزَان: أما إذ قُتِنِي بِنَفْسِكَ، فانصح لي، وذلك أنه قال له: تكلّم لا بأس، فأمنّه، فقال الهُرْمُزَان: نعم، إن فارس اليوم رأس وجناحان، قال: فأين الرأس؟ قال: بنهأوند، مع بَنَذَاقَانَ، فإن معه أساورة كسرى وأهل أصفهان، قال: فأين الجناحان؟ فذكر الهُرْمُزَان مكاناً نسيته، فقال الهُرْمُزَان: فاقطع الجناحين، توهن الرأس، فقال له عمر -رضوان الله عليه-: كذبت يا عدو الله، بل أعمد إلى الرأس، فيقطعه الله ﷻ، وإذا قطعه الله ﷻ عني، انفصّ عني الجناحان، فأراد عمر ﷺ أن يسير إليه بنفسه، فقالوا: نذكرك الله ﷻ -يا أمير المؤمنين- أن تسير بنفسك إلى العجم، فإن أصبت بها لم يكن للمسلمين نظام، ولكن ابعث الجنود، قال: فبعث أهل المدينة، وبعث فيهم عبد الله بن عمر بن الخطّاب ﷺ، وبعث المهاجرين والأنصار ﷺ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: أن سرّ بأهل البصرة، وكتب إلى حذيفة بن اليمان ﷺ: أن سرّ بأهل الكوفة حتى تجتمعوا جميعاً بنهأوند، فإذا اجتمعتم، فأمركم النعمان بن مقرّن المزني ﷺ.

المغيرة بن شعبه ﷺ الشّامخ الأشمّ رسول النّعمان ﷺ إلى علوج الفرس:

قال: فلما اجتمعوا بنهائهم أرسل إليهم بَنَدَاقَانِ العليج: أن أرسلوا إلينا يا معشر العرب رجلاً منكم نكلّمه، فاختار الناس المغيرة بن شعبة، قال أبي [جبير بن حيّة]: فكأنني أنظر إليه: رجل طويل، أشعر، أعور، فأتاه، فلما رجع إلينا سأله، فقال لنا: إني وجدت العليج قد استشار أصحابه: في أي شيء تأذنون لهذا العربيّ: أبشارتنا وبهجتنا ومُلكنا، أو نتكشف له، فنزّهه عمّا في أيدينا؟ فقالوا: بل نأذن له بأفضل ما يكون من الشّارة والعُدّة، فلما أتيتهم رأيت تلك الحِرَابَ، والدَّرَقَ يَلْتَمِعُ معه البصر، ورأيتهم قياماً على رأسه، وإذا هو على سريرٍ من ذهب، وعلى رأسه التّاج، فمضيت كما أنا، ونكستُ رأسي لأقعد معه على السّرير. قال: فدُفِعْتُ ونُهِرْتُ، فقلت: إنّ الرُّسل لا يُفعل بهم هذا. فقالوا لي: إنّما أنت كلبٌ أتقعد مع الملك؟ فقلت: لأنّا أشرف في قومي من هذا فيكم، قال: فانتهرني، وقال: اجلس، فجلست، فترجم لي قوله، فقال: يا معشر العرب، إنكم كنتم أطول الناس جوعاً، وأعظم الناس شقاء، وأقذر الناس قذراً، وأبعد الناس داراً، وأبعد من كلّ خير، وما كان منعني أن أمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنّشاب [السّهام] إلا تنجّسوا بجيفكم؛ لأنكم أرجاس، فإن تذهبوا نخلي عنكم، وإن تابوا نُركم مصارعكم، قال المغيرة ﷺ: فحمدت الله ﷻ، وأثّنت عليه، وقلت: والله ما أخطأت من صفتنا ونعتنا شيئاً. إن كنا لأبعد الناس داراً، وأشدّ الناس جوعاً، وأعظم الناس شقاء، وأبعد الناس من كلّ خير، حتى بعث الله ﷻ إلينا رسولاً، فوعدنا النّصر في الدّنيا، والجنة في الآخرة، فلم نزل نتعرف من ربّنا ﷻ مذ جاءنا رسوله ﷺ الفلج والنّصر، حتى أتيناكم، وإنا والله نرى لكم ملكاً وعيشاً، لا نرجع إلى ذلك الشّقاء أبداً، حتى نغلبكم على ما في أيديكم، أو نقتل في أرضكم، فقال: أما الأعور فقد صدقكم الذي في نفسه، فقمتم من عنده، وقد والله أَرعبت العليج جهدي، فأرسل إلينا العليج: إمّا أن تعبّروا إلينا بنهائهم، وإمّا أن تعبّر إليكم، فقال النّعمان ﷺ: اعبروا، فعبّرنا، قال أبي [جبير بن حيّة]: فلم

أَر كَالْيَوْمِ قُطٌّ، إِنْ الْعُلُوجُ يَجِئُونَ كَأَنَّهُمْ جِبَالُ الْحَدِيدِ، وَقَدْ تَوَاقَفُوا أَنْ لَا يَفْرُوا مِنَ الْعَرَبِ، وَقَدْ قَرَنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى كَانَ سَبْعَةٌ فِي قِرَانٍ، وَأَلْقُوا حَسَكَ الْحَدِيدِ خَلْفَهُمْ، وَقَالُوا: مِنْ فَرٍّ مَنَّا عَقَرَهُ حَسَكَ الْحَدِيدِ، فَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه حِينَ رَأَى كَثَرَتَهُمْ: لَمْ أَرْ كَالْيَوْمِ فَشَلًّا، إِنَّ عَدُوَّنَا يُتْرَكُونَ أَنْ يَتَمَّامُوا، فَلَا يُعْجَلُوا، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْأَمْرَ إِلَيَّ لَقَدْ أَعَجَلْتُهُمْ بِهِ.

النُّعْمَانُ رضي الله عنه يَعِدُّ الْخَطَّةَ وَيَسْتَعِدُّ لِلْمَعْرَكَةِ:

قَالَ: وَكَانَ النُّعْمَانُ رضي الله عنه رَجُلًا بَكَّاءً، فَقَالَ: قَدْ كَانَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- يُشْهِدُكَ أَمْثَالَهَا، فَلَا يُخْزِيكَ، وَلَا يُعْزِي مَوْفِقَكَ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي أَنْ أَتَاجَزَهُمْ، إِلَّا لِشَيْءٍ شَهِدْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا عَزَا فَلَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ، لَمْ يُعْجَلْ حَتَّى تَحْضُرَ الصَّلَوَاتُ، وَتَهَبَّ الْأَرْوَاحُ، وَيَطِيبَ الْقِتَالُ، ثُمَّ قَالَ النُّعْمَانُ رضي الله عنه: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَقَرَّ عَيْنِي الْيَوْمَ بِفَتْحٍ يَكُونُ فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ، وَأَهْلُهُ وَذُلُّ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ اخْتِمَ لِي عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ بِالشَّهَادَةِ، ثُمَّ قَالَ: أَمْنُوا بِرَحْمَتِكُمْ اللَّهُ، فَأَمَّنَّا، وَبَكَى وَبَكَيْنَا.

ثُمَّ قَالَ النُّعْمَانُ رضي الله عنه: إِنِّي هَازِلُ لَوَائِي، فَتَيَسَّرُوا لِلسَّلَاحِ، ثُمَّ هَازَهُ الثَّانِيَةَ، فَكُونُوا مُتَيَسِّرِينَ لِقِتَالِ عَدُوِّكُمْ بِأَرْائِهِمْ، فَإِذَا هَزَزْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَلْيَحْمِلْ كُلُّ قَوْمٍ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَهَبَّتِ الْأَرْوَاحُ، كَبَّرَ وَكَبَّرْنَا، وَقَالَ: رِيحُ الْفَتْحِ وَاللَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ ﷻ لِي، وَأَنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا، فَهَزَّ اللِّوَاءَ، فَتَيَسَّرُوا، ثُمَّ هَزَّهُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ هَزَّهُ الثَّلَاثَةَ، فَحَمَلْنَا جَمِيعًا، كُلُّ قَوْمٍ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ، وَقَالَ النُّعْمَانُ رضي الله عنه: إِنْ أَنَا أُصِيبْتُ، فَعَلَى النَّاسِ حُدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه، فَإِنْ أُصِيبَ حُدَيْفَةُ رضي الله عنه، فَقُلَانٌ، فَإِنْ أُصِيبَ قُلَانٌ فَقُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَةً، أَخْرَهُمُ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه، قَالَ أَبِي [جَبْرِ بْنِ حِيَةَ]: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا، يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يَظْفَرَ، وَتَبْتُوَا لَنَا، فَلَمْ نَسْمَعْ إِلَّا وَقَعَ الْحَدِيدِ عَلَى الْحَدِيدِ؛ حَتَّى أُصِيبَ فِي الْمُسْلِمِينَ مُصَابَةٌ عَظِيمَةٌ، فَلَمَّا رَأَوْا صَبْرَنَا وَرَأَوْا لَا نُرِيدُ أَنْ



نَرْجِعْ أَنهَزْمُوا، فَجَعَلَ يَقَعُ الرَّجُلُ، فَيَقَعُ عَلَيْهِ سَبْعَةٌ فِي قِرَانٍ، فَيَقْتُلُونَ جَمِيعًا، وَجَعَلَ يَعْقِرُهُمْ حَسَكُ الْحَدِيدِ خَلْفَهُمْ.

أَقْرَأَ اللَّهُ ﷻ عَيْنَ النُّعْمَانِ ﷻ بِالنَّصْرِ وَخَتَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ:

فَقَالَ النُّعْمَانُ ﷻ: قَدِّمُوا اللَّوَاءَ فَجَعَلْنَا، نَقْدُمُ اللَّوَاءَ، وَنَقْتُلُهُمْ، وَنَضْرِبُهُمْ، فَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ ﷻ، أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَرَأَى الْفَتْحَ، جَاءَتْهُ نُسَابَةٌ، فَأَصَابَتْ حَاصِرَتَهُ، فَقَتَلَتْهُ، فَجَاءَ أَخُوهُ مَعْقِلُ بْنُ مُقَرِّنٍ ﷻ فَسَجَى عَلَيْهِ ثَوْبًا، وَأَخَذَ اللَّوَاءَ، فَتَقَدَّمَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: تَقَدَّمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ ﷻ، فَجَعَلْنَا نَتَقَدَّمُ، فَهَزِمْنَاهُمْ، وَنَقْتُلُهُمْ، فَلَمَّا فَرَعْنَا وَاجْتَمَعَ النَّاسُ، قَالُوا: أَيْنَ الْأَمِيرُ؟ فَقَالَ مَعْقِلُ ﷻ: هَذَا أَمِيرُكُمْ قَدْ أَقْرَأَ اللَّهُ ﷻ عَيْنَهُ بِالْفَتْحِ، وَخَتَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَبَايَعَ النَّاسُ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷻ.

بشائر النصر تصل إلى المدينة، وعمر ﷻ يبكي لفقد الأحبة:

قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ- بِالْمَدِينَةِ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ، وَيَتَنَطَّرُ مِثْلَ صِيْحَةِ الْحُبْلَى، فَكَتَبَ حُدَيْفَةُ ﷻ، إِلَى عُمَرَ ﷻ بِالْفَتْحِ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِفَتْحٍ أَعَزَّ اللَّهُ ﷻ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلُهُ، وَأَذَلَّ فِيهِ الشُّرْكَ وَأَهْلُهُ، وَقَالَ: النُّعْمَانُ ﷻ بَعَثَكَ؟ قَالَ: احْتَسِبِ النُّعْمَانَ ﷻ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَبَكَى عُمَرُ ﷻ وَاسْتَرْجَعَ، وَقَالَ: وَمَنْ وَيَحْكُ؟ قَالَ: فُلَانٌ، وَفُلَانٌ، وَفُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ نَاسًا، ثُمَّ قَالَ: وَآخَرِينَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَعْرِفُهُمْ، فَقَالَ: عُمَرُ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ-، وَهُوَ يَبْكِي: لَا يَضُرُّهُمْ أَنْ لَا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ، لَكِنَّ اللَّهَ ﷻ يَعْرِفُهُمْ^(١).

هكذا ترى تطبيقًا عظيمًا للنظم القرآنية في تصرفات الصحابة ﷻ.

(١) ابن حبان (٤٧٥٦)، وقَوَّى الأرناؤوط إسناده، وذكره الألباني في الصَّحِيْحَةِ (٢٨٢٦).

المظهر العاشر: اتباع النظام الإسلامي فيما ظهر وغاب في المواضيع المالية، وربط

ذلك بالإيمان بالغيب:

ويترتب على ذلك ترقبُ النصر، ويصبرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَتَقَىٰ الْجُمُعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

والخطاب هنا لمن بذل نفسه في سبيل الدفاع عن الحق، وإنقاذ الضعفاء، وإقامة العدل في العالم؛ تذكيراً لهم بعدم العبث المالي، مهما قل؛ فكيف غيرهم؟ حتى شدد النبي ﷺ في ذلك، فعن أم حبيبة بنت العرباض، عن أبيها رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يأخذ الوبرة [الشعرة] من قصّة من فيء الله ﷻ، فيقول: «ما لي من هذا إلا مثل ما لأحدكم إلا الخمس وهو مردودٌ فيكم، فأدّوا الخيط والمخييط، فما فوقهما، وإياكم والغلول، فإنه عارٌ وشنازٌ على صاحبه يوم القيامة»^(١).

(١) أحمد (١٧١٥٤)، وقال الأرناؤوط: «حديث حسن لغيره، وإسناده محتمل للتحسين»، وحسنه الألباني في الصّحيحة (٦٦٩).



المظهر الحادي عشر: الإيمان بالقدر الإلهي المؤسس على علم الله ﷻ الشامل وحكمته الكاملة عند تحتم المواجهة، واستمداد النصر من السميع العليم، وعدم الانسحاب إلا لأمر متيقن، أو شبهه :

وَيُصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾...﴾ [الأنفال: ٤٢-٤٤].

المظهر الثاني عشر: تذكر التحريك الشيطاني الخفي لحشود الجيوش الكافرة:

فإن ذلك يظهر لك حقيقة المعركة، ويصِّرنا بذلك قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]، وهذا التحريك لا يعدم وسيلة للتنسيق بين جموع الأحزاب المتحدة بما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.

المظهر الثالث عشر: استشعار البُعد الأخروي، واستحضار الغيب في مصير القوى الكافرة:

وَيُصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى شَأْنَهُ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْذِبُ رُءُوسَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

المظهر الرابع عشر: الحذر من الوقوع في سُنن التَّغْيِيرِ السَّلْبِيِّ مِمَّا وَقَعَ لِلأُمَّمِ السَّالِفَةِ

التي لم تقابل النِّعَمَ الدِّينِيَّةَ والدُّنْيَوِيَّةَ بالشُّكْرِ:

وَيَبْصُرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٌ ٥٤﴾ [الأَنْفَالُ: ٥٢ - ٥٤].

المظهر الخامس عشر: الشُّعُورُ الإِيمَانِيُّ بِالْإِحَاطَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَا يَعْجِزُهَا التَّفَوُّقُ النَّوعِيُّ

فِي الْأَسْلِحَةِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ الْكَافِرَةِ، وَيَبْصُرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأَنْفَالُ: ٥٩].

كانت هذه ومضات نورانية يجب أن يسري وراءها من كَتَبَ اللَّهُ ﷻ في قلوبهم الإيمان عسى أن يردعوا المفسدين في الأرض، ولعلَّهم يعمدون لأرضٍ ملئت جورًا وظلمًا وعدوانًا فيعيدون لها بسمتها ونورها، ويعملون على أن تشرق الأرض بنور ربِّها.



اللَّهُمَّ ارحم أمة عبدك محمد ﷺ، وارزقها قادة ربانيين، يقودونها بكتابك وسنة نبيك ﷺ،
وفرِّج عن المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها.
ربَّنَا ارزقنا فهمَ كتابك، والتلذُّذ بالعمل بكتابك..
ربَّنَا اجعلنا أهلاً لولايتك، ونصرتك، وتوفيقك، وتأيدك، ومحبتك، ورضاك، فإنه لا يعين
على الحقِّ غيرك، ولا يؤتیه إلا أنت، ولا حول ولا وقوة إلا بالله العلي العظيم.
ربَّنَا ... تزداد آلام الضُّعفاء في هذه الحياة أواراً.. تشتعل الحروب المجرمة فيها سعاراً..
الأرض -ربَّنَا- تنُّ من سفك الدِّماء.. أثقلها الجور والعدوان والإفساد فيها حتى مُلئت
صراخاً وجوَّاراً.. ربَّنَا: نور الحقِّ يزداد خفوتاً.. لا تجعله -ربَّنَا- يتوارى.. اللَّهُمَّ ربَّنَا أسعد
أصحاب الدُّموع اليائسة.. اللَّهُمَّ ربَّنَا أقرِّ الأعين المتطلِّعة البائسة، وأظهر الحقَّ على الضَّلال
كلِّه ولو مكر الماكرون.
اللَّهُمَّ ربَّنَا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، وعين لا تدمع،
ودعوة لا تُرفع..
ربَّنَا نسألك إيماناً لا يرتدُّ، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبيِّنا محمدٍ ﷺ في أعلى جنات الخلد، يا
أرحم الرَّاحمين، وصلى الله تعالى وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه أجمعين.
والحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com

فهرس المصادر والمراجع

- (١) الإبهاج في شرح المنهاج، أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- (٢) الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- (٣) آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، مُحَمَّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (ت ١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م.
- (٤) الأحاديث المختارة (المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحهما)، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ)، تحقيق: أ.د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.
- (٦) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الأمدي (ت ٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق.
- (٧) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- (٨) الأعلام، خير الدين بن محمود، الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ١ - أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- (٩) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط ٢، ١٩٨٤هـ.
- (١٠) ألوان طيف، عمر بهاء الدين الأميري.
- (١١) إنجيل لوقا، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
- (١٢) إنجيل متى، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
- (١٣) إنجيل مرقس، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.

- (٢٤) تاريخ الإسلام وَوَفَيَاتِ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَعْلَامِ: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَازِ الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- (٢٥) تاريخ ابن الوردي، أبو حفص عمر بن مظفر، زين الدين ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٩م.
- (٢٦) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطَّبْرِي (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- (٢٧) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف بطرس كرم (ت ١٩٥٩م)، مكتبة الدراسات الفلسفية، ط ٥.
- (٢٨) تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- (٢٩) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، أبو علي مسكويه الرازي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: الدكتور أبو القاسم إمامي، دار سروش للطباعة والنشر، طهران، ط ١، ٢، ٢٠٠٠م - ٢٠٠٢م.
- (٣٠) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكتاني الحموي (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الثقافة، الدوحة، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- (٣١) التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
- (٣٢) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- (٣٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- (٣٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرَّازِي (ت ٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

- (٣٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ. وكذا طبعة دار طيبة.
- (٣٦) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٩هـ / ١٩٨٩م.
- (٣٧) التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- (٣٨) التوقيف على مهمات التعاريف، لعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي المناوي (ت ١٠٣١هـ)، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- (٣٩) جامع الأصول في أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري، ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنبوط - التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، ط ١.
- (٤٠) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، وكذا طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
- (٤١) الجامع الكبير، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَورَةَ الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- (٤٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ١٣١١هـ.
- (٤٣) جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي الميورقي الحميدي (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

- (٤٤) الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قبادة، الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- (٤٥) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد ابن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: د عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر - القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- (٤٦) الحركة الإسلامية في السودان: مدخل إلى فكرها الاستراتيجي والتنظيمي، محمد بن المختار الشنقيطي، دار الحكمة، لندن، ط ١، ٢٠٠٢م.
- (٤٧) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، شمس الدين محمد بن محمد، ابن الموصلي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.
- (٤٨) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- (٤٩) الحور العين، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨م.
- (٥٠) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د. عماد الدين خليل، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والؤون الدينية، قطر، ط ١، رمضان ١٤٠٣هـ.
- (٥١) حياة السلف بين القول والعمل، أحمد بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤٣٣هـ.
- (٥٢) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ).
- (٥٣) ديوان أبي تمام الطائي، فسر ألفاظه: محيي الدين الخياط، طبع مرخصاً من نظارة المعارف العمومية الجلييلة.
- (٥٤) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت ٤١٦هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- (٥٥) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- (٥٦) ديوان السموأل، صنعة أبي عبد الله نفطويه، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- (٥٧) ديوان العجاج، رواية الأصمعي، شرح وتحقيق: د عزة حسن، دار الشروق العربي، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- (٥٨) ديوان عمر أبو ريشة، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.
- (٥٩) ديوان عنتر بن شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي.
- (٦٠) ديوان لقيط بن يعمر الأيادي: رواية أبي المنذر هشام بن محمد السائب الكلي، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، وزارة الإعلام، بغداد، مديرية الثقافة العامة.
- (٦١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، مراجعة: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- (٦٢) ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- (٦٣) ديوان محمد إقبال، إعداد سعيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، بيروت/ دمشق.
- (٦٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ص ١، ١٩٨١.
- (٦٥) رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.
- (٦٦) الرسالة العسكرية للمسجد، محمود شيث خطاب، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، عدد (٢).
- (٦٧) الزهد للمعافي بن عمران الموصلي، أبو مسعود المعافي بن عمران بن نفيل بن جابر الأزدي الموصلي (ت ١٨٥ هـ)، تحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- (٦٨) الزهد والرقائق لابن المبارك، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي، التركي ثم المروزي (ت ١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٦٩) الزهرة، أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني (ت ٢٩٧هـ)، مكتبة المنار-الزرقاء/ الأردن، ط ٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- (٧٠) سراج الملوك، أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (ت ٥٢٠هـ)، من أوائل المطبوعات العربية - مصر، ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.
- (٧١) سفر إشعياء، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
- (٧٢) سفر صموئيل الثاني، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
- (٧٣) سفر يشوع، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
- (٧٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، نشر (ج ١ - ٤) ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م، ونشر (ج ٦) ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م، ونشر (ج ٧) ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م.
- (٧٥) سُنَّة (نقص الأرض من أطرافها) وأثرها في ازدهار الدول وانهارها، أ.د/ عبد السلام المجيدي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، المجلد (٣٨)، العدد (١٣٣)، ذو القعدة ١٤٤٤ هـ - يونيو ٢٠٢٣م.
- (٧٦) سُنن أبي داود، أبو داود سُلَيْمَان بن الْأَشْعَثِ السَّجِسْتَانِي (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م.
- (٧٧) سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (ت ٢٢٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط ١، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م.
- (٧٨) السنن الصغرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.
- (٧٩) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد، ط ١، ١٣٤٤هـ.

- ۳۳۳

- (٩١) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر / دمشق، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٩٢) الشوقيات، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
- (٩٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي.
- (٩٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، أبو حاتم محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- (٩٥) صحيح سنن أبي داود، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- (٩٦) صحيح سنن الترمذي، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- (٩٧) صحيح سنن النسائي، صحيح أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- (٩٨) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي (ت ١٤٢٢هـ)، دار الآثار، صنعاء، ط ٤، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- (٩٩) الصحيح المسند من أسباب النزول، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي (ت ١٤٢٢هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٤، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- (١٠٠) صفوة الزيد، لأحمد بن الحسين بن علي بن رسلان الرملي (ت ٨٤٤هـ)، دار المنهاج، جدة، السعودية، تحقيق: أحمد جاسم محمد محمد، ط ٣، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- (١٠١) عالم ما بعد أمريكا، فريد زكرياء، ترجمة: بسام شيجا، الدار العربية للعلوم، ط ١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- (١٠٢) العين، عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.



- ١٠٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد الغيتابي الحنفي، بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٠٤) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، ١، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.
- ١٠٥) الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط ٢.
- ١٠٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ١٠٧) الفتن، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (ت ٢٢٨هـ)، تخريج وتحقيق: عبد الله السيسي، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، ط ١.
- ١٠٨) الفطرية بعثة التجديد المقبلة (من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام)، فريد الأنصاري، دار السلام، القاهرة، ط ٢، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣ م.
- ١٠٩) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- ١١٠) فضائل الصَّحَابَةِ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
- ١١١) قدر الدعوة، رفاعي سرور، منبر التوحيد والجهاد، ط ٢.
- ١١٢) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري، ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م.
- ١١٣) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبه، عبد الله بن محمد العبسي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ.

- (١١٤) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
- (١١٥) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م.
- (١١٦) كواشف زيوف، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م.
- (١١٧) لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.
- (١١٨) لن تلحد، أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، الكتاب العربي السعودي، ط ١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢ م.
- (١١٩) المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي (ت ٣٣٣هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التريية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م.
- (١٢٠) مَجْمَعُ الرِّوَايَةِ وَمَنْبَعُ الْفَوَائِدِ، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دَارُ الْمَأْمُونِ لِلتَّوَارِثِ.
- (١٢١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (ت ١٤٢٤هـ)، دار النفائس - بيروت، ط ٧، ١٤٠٧هـ.
- (١٢٢) مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م.
- (١٢٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- (١٢٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

- (١٢٥) مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مُستدرك أبي عبد الله الحاكم، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت ٨٠٤ هـ)، تحقيق: عبد الله بن حمد اللحيدان، سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١١ هـ.
- (١٢٦) المختصر في تاريخ البشر، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (ت ٧٣٢ هـ)، المطبعة الحسينية المصرية، ط ١.
- (١٢٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- (١٢٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي (ت: ٧١٠ هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بدوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- (١٢٩) المذاكرة في ألقاب الشعراء، أبو المجد اسعد بن إبراهيم الشيباني الإربلي المعروف بمجد الدين النشابي الكاتب (ت ٦٥٧ هـ)، المكتبة الشاملة، غير موافق للمطبوع.
- (١٣٠) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي، المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (ت ٦٥٤ هـ)، تحقيق: محمد بركات، كامل محمد الخراط، وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط ١، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- (١٣١) مراحل التمكين: دراسة قرآنية، أ.د. رمضان خميس زكي الغريب.
- (١٣٢) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٣٣) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- (١٣٤) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين، محمد بن أحمد بن أبي الفتح الأبيهي (ت ٨٥٠ هـ)، تحقيق: سعيد محمد اللحام، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ.



- (١٣٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، وكذا طبعة مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- (١٣٦) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- (١٣٧) مشكاة المصابيح، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥م.
- (١٣٨) المصنف، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، القاهرة، ط ١، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.
- (١٣٩) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- (١٤٠) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (ت ٦٤٧هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- (١٤١) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- (١٤٢) معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.
- (١٤٣) المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢.
- (١٤٤) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرّازي، الملقب بفخر الدين (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

١٥٥) النبوءة والسياسية، جريس هالسل، ترجمة: محمد السماك، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٥٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(١٥٧) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

(١٥٨) النكت والعيون (تفسير الماوردي): أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

(١٥٩) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب القرشي التيمي البكري النوري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(١٦٠) هل انتهى القرن الأمريكي؟ جوزيف س. ناي، ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، مكتبة العبيكان، طبعة ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.

(١٦١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان البرمكي (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١، ١٩٧١م.

المقالات والمواقع الإلكترونية:

(١) الجزء الأول من سلسلة محاضرات "البيولوجيا حين تكون أيديولوجيا" لريتشارد لوينتون، ترجم هذا العمل أسامة خالد: <https://osamakhalid.com/translations/biology-as-ideology/html>

(٢) مؤتمر لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية، التي تسمى اختصاراً (آيباك)، وهي مجموعة ضغط تدافع عن السياسات المؤيدة لإسرائيل <https://youtu.be/OdCEOGFS224?t=720>

(٣) موقع بصائر المعرفة القرآنية <https://quranok.com/books/8301>

(٤) موقع مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت.

<https://journals.ku.edu.kw/jsis/index.php/jsis/issue/view/343>

فهرس الموضوعات

٥	تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور رمضان خميس
١٠	تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور عمر بن بوذينة
١٣	بين يدي الكتاب
٢٩	دراسة تطبيقية: لنماذج من السُّنَنِ الإلهية في ضوء بصائر المعرفة القرآنية
٣٠	الفصل الأول
٣٠	نماذج من السُّنَنِ الإلهية الشرعية والاجتماعية في تداول الأيام في ضوء المعرفة القرآنية
٣٢	النموذج الأول: سُنَّة (رفض الحقائق): عدم اعتناق الحقائق يُساوي الإنسان بحالة الأنعام
٥٣	النموذج الثاني
٥٣	سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين [البقرة ٢٤٣-٢٥٤]
٥٤	النموذج الثالث
٥٤	(السببية) سُنَّة الحركة الكونية المتطورة المتغيرة
٥٨	قوانين التغيير الكونية كسببية قدرية:
٦١	أسس الرؤية القرآنية لفهم سرِّ القدر الإنساني
٩١	النموذج الرابع
٩١	حماية المجتمع من التدهور من خلال سُنَّة حراسة الجوانب الحقوقية الإنسانية
٩٩	النموذج الخامس
٩٩	السُّنَّة الكونية الشرعية المزلزلة للحضارات (نقص الأرض من أطرافها)
١٠٣	مظاهر نقص الأرض من أطرافها، وتطبيقاتها الواقعية
١٠٥	الحقائق المترتبة على الفهم الصحيح لسُنَّة نَقْصِ الأرض
١٠٦	اليمن والسُّنَّة الحاكمة (نقص الأرض من أطرافها)

۳۴۲

۳۴۳

- السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ: سُنَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ تَعْنِي الْحِمَايَةَ الْمَجْتَمَعِيَّةَ مِنَ الْإِنْهَارِ. ٢٨٢
- السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ: الْقِيَامُ بِأَمَانَةِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَالْحَذَرُ مِنَ التَّلَاعِبِ الشَّيْطَانِيِّ. ٢٨٤
- السُّنَّةُ السَّادِسَةُ: الْمَحَاسِبَةُ الدَّقِيقَةُ عَلَى الْمَسْئُولِيَّاتِ الْفَرْدِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّأْنِ الْعَامِّ ... ٢٨٧
- السُّنَّةُ السَّابِعَةُ: التَّشْهِيرُ الْإِعْلَامِيُّ الْمَكَافِي لِلْإِعْلَامِ الْمَضَلَّلِ بِفُضْحِ مَوَاطِرِ الْعَدُوِّ ... ٢٨٩
- السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ: فُضْحُ الضَّخِّ الْمَالِيِّ الْهَائِلِ الْمُنْطَلِقِ مِنَ الْأَبْعَادِ الدِّينِيَّةِ الْبَاطِلَةِ ... ٢٩٠
- السُّنَّةُ التَّاسِعَةُ: الْمَخَاطَبَةُ الْإِعْلَامِيَّةُ السَّرِّيَّةُ، أَوِ الْعَلْنِيَّةُ الْمُبَاشِرَةُ لِلْعَدُوِّ الْمَعْتَدِي ... ٢٩١
- السُّنَّةُ الْعَاشِرَةُ: التَّعَبُّتَةُ الرُّوحِيَّةُ، وَتَطْبِيقُ قَوَائِنِ الْإِنْضِبَاطِ عِنْدَ الْاضْطِرَارِ إِلَى الْإِشْتِبَاكِ. ٢٩٢
- السُّنَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: الْاجْتِرَاءُ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْأَخْطَاءِ لَيْسَ أَسَاسًا وَحِيدًا لِنَزُولِ الْهَزِيمَةِ .. ٢٩٧
- السُّنَّةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ: اسْتِنْفَارُ الْحَسِّ الْأَمْنِيِّ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةِ حَالِ وَجُودِ الْعَدَاءِ الْحَرْبِيِّ .. ٢٩٨
- السُّنَّةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ: الْإِعْدَادُ الْمَقْتَرَنُ بِسَمَوِّ الْأَهْدَافِ الْحَرْبِيَّةِ ٢٩٨
- السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: إِعْلَانُ الْجَنُوحِ إِلَى السَّلَامِ مَتَى مَا جَنَحَ الْعَدُوُّ إِلَيْهِ ٣٠٣
- السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: الْحَذَرُ مِنَ الْخِدَاعِ السِّيَاسِيِّ، وَالْعَسْكَرِيِّ ٣٠٤
- السُّنَّةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: التَّحْشِيدُ الْجَمَاعِيُّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَمْتِينُ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ ٣٠٤
- السُّنَّةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ النَّصْرِ: فَهْمُ الدِّينِ، وَفَقْهُ إِدَارَةِ الْمَدَافِعَةِ ٣٠٦
- السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: إِظْهَارُ الْقُوَّةِ فِي مَوْطِنِهَا مَكَافَى لِإِظْهَارِ الرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ فِي مَوْطِنَيْهِمَا ٣٠٨
- السُّنَّةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ: الْإِنتِصَارُ قَدْ يَتَحَقَّقُ أحيانًا بِاللَّيُونَةِ لَا بِالْخَشُونَةِ ٣٠٩
- السُّنَّةُ الْعِشْرُونَ: سُنَّةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَأَثَرِهَا فِي تَحْقِيقِ التَّقَدُّمِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ ٣١١
- فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ ٣٢٥
- فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ ٣٤١

الأستاذ الدكتور عبد السلام مكي الجبالي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/ كلية الشريعة/ جامعة قطر حالياً، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو 30 مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدّم عدداً من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

عاقبة المُنذرين

لَفْظُ قُرْآنِي يَطْرُقُ سَمْعَكَ فَتَشْعُرُ حَيَالَهُ بِالرَّهْبَةِ، وَتَقِفُ مَلِيًّا، وَتَسْأَلُ نَفْسَكَ: كَيْفَ كَانَتْ

العاقبة؟

إِنَّ مَا جَرَى مِنْ سُنَنِ الْهَيَّةِ وَحَوَادِثِ كَوْنِيَّةٍ مِنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ، تَدْعُونَا أَنْ نَسْتَبْصِرَ بِهِدِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ، وَأَنْ نَرَى الْمُسْتَقْبَلَ بَعَيْنِ الْمَاضِي، فَمَا سَبَقَ مِنْ أَحْدَاثٍ لَيْسَتْ وَقَائِعُ تُرَوَّى لِتَطْوَى، بَلْ تُرَوَّى لِنَسْتَبْصِرَ بِهَا، فَهِيَ إِذَنْ بِصَائِرُ لَنَا لَوْ كُنَّا نَعْقِلُ.

إِنَّ مَطَارِقَ السُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ نَذِيرٌ لِلْأُمَّةِ مِنَ الْاجْتِثَاثِ الْحَضَارِيِّ، وَمَا أَحْجَوْجَ أُمَّتَنَا الْيَوْمَ أَنْ تُوقِدَ شَمْعَةً فِي غِيَابِ ظِلَامِ اسْتِضْعَافِهَا، وَتَسْتَيْقِظَ مِنْ عَمِيقِ سُبَاتِهَا، وَتَحْذَرَ مِنَ الْمَاكِرِينَ بِهَا الْمُتَأَمِّرِينَ عَلَيْهَا، فَتَدْرُسَ سُنَنَ النَّصْرِ وَتَعِيَهَا، وَتَتَأَمَّلَ فِي قَوَانِينِ السَّبَبِيَّةِ وَتُحْيِيَهَا.

"عاقبة المُنذرين" صوتٌ يُدَوِّي فِي الدُّنْيَا، يَنَادِي كُلَّ قِيَادَاتِ الدُّنْيَا أَنْ اسْتَيْقِظُوا قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، يَنَادِي الْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادَ: "اسْتَجِيبُوا لِرِكِّمِ".

فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ فِي تَدَاوُلِ الْأَيَّامِ، وَسُنَنُ الْخُرُوجِ مِنْ حَالَةِ الْاسْتِضْعَافِ، وَأَهَمُّ سُنَنِ حِمَايَةِ الْأُمَمِ وَالْدُّوَلِ مِنْ خِلَالِ الْاسْتِرْشَادِ بِبَصَائِرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.



مكتبة الأسرة العربية
جبارك الفضل للمعرفة الأصيلة

UFUK nesriyat®

BASIN - YAYIN - DAĞITIM



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 8109

+90 555 028 1155

info@arabfamilybs.com